1

روايات مصرية للجيب

حرب الجواسيس

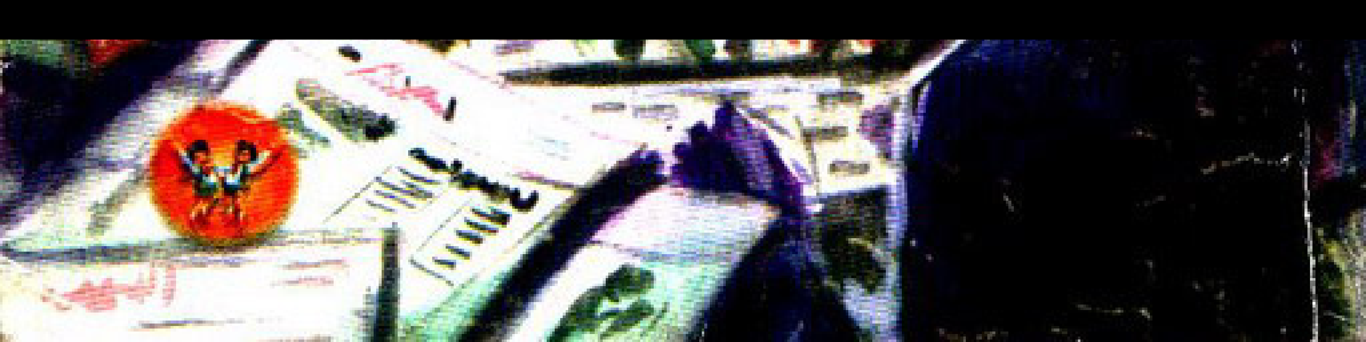
سلسلة الأعداد الخاصة

د. نبيل فاروق

الترس

Looloo

www.helmelarab.net



روايات مصرية للجيب

سلسلة الأعداد الخاصة

•



•

صراع العقول

الذى يتفوق دومًا

على أعتى الأسلحة

والمعدات

•

بريشة

الأستاذ / إسماعيل دياب

•

إشراف

الأستاذ / حمدى مصطفى

•

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع: ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة - ٦٨٣٢٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ، فاكس : 202/2596650 ع-ج-ع-

٤ شارع بدوى محرم بك - الإسكندرية .

مقدمة

منذ سنوات طوال ، ومع بداية كتابتى لسلسلة من المقالات ، عن الجاسوسية ، فى مجلة الشباب المصرية ، نصحنى العديدون بجمع تلك المقالات فى كتاب ، يصبح وجبة دسمة ، لكل المهتمين بعالم الجاسوسية والمخابرات ..

ولكننى لم أشعر يومها بأننى قد قدّمت ما يكفى لإصدار مثل هذا الكتاب ..

وبعد عدة سنوات ، ومقالات تجاوزت المائة ، أدركت أن إصدار كتاب كهذا قد أصبح أمرًا حتميًّا ..

وعندما أدركت هذا ، كانت المقالات قد بلغت حدًّا يستحيل معه أن يحتويها غلافا كتاب واحد ..

بل تحتاج إلى سلسلة من الكتب ..

لذا فقد قرّرت البدء فورًا ، فى إصدار مثل هذه السلسلة ..

سلسلة تجمع كل ما نشر ، فى مجلة (الشباب) المصرية ، من (صفحات من تاريخ الجاسوسية) .. ولكنها لا تنشر المقالات بترتيبها ، بل على نحو يجمع المقالات الخاصة بموضوعات منتقاة بعينها ، أو بموضوع واحد متصل ..



وكان من الطبيعى أن يجمع الكتاب الأوَّل مجموعة المقالات ، الخاصة بعمليات المخابرات ، قبل وأثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣م العظيمة ..

ومع هذا الكتاب الأوَّل ، أقدم شكرى وتحياتى إلى أستاذى الأستاذ (عبد الوهاب مطاوع) ، الذى منحنى فرصة تقديم هذه الأعمال فى مجلة (الشباب) ..

وإلى الأستاذ (حمدى مصطفى) ، الذى حرص على نشرها ، وعلى تقديمها فى أفضل صورة ، تناسب القارئ المصرى والعربى ..

وإلى رجال المخابرات العامة المصرية ، على تعاونهم واهتمامهم ، وتضحياتهم ، وسماحهم بنشر بطولات ، ظلت طويلاً تحت إطار السرية المطلقة ..

وأخيرًا إلى الأم ، التى من أجلها فعلت ، وفعل الرجال ، كل ما يستحق التسجيل ..

إلى (مصر) ؟

د. نبيل فاروق

أسمع .. أرى .. ولا أتكلم ..

خيمَ الهدوء تمامًا على تلك المنطقة من حى (مصر الجديدة) .. فى ليلة من ليالى (نوفمبر) عام ١٩٦٨م ، وخلت الشوارع تقريبًا من المارة ، مع برودة الطقس ، التى تزايدت إلى ما يفوق معدلاتها الطبيعية ، فى تلك الفترة من العام ، على الرغم من أن الشتاء لم يلق بثقله بعد ، وأغلق الناس نوافذهم ، وقبعوا فى بيوتهم ، ينعمون بشىء من الدفء ويكتفون بمشاهدة (التليفزيون) ، ومتابعة برامجه وأفلامه ، ونشرات الأخبار ، التى أشارت إلى جهود الرئيس (جمال عبد الناصر) ، لإعادة بناء الجيش والشعب ، والاستعداد لخوض معركة قادمة ، لا يعلم سوى الله (سبحانه وتعالى) وحده متى تندلع ..

وفى أحد الشوارع الرئيسية فى المنطقة ، توقفت سيارتان كبيرتان ، أمام بناء من طابقين ، وألقى أحد ركابهما نظرة على ساعة يده قبل أن يقول فى حزم واقتضاب :

- والآن ..

ولم يكد ينطق الكلمة ، حتى انفتحت أبواب السيارتين فى آن واحد ، واندفع منهما عدد من الرجال نحو ذلك المبنى الصغير ، وتعالى وقع أقدامهم ، وهم يصعدون إلى الطابق الثانى منه قبل أن يدق قائدهم باب الشقة المجاورة للسلم ، وينتظر فى صمت وحزم :

ولم تمض دقائق معدودة حتى فتح رجل قصير أصلع الباب ، وحدق فى الوجوه فى ذعر واضح ، وهمَّ بإلقاء سؤال ما ، لولا أن بادره قائد المجموعة قائلاً :

- الرائد (عادل) .. من المخابرات العامة المصرية .

اخترقت العبارة أذن القصير كرصاصة ، انتفض لها جسده كله فى عنف ، وزاغت عيناه ، وارتجفت ركبتاه ، ولم تقو ساقاه على حمله ، فتهاوى أمام الرجال ، الذين اندفعوا نحوه والتقطوه فى خفة ومهارة ، وقائدهم يكمل فى صرامة :

- أظنك تعلم لماذا نحن هنا ؟

لم يجب القصير ، وإنما انهار باكيًا فى حرارة وجعل يبكى ، ويستعطف ، ويتضرَّع ، ويتوسَّل ، طوال الفترة التى استغرقها الرجال فى تفتيش منزله ، وإخراج أدوات التجسُّس ، والتصوير ، والحبر السرى من مكامنها ، وحتى وهم ينطلقون به إلى أحد الأماكن التابعة للمخابرات العامة ، حيث أخذ يدلى باعتراف كامل فى انهيار واستسلام ، بعد أن أدرك أنه لم تعد هناك فائدة فى الإنكار ..

وفى حزم سأله وكيل النيابة :

- هل تعرف لحساب من تعمل يا رجل ؟

أومأ القصير برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

- لحساب المخابرات الإسرائيلية .

مطَّ وكيل النيابة شفتيه فى ازدراء قبل أن يلقى عددًا آخر من الأسئلة ، بدأها قائلاً :

ـ كيف كنت تحصل على المعلومات ؟

« ازدرد الجاسوس لعابه فى صعوبة ، وهو يجيب منهارًا » :

ـ من الإنصات إلى أحاديث الناس فى كل مكان .. إنهم يتحدثون كثيرًا عما عرفوه ، أو رأوه ، أو سمعوه . وكل ما أفعله هو أننى أنقل كل ما أسمعه إلى الإسرائيليين .

راح وكيل النيابة يلقى أسئلته الأخرى ، فى حين توقف عقل الرائد (عادل) طويلاً عند هذا الجواب ..

نعم .. أكثر من نصف ما يحصل عليه العدو يأتى من الإنصات السلبى للأحاديث العابرة ..

والناس لا تدرك أى جرم ترتكب فى حق الوطن ..

كل من يعرف حقيقة ما ، أو سمع أمرًا ما ، يتباهى بالحديث عن معلوماته فى كل مكان ، دون اهتمام أو حذر أو تقدير ..

فى العمل ، والبيت ، والشارع ، وحتى فى السينما والمسارح والمقاهى وأماكن اللهو والمرح ..

وهذا التسريب الرهيب يخدم العدو ، بأكثر مما تخدمه طائراته ودباباته وعرباته المصفحة والمقاتلة ..

ولم ينم الرائد (عادل) ليلتها ، وهو يفكر فى هذا الأمر ،

الذى استحوذ على تفكيره وشغل عقله واستولى على كيانه كله حتى مطلع الشمس ..

وفى ساعة مبكرة من النهار ، كان يدخل مكتبه ويلتقط ورقة كبيرة ، ويبدأ فى وضع الخطوط العريضة لفكرة نبتت فى رأسه فى المساء ، وراحت تنمو وتنمو ، حتى صارت شجرة وارفة ، غزيرة الأغصان ، طيبة الثمار ..

وفى التاسعة وأربع دقائق بالتحديد ، كان يطرح فكرته على مائدة البحث ، فى حجرة الاجتماعات الخاصة فى الجهاز ، وفى حضور المدير نفسه ، مع عدد من الضباط القدامى ، والخبراء المعدودين ..

على الرغم من أن الخطة كانت مكتملة من جميع الجوانب ، وتشتمل على بيان مفصَّل بالجهود التى ينبغى بذلها ، إلا أنها بدت للوهلة الأولى خيالية مرهقة ، كفيلة ببث روح اليأس فى قلب أكثر الرجال تفاؤلاً ومثابرة ..

لقد أعد الضابط الشاب خطة محكمة وبعيدة المدى ، لإقناع الناس بإغلاق أفواههم ، وبأن كل معلومة تتسرب منهم إلى العدو تعنى أن طريق النصر سيصبح أكثر بعدًا ، إن لم ينسد أمامنا تمامًا ..

وناقش الرجال الخطة من كل جوانبها ، لأكثر من ثلاث ساعات كاملة ، وأخيرًا ربَّت المدير براحته على سطح مائدة الاجتماعات ، وهو يتنهد ، قائلاً :

ـ بعد كل هذا ، هل تعتقد أنه بمقدورك أن تقوم بهذه المهمة يا (عادل) .

أجابه الضابط الشاب فى حسم وحماسة :

ـ بكل تأكيد .

أومأ المدير برأسه متفهمًا ، قبل أن يقول :

ـ فليكن .. ابدأ على بركة الله .

وكان هذا إيذانًا ببدء الخطة ، التى تعتمد على شن حملة ضخمة ، على كل المستويات لتوعية الناس بضرورات الأمن ، وتعريفهم بأساليب العدو فى جمع المعلومات ، ومنعهم من الإفضاء بما لديهم فى كل مناسبة ـ وبدون مناسبة ـ وسد الثغرة التى تتسرب منها الأسرار .

وعندما بدأ (عادل) خطته ، كان يدرك جيدًا أن الخطوة الكبرى والأولى ، بل والعمود الفقرى للخطة كلها هى الدين ، فلابد أن يدرك الناس ، من خلال جهات يمنحونها كل ثقتهم ضرورة كتمان الأسرار ..

ولا توجد جهات لهذا الغرض ، أفضل من دور العبادة ، فغالبية المواطنين يترددون عليها بانتظام ، ويؤدون فيها مناسكهم وصلواتهم ، والتوعية من خلالها ستجد حتمًا الصدى المطلوب فى نفوس الجميع ..

ولتحقيق هذا الغرض ، كان من الضرورى أن يفهم رجال

الدين الفكرة ، ويستوعبوها ، ويقتنعوا بفائدتها وضرورتها ، حتى يمكنهم نقل هذا إلى مستمعيهم ..

وعلى الرغم من أن طبيعة العمل فى أجهزة المخابرات لا تميل قط ـ بل وربما تتنافى تمامًا ـ مع العلانية ، والاجتماعات الرسمية ، إلا أنه كان من الضرورى أن يعقد الرجل اجتماعًا موسعًا مع رجال الدين ، من شيوخ وقساوسة ، ليتحدث إليهم مباشرة ، ويشرح لهم فكرته والأسلوب الأمثل لتعاونهم معه على تحقيقها ..

وكانت الفكرة ناجحة بحق ..

لقد اقتنع الجميع بالفكرة بسرعة ، ولقد أضفى قيام ضابط مخابرات بشرح القضية جدية وخطورة على الموقف ، فتفاعل معه رجال الدين فى حماسة ، واستوعبوا الموقف كله ، واتفقوا معه فى الرأى تمامًا ..

وفى الأيام التالية بدا من الواضح أن الفكرة كانت مدهشة وناجحة إلى حد مذهل ، فقد انطلق خطباء المساجد ، والقائمون على الوعظ فى الكنائس ، ينبهون الناس إلى ضرورة التزام الصمت ، حتى لا يستفيد العدو من ألسنتنا ، وكان لحماسهم وإخلاصهم أثره البالغ فى استجابة جموع الشعب للفكرة بسرعة مدهشة ، كما اتضح بشكل قاطع فى السنوات التالية ..

ولكن الجعبة لم تكن قد فرغت بعد ..

فبعد رجال الدين ، جاء دور الطوائف الأخرى ، التى يمكنها التأثير فى الجماهير ، التى تكتسب ثقتها واهتمامها ، مثل الأدباء والصحفيين ، ومؤلفى الأغانى ، ومعد التمثيليات ، ومخرجى المسلسلات الإذاعية والتليفزيونية ..

وفى هذه المرة ، عقد الرجل معهم اجتماعًا موسعًا أيضًا .

صحيح أن هذا يتعارض كثيرًا مع نظم العمل فى أجهزة المخابرات ، التى تحبذ السرية والصمت ، إلا أنه أروع ما فى هذه النظم هو أنها ليست جامدة أو متحجرة ، وإنما يمكنها أن تتغير وتتبدل ، طبقًا للظروف ومقتضيات الموقف ..

ومن هذا المنطلق ، شرح الرجل الفكرة للحشد الذى اجتمع لينصت إليه ، وطلب منهم أن يعملوا على شد انتباه المواطنين ، من خلال ما يقدمونه من مقالات وكتب ، وروايات ، وأعمال فنية وترفيهية ، إلى الخطر الرهيب ، الكامن فى الأحاديث غير المسئولة فى الشوارع والمصانع ووسائل المواصلات ، وينبهوهم إلى مزايا الصمت والتكتم ، وحجب أنباء المنشآت والأسلحة والنوايا ..

ومرة أخرى آتت الفكرة ثمارها على نحو مدهش ..

لقد انطلق سيل من الروايات ، والكتب ، والمقالات ، والمسلسلات ، والبرامج الإذاعية والتليفزيونية يغمر وسائل الإعلام ، ويملأ أسماع وعيون وعقول الناس ، على نحو لم يسبق له مثيل ..

وفى حماسة ، التفَّ الناس حول أجهزة الراديو ، لمتابعة مسلسل (كلاب الحراسة) الذى كتبه (كمال إسماعيل) ، ابن الراحل (محمود إسماعيل) ، وأخرجه للإذاعة الفنان (على عيسى) ، ثم لم يلبث المسلسل أن تحول إلى (التليفزيون) ، من إخراج (نور الدمرداش) ، فتضاعف نجاحه مرات ومرات ..

وتواصل السيل ، ليكتب (محمود صبحى) فى برنامج (عيلة مرزوق أفندى) ، ويكتب (رأفت الخياط) (البعثة ٦٩) ويقدم (محمد كامل) (المصيدة) ، فى حين أخرج (محمد شرابى) عشر تمثيليات فى برنامج (صور من الحياة) حول الفكرة نفسها ، وقدم (على عيسى) برنامجين ناجحين (من قصص الجاسوسية) ، و(الحرب النفسية) كما شارك (فائق إسماعيل) بمسلسلين (اللصان والجاسوس) ، و(لا أسمع .. لا أرى .. لا أتكلم) ..

ومع تقديم هذه الأعمال تضاعف الحماس أكثر وأكثر ، وتصاعدت درجة الوعى ، وبدأ الناس يدركون أهمية إمساك الألسنة ..

ولكن الحملة لم تتوقف ..

والسيل لم ينقطع ..

لقد قدم (محمد سعيد) برنامج (جند الله) ، فى حين تبنى

مذيع البرامج الدينية الأشهر (أحمد فراج) الفكرة فى برنامجه (نور على نور)، وجذبت الإذاعة الآذان والعقول والقلوب بثلاث خماسيات، لاقت نجاحًا كبيرًا فى حينها، وهى (تذكرة إلى أثينا)، و(كمين)، و(صراع حتى النهاية)..

وفى نفس الوقت كان العشرات من أصحاب الأقلام يقدمون المقالات، فى الصحف المختلفة، مثل (حسين فهمى)، و(أنيس منصور)، و(عبد السلام داود)، و(صلاح هلال)، و(جميل عارف)، و(عبده مباشر)، وغيرهم..

وعلى الرغم من كل هذا النجاح، ومن أن الدعوة قد وجدت طريقها إلى مختلف قطاعات الشعب على نحو شديد الإلحاح والاستمرارية، إلا أن رجل المخابرات كان يشعر بأن هناك شيئًا ما ينقص خطته..

صحيح أن الناس تدرك الآن خطورة التشدق بالمعلومات، والتباهى بالأهداف، إلا أن العديد منهم مازالوا يتخذون موقفًا عدائيًا من جهاز المخابرات العامة بعد المناخ الذى ساد عقب نكسة يونيو ١٩٦٧م، والذى حاول البعض خلاله تشويه صورة الجهاز، والانتقاص من قدره، ونسب العديد من الأعمال المنافية للأخلاقيات إليه، دون مبرر أو دليل..

وكان من الضرورى أن يتم تحسين هذه الصورة، وتعريف

الناس بحقيقة عمل المخابرات العامة، وبأنها الدرع الواقية للبلاد، والسبيل الأمثل لحماية الوطن من أعدائه خارج الحدود وداخلها، وفى سبيل هذا الهدف النبيل، فإنها تسعى للحصول على معلومات عن العدو وتأمين أفراد الشعب ومعداته ومنشآته، بمكافحة التجسس والتخريب، وأنه لا صلة لها قط بأعمال القمع، التى لم ولن تدخل فى نطاق عمل المخابرات..

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف الجديد، استعان (عادل) بواحد من أفضل وأبرع من توغلوا أدبيًا فى عالم المخابرات، وهو الراحل (ماهر عبد الحميد) ـ رحمه الله ـ وطلب منه أن يكتب مقالات أسبوعية، فى إحدى الصحف الكبرى، للتعريف بعمل المخابرات وأهميته، وقال له فى تأثر واضح، وهو يشرح له ضرورة بذل أقصى الجهود، لتوعية الشعب فى هذا المضمار:

ـ هل تتصوَّر أن أحد الجواسيس قد عرف بتحرك فرقة كاملة من فرق الجيش، من حديث جنديين يثرثران فى قطار؟! وأن آخر نقل معلومات ثمينة عن الغواصات، بعد أن استمع إلى رجل يعمل فى قاعدة من قواعد تموين الأسطول؟! ثم تنهد فى مرارة، وهز رأسه فى أسف، قبل أن يستطرد:

ـ والأدهى أنك تسمع الناس، وهى تطلق على إحدى محطات الأتوبيس ـ وبكل بساطة ـ اسم (محطة المطار السرى).

واقتنع (ماهر عبد الحميد) بضرورة المشاركة فى هذه الحملة ، خاصة وأنه جاسوس سابق ، كان له الفضل فى الإيقاع بشبكة تجسس إسرائيلية وإلقاء القبض على جاسوس بالغ الخطورة ..

ووقع اختياره على فكرة جديدة شيقة ..

لقد نشر ولأوّل مرة فى (مصر) ، عملية تجسس حقيقية ، بكل تفاصيلها ، التى لا تخل بمتطلبات الأمن ، تحت عنوان (قصتى مع الجاسوس) ..

وكانت هذه تفاصيل العملية التى أسهم فيها بنفسه ، منذ عدة سنوات ..

وكان لهذه الخطوة ، كسابقاتها ، تأثير مدهش على الناس ، الذين أدركوا وربما لأوّل مرة ، مقدار الجهد الذى يبذله رجال المخابرات العامة المصرية والمخاطر التى يتعرضون لها ويواجهونها ، وأهميتهم البالغة فى الحفاظ على أمن الوطن وسلامته ..

ونجحت الحملة أكثر وأكثر ، حتى إن جريدة (جيروساليم بوست) الإسرائيلية قد نشرت مقالاً ، فى عددها الصادر بتاريخ ٢٦/٤/١٩٧٢م ، تحذر فيه بشدة من مغبة الحملة المكثفة ، التى تقوم بها الأجهزة المصرية والإعلام المصرى ، لتوعية

الشعب وإقناعه بضرورة الصمت وكتمان الأسرار ، وتقول : إن تأثير هذه الحملة لن يؤدى إلى تقليص كمية المعلومات ، التى يجمعها عملاء المخابرات الإسرائيلية فحسب ، وإنما سيمتد إلى تغيير وتبديل مواقف بعض العملاء ، الذين يعملون ضد الدول العربية الأخرى أيضًا ، ثم تؤكد ضرورة أن تعيد المخابرات الإسرائيلية تقييم موقفها ، فى ظل هذه الحملة المكثفة ..

وعندما قرأ (عادل) هذا المقال ، ارتسمت على شفتيه ، وفى أعماقه ابتسامة ارتياح كبيرة ، وطرح شعوره هذا فى الاجتماع الدورى ، الذى يتم عقده فى الجهاز بحضور المدير شخصيًا ، لمتابعة نتائج الحملة وتطوراتها ، والخطوات المقترحة لتحسينها ، وقال فى اهتمام :

- أعتقد أن هذا يعنى أن الحملة تؤتى ثمارها فى وضوح ، حتى إنها أصبحت تزعج الإسرائيليين بشدة .

وافقه معظمهم ، فى حين قال المدير :

- هذا صحيح ، ولكن انزعاجهم سيدفعهم إلى بذل المزيد من الجهد لإفساد خطتنا ، وتطوير وسائل جمع المعلومات لديهم وهذا يعنى مواصلة الحملة بجهد أكبر ، وحمايتها من أية محاولات لتشويه الهدف منها أو تحطيمها .

دارت مناقشات الرجال حول هذا الأمر لفترة ، ولكنهم اتفقوا على أنه قد نجحت الحملة إلى حد كبير بلا شك ..

ولقد تأكد هذا تمامًا ، مع الاستعدادات التى سبقت حرب أكتوبر ١٩٧٣ م ، عندما كانت تحركات قطع الجيش واضحة للجميع ، فى قلب (القاهرة) ، التى قطعتها قوافل الدبابات ، والمدفعية ، والذخائر ، والوقود ، وعربات نقل الجنود ، ووحدات الرادار الميدانية ، أمام أعين الجميع ، دون أن تنفك الألسن ، أو تفقد زمامها ، كما كان يحدث من قبل .. بل إن (عادل) قد اختبر هذا بنفسه ذات يوم ، وهو يركب سيارته الصغيرة المصرية الصنع ، قاطعًا الطريق الزراعى ، فى طريقه إلى (الإسكندرية) ، فقد لمح مابدا له أنه طائرات جاثمة بين الحقول ، فتوقف ليسأل فلاحًا كهلاً عن تلك الطائرات ، فانعقد حاجبا الرجل ، ورفع فأسه فى تحفز ، وكأنه فارس يستعد بسيفه لقتال شرس ، وقال فى صراحة :

ـ ليس هذا من شأنك يا رجل .

ومن المؤكد أن نفس ذلك الفلاح الكهل قد امتلأت بدهشة لاحدود لها ، مع تلك الابتسامة الكبيرة الراضية ، التى ارتسمت على شفتى (عادل) ، وملأت وجهه ، على الرغم من صرامة الجواب وفظاظته ، وهو ينطلق بسيارته مواصلاً

طريقه ، ولكنه لم يدرك أبدًا أن ذلك الجواب الصارم قد أثلج صدر رجل المخابرات ، كما لم تفعل أعظم كلمات المدح والتهنئة ..

لقد أدرك الآن فقط أن الحملة قد نجحت نجاحًا منقطع النظير ..

وأن المصرى البسيط مازال يسمع الأسرار ويراها ..

ولكنه لم يعد يتكلم بشأنها ..

أبدًا ..

★ ★ ★

حرب الإدارة (٤٤) ..

انهمرت الأمطار فى غزارة غير مسبوقة ، فى تلك الليلة من ليالى شتاء ١٩٧٠م ، وانخفضت معدلات الحرارة أكثر من المعتاد ، فلزم الناس منازلهم ، وخلت شوارع (القاهرة) من المارة باستثناء أولئك الذين تضطرهم ظروف عملهم إلى الخروج ، مهما كانت الظروف والملابسات ..

ومن بين هؤلاء كان (خالد) ..

ضابط مخابرات شاب ، قطع طريقه تحت الأمطار الغزيرة فى خطوات سريعة ، وخصلات شعره المبتلة تلتصق بجبينه ، وحاجباه المعقودان ، مع نظراته المركزة على الطريق كانا يوحيان بأنه لا يشعر حتى بالمطر المنهمر ؛ لأنه غارق حتى أذنيه فى تفكير عميق ، شغل عقله ، وأرهق ذهنه منذ ما يزيد على ساعتين كاملتين .

وفى آلية ، أبرز بطاقة هويته لحارس مبنى المخابرات ، الذى ابتسم وهو يلقى عليه التحية ، دون أن يلقى نظرة واحدة على بطاقته قائلاً :

مساء الخير يا (خالد) بك .

لم ينتبه الضابط الشاب إلى التحية ، وهو يواصل طريقه بنفس الآلية ، حتى بلغ ذلك المكتب من الطابق الثانى من المبنى ، والذى



يشاركه فيه زميل نحيل ، لم يكد يلمحه ، حتى ارتفع حاجباه فى دهشة ، وهو يقول :

مساء الخير يا (خالد) .. ماذا أصابك يا رجل ؟! تبدو وكأنك خرجت على الفور من أعماق البحر !! ألم تكن تحمل مظلة ؟!

رفع (خالد) عينيه إليه ، وكأنما يراه لأول مرة ، وتمتم :

ـ مظلة ؟! لماذا ؟!

ضحك النحيل ، مكررًا :

ـ لماذا ؟! قل لى يا (خالد) : ألم يخبرك أحد أن السماء تمطر بغزارة منذ غروب الشمس .

خلع (خالد) معطفه ، وألقاه على مقعد خشبى أمام مكتبه ، وهو يتمتم :

ـ آه .. المطر .

انعقد حاجبا زميله ، وتطلع إليه بضع لحظات فى دهشة ، قبل أن يسأله :

(خالد) .. ما الذى يشغل بالك هذه الليلة ؟!

نظر إليه (خالد) لما يقرب من نصف دقيقة كاملة ، قبل أن يجيب فى ضيق واضح :

ـ فكرة تسيطر على عقلى منذ عدة أيام ، ويبدو أنها قد بلغت ذروتها الليلة ، ولم تعد تحتمل أن تظل سجينة فى أعماقه أكثر من هذا .

اعتدل النحيل ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ أية فكرة هذه ؟

بدا الاهتمام على وجه (خالد) ، وهو يجيب :

ـ الإسرائيليون يعتمدون ، فى جزء كبير من حربهم على الشائعات ، وأساليب الحرب النفسية ، فى محاولة للتأثير على معنويات شعبنا ، وبث روح الضعف والانهزام فى أعماقه ، فيتحدثون عن قوتهم الأسطورية ، وجيشهم الذى لا يقهر ، و .. و .. فلماذا لا نتبع معهم الأسلوب نفسه ؟! لماذا لا نحاربهم بالسلاح ذاته ، الذى يستخدمونه ضدنا ؟! لماذا لا تكون لدينا إدارة خاصة لهذا الغرض ؟!

ارتفع حاجبا النحيل ، وهو يهتف فى حماس :

ـ فكرة مدهشة يا (خالد) .. هل حاولت عرضها على الرؤساء ، فى الاجتماع الدورى ؟!

هز (خالد) رأسه نفيًا ، وهو يقول فى حزم :

ـ ليس بعد .. لم تكن الفكرة قد اختمرت فى رأسى بعد ، أما الآن ، فأنا على أتم الاستعداد لعرضها ، والدفاع عنها لو اقتضى الأمر .

كان حماسه مشتعلاً بالفكرة ، حتى إنه لم يمض أسبوع واحد ، إلا وكان يجلس مع عدد من خبراء الجهاز لمناقشة الفكرة ، حول مائدة الاجتماعات ..

ومن المؤكد أن الأمر قد راق للجميع ، ولاقى استحسانهم وتأييدهم ، حتى إن أحدهم لم يعترض عليه قط ، وإن قال المدير فى اهتمام مشوب بالقلق :

ـ المشكلة الوحيدة أنه ليست لدينا اعتمادات كافية لإنشاء إدارة جديدة ، ولا يوجد حتى مكان لبدء عملها فى الوقت الحالى .

هز (خالد) رأسه فى حزم ، وهو يقول :

ـ لا بأس .. يمكننى أن أتولى هذا الأمر ، وأن أتجاوز تلك العقبات .

وهكذا ، وفى نفس الليلة ، حصل (خالد) على الموافقة الرسمية لإنشاء تلك الإدارة الجديدة ..

وفى الليلة الأخيرة من عام ١٩٧٠ م ، بدأت الفكرة تتخذ خطواتها العملية الأولى ، لتتحول إلى حقيقة ..

ففى تلك الليلة ، وصل مندوب من جهاز المخابرات العامة إلى (ماهر) أحد ضباط الجيش السابقين ، وأحد الذين تعاونوا بكل جهدهم ، وغامروا (بحياتهم نفسها) لحساب المخابرات العامة المصرية ، من أجل الوطن ، وسلمه رسالة تطالبه بالحضور إلى أحد الأماكن التابعة للمخابرات ، فى العاشرة من صباح اليوم التالى ..

وعندما وصل (ماهر) ، فى الموعد المحدد بالضبط كان فى استقباله (خالد) ، مع ثلاثة من الرجال ، قدمهم إليه قائلاً :

إنهم زملاؤه فى إدارة جديدة للحرب النفسية ، مهمتها هى كتابة منشورات موجهة إلى المجتمع الإسرائيلى ، لهز ثقتهم فى قيادتهم ، وبث روح الضعف والاستسلام فى نفوسهم ، وتحطم روحهم المعنوية ..

وفى نهاية حديثه ، قال (خالد) للرجال الأربعة ، وهو يقودهم عبر ساحة المبنى إلى بقعة ما فى نهايتها :

ـ المشكلة الوحيدة هى أنه ليست لدينا اعتمادات مالية كافية ، ولكننى واثق أنه باستطاعتكم تجاوز هذه النقطة .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يضيف فى حزم :

ـ من أجل الوطن .

كان لجملته الأخير مفعول السحر ، فى نفوس الجميع ، حتى إن أحدهم لم يعترض ، أو يبالِ بالاعتراض على المقر الذى قدم لهم ، والذى بدا من رائحته أنه كان مخزنًا قديمًا للوقود ، ولم يحاول أحدهم حتى أن يشكو من تلك المقاعد البالية والمكاتب القديمة ، التى وضعت فى المكان ..

لقد بدءوا عملهم فى حماس ، وراحوا يصلحون المقاعد والمكاتب ، ويضيفون بعض اللمسات الجمالية الأنيقة هنا وهناك ، حتى حولوا مخزن الوقود القديم إلى مقر لإدارتهم الجديدة ، التى ظلت ولفترة ما ، بلا اسم أو رقم ..

ولكنها بدأت عملها على الفور .. ومنذ اللحظة الأولى ، تبين للضابط (ماهر) أن أحد رفاقه الثلاثة هو رئيس الإدارة ، فقد اتخذ لنفسه مكتبًا كبيرًا ، وعقد لهم اجتماعًا فوريًا ، ثم قسم العمل بيهم ، فأسند لأحدهم كل ما يختص بالجيش الإسرائيلى ، وللثانى ما يتعلق باليهود الشرقيين (السفرديم) ، ثم أعطى (ماهر) أمر اليهود الغربيين (الاشكنازيم) ، وبعدها قال لهم فى حزم :

- المطلوب من كل منكم الآن أن يعد منشورًا باللغة العبرية للقطاع المحدد له ، وأن تعملوا ، من خلال هذه المنشورات على بث روح اليأس فى نفوس من تخاطبونهم ، بأسلوب غير مباشر ، اعتمادًا على معرفتكم لعقلية هذه الطوائف الإسرائيلية ، والظروف الاجتماعية السائدة فيها .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يستطرد :

- سأتولى بنفسى التعامل مع طائفة اليهود المولودين داخل (إسرائيل) ، أو ما نطلق عليه اسم (السابرا) ولكننى أعدكم ببذل كل ما يمكننى من جهد ، للحصول على كل ما يمكن أن يفيدكم من معلومات ، وعلى الصحف اليومية الإسرائيلية فى انتظام ، ولكن لا داعى للإسراف فى التفاؤل ، فهذا كله مرهون بإمكانيات ليست فى متناول يدنا بشكل كامل بعد .

كان يعلم أن كلاً منهم له خبرة سابقة فى التعامل مع

الإسرائيليين ، من خلال عمليات سرية ، وأنهم يصلحون تمامًا للمواقع التى اختارها لهم ، لذا فقد دفعهم لبدء العمل دون إبطاء ، ومنح كلاً منهم رزمة من الورق ، وطاقمًا أنيقًا من الأقلام الرخيصة ، وبعض أدوات الكتابة الأخرى ..

وبدأت الإدارة الجديدة عملها ..

وعندما أمسك كل منهم قلمه ، واستعد لبدء عمله ، أعاد ذلك الرئيس على مسامعهم نصيحة تقليدية ، لا يمل رجال المخابرات المحنكين من ترديدها على آذان الجدد قط .

- لا تترك أية أوراق فى مكتبك ، ولا تكتب كلمة واحدة ، قبل أن تتأكد من أن ورقتك فوق جسم صلب .

وطوال الأيام التالية ، انهمك الجميع فى العمل بحماس شديد ..

كانوا يلتقطون الأخبار المثيرة للاهتمام ، فى الصحف الإسرائيلية ، ويراجعونها مع ما ورد إليهم من معلومات ، ثم يصوغون منشورات ملتهبة ، تكشف بعض الحقائق للشعب الإسرائيلى ، مع إضافة بعض التوابل والمشهيات إليها ؛ لإحداث التأثير المطلوب ..

ولكن أحدًا منهم لم يعلم مصير المنشورات التى يكتبها بالضبط ..

كانوا يؤدون عملهم فحسب ، ثم لا يلقون أية أسئلة عما يسفر عنه ذلك ، كما تنص تعليمات وقواعد العمل فى المخابرات ..

وذات يوم ، ألقى أحدهم تساؤلاً حول مصير منشوره ، الذى كتبه للجيش الإسرائيلى ، فصمت رئيسه لحظات ، ثم أجاب فى حزم :

- واجبنا هو أن نكتب ما يطلب منا فحسب ، ولا شأن لنا بمصيره فإما أن يلقى فى سلة المهملات ، أو فوق رءوس الإسرائيليين .. هذه مهمة الآخرين .

وعلى الرغم مما فى هذا الجواب من غموض محبط إلا أن الرجال الثلاثة كانت لهم خبرات سابقة ، جعلتهم يتفهمون طبيعة عمل المخابرات ويتقبلونها ، ويواصلون عملهم بنفس الاهتمام ، دون أن يتكرر هذا السؤال على ألسنتهم قط .

وبين حين وآخر ، كان (خالد) يحضر لزيارتهم ، ويتابع عملهم ، ويستمع إليهم ، ويتناقش معهم ، ويتعرف مطالبهم ، ثم يختفى لفترة أخرى ..

وبعد أشهر قليلة ، انضم إلى المجموعة شاب قصير قوى البنية ، لم يرق للمجموعة فى البداية ، إلا أنه لم يلبث أن اكتسب اهتمامهم واحترامهم بشدة عندما فوجئوا بأنه يعرف أسماء المدن والقرى والشوارع والأزقة فى قلب (إسرائيل) ، وكأنما عاش هناك طيلة عمره ، وكانت لديه إجابة فورية على أى سؤال يتعلق باليهود وحياتهم ، وعن المجتمع الإسرائيلى بأدق تفاصيله ..

وأيضًا كانت له ذاكرة مدهشة ، حتى إنه يحفظ تاريخ كل شركة

ومكتب ومتجر إسرائيلى عن ظهر قلب ، إلى جوار أسماء المسئولين ومعاونيهم حتى الفئة الثالثة ..

ثم أضيف إلى الإدارة عدد من الموظفين ، والعاملين على الآلة الكاتبة ، وضم إليها رئيسها جراجًا قديمًا ، ونجح فى إحضار سيارة لنقل الجميع إلى منازلهم ، و(فراش) لإعداد المشروبات الساخنة وعصير الليمون ..

وبدا العمل يتخذ صورة أكثر متعة ..

وفى ديسمبر ١٩٧١م ، وصل أول خبر عن وجود منشوراتهم فى (تل أبيب) ، وعن اهتمام الإسرائيليين بها ، وبتداولها سرًا ، وأكد أحد التقارير أنها تصل إلى جنود الجيش الإسرائيلى فى خنادقهم ، وأن بعضهم ينجح فى تهريبها إلى أسرته ..

وكان هذا أسعد خبر تلقته الإدارة الجديدة ..

وكان الدليل الأول على نجاح عملها ..

أما الدليل الثانى ، فقد جاء على لسان رئيسهم ، عندما اجتمع بهم ، وقال فى حزم :

المعلومات التى سأخبركم بها الآن بالغة السرية ، وينبغى أن تنسوها فور استغلالها فى كتابة منشوراتكم .

كان هذا يعنى أن منشوراتهم صارت لها أهمية بالغة ، وبلغ تأثيرها مداه ، بين مختلف طوائف الشعب الإسرائيلى ..

وبدا هذا شديد الوضوح فى مايو ١٩٧٢م ، عندما أصبح من حق الإدارة أن تطلب ما تشاء من معلومات ، يمكن أن تفيد عملها ..

ولكن فى بداية عام ١٩٧٣م ، أطل هذا النجاح برأسه فى وضوح ، وأعلن نفسه على نحو لا يقبل الشك ..

هذا لأنه فى هذه الفترة بالتحديد ، أصبحت إدارتهم إدارة مستقلة وحملت اسم الإدارة (٤٤) ، وأصبح لها أوراق مطبوعة بهذا الاسم ، ومكاتبات رسمية يزهو بها أفرادها ويتباهون ..

ومع هذا التطور ، استدعى الرئيس المباشر (ماهر) إلى مكتبه ، وطلب منه الجلوس ، ثم مال نحوه ، قائلاً :

ـ أظنك لاحظت أننا أصبحنا إدارة رسمية ، وأصبح لنا اسم واضح وهو الإدارة (٤٤) ، وسيؤدى هذا بالطبع إلى اتساع عملنا وتطوره ، مما سيضطرنا إلى الاستعانة بعدد من الموظفين والعاملين ، ولقد قررت إسناد مهمة اختيار هؤلاء الجدد لك .

شعر (ماهر) بالفخر والسعادة ، وهو يقول فى حماسة :

ـ سأبذل قصارى جهدى لاختيار العناصر الجيدة .

أومأ الرئيس برأسه متفهمًا ، واعتدل فى مقعده ، قائلاً :

ـ قبل أن تفعل هذا ، ينبغى أن تدرك جيدًا أننا لا نحتاج إلى عناصر عدوانية ، أو من المؤمنين بضرورة الحل العسكرى ..

بل على العكس ، نريد اختيار أولئك الذين يؤمنون بالسلام ، وبأن الحل السلمى هو أفضل الحلول .

شعر (ماهر) بالدهشة لهذا القول ، ولكنه لم يكن يملك الاعتراض أو المناقشة ، ما دامت هذه هى السياسة العامة للدولة وقيادتها السياسية ..

وحصل (ماهر) على مكتب جديد لاختيار المتقدمين ، تعلوه آية قرآنية تحض على السلم ، داخل إطار أنيق ، وبناء على تعليمات رئيسه المباشر ، ورئيسهما (خالد) ، وضع على مكتبه ملفًا كبيرًا ، على نحو يوحى بالإهمال ، وفوقه وضع كتابًا يخفى جزءًا من عنوانه ، ولكن يترك القسم الأكبر من هذا العنوان ، الذى يوحى بأن السياسة العامة تتجه نحو الحل السلمى ..

ولأن (ماهر) جاسوس قديم ، وله خبرة سابقة فى العمل السرى ، وفى التعامل مع الإسرائيليين بالتحديد ..

ولأن ضابط الحالة فى عمليته السابقة كان (خالد) نفسه ، فقد أدرك أن كل هذه التفاصيل المدروسة تحمل بدون شك رسالة خاصة ، يراد توصيلها إلى القيادة الإسرائيلية على نحو ما ..

ولكنه ، وعلى الرغم من هذا ، راح يختبر المتقدمين بكل اهتمام ، ويلقى عليهم الأسئلة المدروسة ، التى تحدد ميلهم للحلول العسكرية أو السلمية ..

وفى النهاية وقع الاختيار على أصحاب الميل للحل السلمى وحدهم ..

وفى الدورة التدريبية ، التى تلقاها هؤلاء الجدد ، أوضح رئيس الإدارة الجديدة أن الهدف من إنشائها هو دفع الإسرائيليين إلى إلقاء السلاح ، وإلى الإيمان بالسلم بديلاً عن الحرب ، وأنهى محاضرته بعبارة واضحة :

ـ لابد أن نعترف بالحقيقة بلا مواربة .. إننا لانستطيع خوض حرب مباشرة مع إسرائيل ما دامت (أمريكا) تساندها بكل قوتها ، وأنه لابديل أمامنا عن السلم ، بأى ثمن كان ..

وكانت هذه أكبر خدعة فى تاريخ الإدارة (٤٤) ..

لقد أدرك رجال المخابرات المصرية أن أمر الإدارة الجديدة قد انكشف للإسرائيليين ، وأنهم يسعون لدس بعض عملائهم بين صفوفها ، فحولوها إلى إدارة مستقلة ، ومنحوها ذلك الاسم الجديد (الإدارة ٤٤) ، ثم أضفوا عليها سمة السعى للسلام ، حتى يثق الإسرائيليون بأن المصريين لا يفكرون أو يخططون لأية حروب فى المرحلة القادمة ..

ثم كانت المفاجأة فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣م ..

ففى ذلك اليوم حدث العبور العظيم ، وحطمت قواتنا خط (بارليف) الأسطورى ، ودحرت أسطورة جيش (إسرائيل) الذى لا يقهر ..

وفى اليوم نفسه ألقت المخابرات المصرية القبض على اثنين من الموظفين الجدد فى الإدارة ، والتى سمحت لهما بالانضمام إليها من قبل ، لتستخدمهما كوسيلة لخداع الإسرائيليين ..

وبعدها أصدر (خالد) قراره بإلغاء الإدارة (٤٤) ، بعد أن أدت مهمتها بنجاح ، وربحت الحرب التى أنشئت من أجلها ..

حرب الكلمة ..

والعقل ..

★ ★ ★



الدرس ..

استيقظت (مصر) كلها ، فى الخامس من يونيو ١٩٦٧م ، على خبر مهم ، قطعت وسائل الإعلام بثها التقليدى لتذيعه على الناس ، بصوت مذيع شهير ، يفيض بالقوة والثقة والحماسة ، وهو يعلن أن (إسرائيل) قد شنت علينا غارة جوية ، انتهت بسقوط عدد من طائراتها ، دون أن نتكبد نحن أية خسائر تذكر ..

واشتعلت القلوب باللهفة والحماسة ، واندفع الجميع إلى أجهزة الراديو ، يستمعون منها إلى البلاغ تلو الآخر ، عن حرب ضروس ، تدور رحاها عند خط المواجهة ، وتتقدم فيها قواتنا بنجاح ساحق ، يفوق كل ما نقله إلينا التاريخ ، من انتصارات ساحقة ، وبطولات مدهشة ، وتتساقط فيها طائرات العدو كأسراب من الذباب ، سقطت فى فخ مبيد حشرى قوى ..

ولم يكد النهار ينتصف ، حتى بات الناس على ثقة ، من أن قواتنا لن تلبث أن تدخل (تل أبيب) ، رافعة رايات النصر خلال الساعات القليلة القادمة ..

ثم كانت المفاجأة ..

والنكسة ..

وانهار الحماس فى النفوس ، وتكوم مع المرارة فى أعماق القلوب ، ثم توارى خلف الخوف والقلق ، والمظاهرات الصاخبة ،

التى انطلقت تطالب القائد بالعدول عن التنحى ، ومواصلة المسيرة ، حتى يتحقق الثأر ، ونستعيد الأرض السليبة ..

وكان لابد من قربان ، لامتصاص أثر الهزيمة من النفوس ، وإلقاء المسئولية على كاهله ، وتبرئة القيادة السياسية ، ليحتفظ البعض بمقاعد السلطة ، ولتنشغل الجماهير عن البحث عن الأسباب الحقيقية للنكسة ..

وهكذا بدأت حملة تشهيرية عنيفة ، ضد إحدى قلاع الأمن فى البلاد ..

المخابرات العامة..

وفجأة ، فى يوم وليلة ، أصبحت المخابرات هى المسئولة عن السجون ، والمعتقلات والتعذيب ، وكل إجراءات القمع الداخلية ، التى عانى منها الشعب لسنوات وسنوات ..

ووسط كل هذا أصدر (موشى دايان) وزير الدفاع الإسرائيلى - حينذاك - كتابًا عن ذكرياته الحربية ، تحدث فيه عن استخدامه لخطة هجومية واحدة فى حربى ١٩٥٦م ، و١٩٦٧م ، مبررًا هذا بعبارة متعالية متغطرسة ، قال فيها :

لم يكن هذا عسيرًا ، أو حتى مجرد مجازفة ، لأن العرب لايعرفون القراءة ..

وامتلأت نفوس رجال المخابرات بالمرارة ، وهم يتابعون تلك الحملة الشرسة ، داخليًا وخارجيًا ، ولكنهم ترفعوا عن

الدخول فى تلك الحرب ، التى ستضر ، أكثر ما تضر ، أمن الوطن وسلامته ، ثم إنه لم يكن لديهم فى الواقع وقت كاف لإضاعته فى مثل هذه الأمور ، وهم يقومون بواجبهم ، الأكثر رفعة وسموا ، لحماية الوطن من الأعداء الذين يتربصون به خارج الحدود ، وجمع المعلومات عنه ، بكل الوسائل الممكنة ، لحماية وتأمين المنشآت والمعدات ، ومكافحة كل محاولات التجسس والتخريب والتصدى للحرب النفسية ، التى يحاول العدو بها النيل من معنويات الشعب ، واستغلال الهزيمة لتدمير كيانه ، وتحطيم إرادته ودفعه إلى قبول الأمر الواقع ، والرضا بهزيمة لم يكن له شأن فيها ..

وظلت عبارة (دايان) تؤلم الرجال ، فى مبناهم الصامت الساكن دائمًا ، فى حدائق القبة ..

العرب لايعرفون القراءة ..

وفى أحد اجتماعاتهم الدورية ، لإزالة آثار العدوان ، والإعداد لخطة استعادة الثقة ، والثأر من العدو ، طرح المدير هذه العبارة ، وهو يواجه الرجال قائلاً :

من الواضح أن انتصار الإسرائيليين فى حرب ١٩٦٧م ، قد ملأ نفوس الإسرائيليين بالغرور ، وجعلهم ينتفخون زهوًا وخيلاء ، حتى إنهم تصوروا أنها نهاية المباراة ، وليست مجرد جولة من الجولات ، لايمكنها أن تحسم الأمر إلى الأبد ، مهما بلغ عنفها .

ثم مال إلى الأمام ، وتألقت عيناه ، وهو يضيف فى حزم :

ـ ولكننا سنستغل غرورهم وزهوهم هذا ، لنرد لهم الصاع صاعين ، ونلقنهم درسًا لا يمكن أن ينسوه ، مهما طال الزمن .

كان لكلماته الحازمة القوية ، التى تحمل ثقة واضحة ، ورفضًا معلنًا للاستسلام للهزيمة أثر قوى فى نفوس الرجال ، الذين تدفق الحماس فى عروقهم ، وجرى فيها مجرى الدم فأقبلوا على مناقشة خطة استعادة الثقة فى اهتمام بالغ ، جعل أحدهم يقول :

ـ الواقع أن كل ما نفعله لن تكون له فائدة ، لو ظلت صورتنا قاتمة على هذا النحو ، فى عيون الشعب .

سأله المدير :

ـ ما الذى تقترحه بالضبط ؟!

أشار بيديه فى حماسة ، قائلاً :

ـ خطة كبيرة للتوعية ، لتعريف الشعب بطبيعة عمل جهاز المخابرات ، وبأهمية وجوده ، لحماية أمن الوطن ، والحفاظ على سلامته .. خطة لإعلان دورنا ، دون الإخلال بمبدأ السرية ، ولإبراز البطولات فى مضمارنا ، على نحو لا يكشف للعدو أساليبنا أو خبايانا .

كانت فكرته جريئة ومفاجئة للغاية ، خاصة وأن أعمال المخابرات ، فى كل دول العالم ، تعتمد على السرية المطلقة ،

والكتمان التام ، ويحيط بها الغموض من كل النواحى ، حتى ترددت مقولة شهيرة ، تعبر عن طبيعة عمل المخابرات معلنة :

النجاح سر لا يعرفه أحد ، والهزيمة فضيحة على كل المستويات .

وكان من الطبيعى أن يثير الاقتراح اهتمام الجميع ، وأن تطول مناقشته لأكثر من ثلاث ساعات كاملة ، قبل أن يلقى موافقة الجميع ، ويتم إسناده ـ كالمعتاد ـ إلى صاحبه ليتولى أمره ، ويعمل على تحويله إلى حقيقة ..

كان هذا فى أوائل عام ١٩٦٩م ، بعد أن هدأت حملة التشهير العنيفة ، واستقر الأمر فى جهاز المخابرات العامة ، وبدأ التفكير فعليًا وعمليًا ، فى الإعداد لحرب الثأر القادمة ..

ولم يمض شهر واحد على هذا الاجتماع ، حتى انتشرت فى كل المصالح والوزارات ، وحتى وسائل المواصلات العامة ، ملصقات تدعو إلى الحفاظ على الأسرار ، والحذر من العدو ، وعدم الثرثرة فيما يمكن أن يمنح خصمنا معلومات جديدة ..

وعبر وسائل الإعلام ، تلقى الناس عشرات الدروس فى هذا المضمار ، ما بين الرسوم الكاريكاتورية بين البرامج ، لتوضيح أساليب العدو ، فى الحصول على المعلومات ، والبرامج التليفزيونية والإذاعية ، والمسلسلات التى تدور حول الجاسوسية ، ودور المخابرات فى مواجهتها ، مثل مسلسل

(كلاب الحراسة) ، الذى كتبه (كمال إسماعيل) وأخرجه للإذاعة الفنان (على عيسى) ، وللتليفزيون المخرج الراحل (نور الدمرداش) ، وعشر تمثيليات ، أخرجها (محمد شرابى) ، فى برنامج (صور من الحياة) ، وخماسية (تذكرة إلى أثينا) ، التى كتبها (طلعت المرصفى) ، وخماسية (كمين) للكاتب (حسن عبد الله) ، كما تبنى المذيع اللامع (أحمد فراج) قضية الأمن والحماية ، فى برنامجه الدينى (نور على نور) ، وقدم (على عيسى) برنامجين عن الأمر نفسه ، أحدهما بعنوان (من قصص الجواسيس) ، والثانى تحت اسم (الحرب النفسية) ..

وراحت الجماهير تتابع تلك البرامج والمسلسلات فى شغف واهتمام ، وتتفاعل معها بكيانها كله ، كما بدأت تنتبه ، وربما للمرة الأولى ، إلى الدور الحقيقى لجهاز المخابرات العامة ، وإلى الجهد المضنى ، الذى يبذله طوال الوقت ، دون كلل أو ملل ، من أجل الحفاظ على أمن الوطن وسلامته ..

ومن المؤكد أن الصورة قد تغيرت كثيرًا ..

ولكن (ع) ، ضابط المخابرات ، الذى تم إسناد العملية إليه ، لم يشعر بأنه قد حقق أهدافه بعد ، أو أن المهمة قد بلغت الغاية المنتظرة منها ..

فما زال فى جعبته المزيد .. والمزيد .. والمزيد ..

وفى نوفمبر ١٩٦٩م ، اتصل (ع) بضابط جيش سابق ، عمل ذات يوم لحساب المخابرات العامة ، ونجح فى إسقاط شبكة جاسوسية ضخمة ، فى عملية مبهرة ، كان لها صدى رائع فى أيامها ، ثم لم يلبث أن أصدر كتابًا عن العملية كلها ، برز فيها أسلوبه الأدبى المنمق ، وظهرت معه براعته المدهشة ، فى صياغة الأحداث ، على نحو شيق جذاب ، شد انتباه الجميع فى حينه ..

وعندما التقى (ع) مع (ماهر) ، طرح عليه الخطوط العريضة ، والهدف المنتظر منها ، دون الدخول فى التفاصيل ، ثم مال نحوه ، يسأله فى اهتمام :

- قل لى يا (ماهر) .. أأنت على استعداد للتعاون معى ؟!

قبل أن يجيبه (ماهر) كان (ع) يستطرد فى حماسة :

إننى أود لو نشرت عددًا من المقالات الأسبوعية ، فى إحدى الصحف أو المجلات ، بهدف توعية الشعب بأساليب العدو وجواسيسه ، فى قالب مشوق ، يجذب اهتمام قطاع كبير من الناس ، ويغرس الهدف المنشود فى أعماقهم .

وبعد مناقشة طويلة ، تم خلالها طرح كل جوانب الموضوع ، وتحليل كل مايمكن تقديمه للمواطن العادى ، الذى لايعلم الكثير عن طبيعة عمل المخابرات ، تم الاتفاق على النقاط الرئيسية للأمر ، وتصافح (ماهر) و (ع) فى حرارة ، والأخير يقول :

- مرحبًا بك بين الصفوف ، ووفقك الله (سبحانه وتعالى) فى مهمتك العسيرة .

وفى التاسع من يناير ١٩٧٠م ، دخل (ماهر) مكتب رئيس تحرير أخبار اليوم - آنذاك - الكاتب الكبير (إحسان عبد القدوس) الذى راح يناقشه فى أدب جم - كعادته - عن الفوائد التى تكمن فى نشر تلك المقالات ، التى كانت عبارة عن عملية تجسس ، تنشر بتفاصيلها الحقيقية ، دون الإخلال بقواعد ومتطلبات الأمن لأول مرة فى (مصر) .

وفى صباح السبت ، السابع عشر من يناير ، قرأت (مصر) كلها تلك المقالات المشوقة ، على صفحتين متقابلتين فى أخبار اليوم ، على رأس إحداهما صورة كبيرة للكاتب (ماهر) ، الذى كان يواجه تجربته الأولى فى عالم الكتابة للصحف .

وكان لتلك المقالات صدى هائل ، فى مصر كلها ، حتى إن أعداد الصحيفة كانت تنفد فور صدورها ، وكان العديدون يتحدثون عنها فى مجالسهم الخاصة والعامة ، ويرددون عباراتها فى حماس ، وكأنهم قد شاركوا بأنفسهم فى مواجهة العدو ، والتعامل معه ، وإسقاطه فى النهاية .

وقفز (ماهر) فجأة ، من شخص عادى إلى كاتب شهير ، ينتظر الناس مقالاته فى لهفة ، من أسبوع إلى أسبوع .

وغنى عن الذكر أن نقول : إن (ع) كان أكثر الجميع سعادة بما حدث ، ولقد بدا هذا واضحًا ، فى أحد الاجتماعات ، التى تم

عقدها فى جهاز المخابرات العامة ، لمناقشة تطورات الخطة ، وهو يقرأ تقريره للجميع ، ثم يبتسم ابتسامة كبيرة قائلاً :

أعتقد أن نجاح مقالات (ماهر) قد أصبح واقعًا مفرحًا أيها السادة ، وأنتم ترون النتائج بأنفسكم ، صباح كل سبت .

قال المدير فى حسم :

- هذا صحيح .. لقد حقق (ماهر) المطلوب منه بالضبط .

صمت (ع) بضع لحظات ، قبل أن يقول :

- ليس بعد فى الواقع .

سأله أحد زملائه فى حيرة :

- ما الذى تنتظره من الرجل أكثر من هذا ؟!

صمت (ع) بضع لحظات أخرى قبل أن يميل إلى الأمام مجيبًا فى حزم واقتضاب :

- الكثير ..

كانت هذه الكلمة بداية لمناقشة طويلة ، استغرقت الليل كله تقريبًا ، قبل أن يتم اتخاذ قرار حازم بشأنها ، تنفس (ع) بعده الصعداء ، واستعاد ابتسامته الواثقة الكبيرة ، المفعمة بالثقة والارتياح ..

وفى الصباح التالى ، حررت المخابرات مذكرة لوزير الحربية ، بشأن ما اتفق عليه فى اجتماع الليلة السابقة .

ولم تمض أيام قليلة ، حتى كان وزير الحربية قد ذيل

المذكرة بتوقيعه ، وأشر عليها بالموافقة ، ليبدأ (مـاهر) عمله الجديد ، فى مجال التوعية واستعادة الثقة ..

لقد تقرر أن يلقى سلسلة من المحاضرات اليومية ، فـى مدارس الجيش ، استمع إليها آلاف الضباط والجنود ، ليس بسبب مضمونها الشيق وأسلوبها الجذاب فحسب ، ولكن أيضًا بفضل ذلك الأسلوب المبتكر ، الذى استخدمه (مـاهر) لبدء محاضراته ، حيث كان يلتقط مكبر الصوت ، ليقول فى لهجة حاسمة حازمة :

ـ أيها السادة .. أنا جاسوس ، وأود التحدث إليكم .

كانت هذه البداية تجذب اهتمام الجميع فى شدة ، مما جعلهم يلتهمون كلماته التالية فى نهم ولهفة ، حققت الهدف المنشود من تلك المحاضرات تمامًا ..

ومع مرور الوقت ، انشغل (مـاهر) فـى بعض الأعمال الأخرى ، الخاصة بالحرب النفسية ، وأسند إليه بعض الأمور المهمة ، على نحو انتزعه من مقالاته ومحاضراته ..

حتى مايو ١٩٧٣م .

ففى ذلك الحين ، استدعاه (ع) مرة أخرى لمقابلته ، وطلب منه أن يعاود كتابة المقالات ، على أن يتناول فى هذه المرة جانبًا من أنشطة عملاء (مصر) ، فى قلب (إسـرائيل) ، وهو يقول بصوته الهادئ الرصين :

ـ لقد قطعنا شوطًا طويلاً بالفعل ، فى مجال تصحيح النظـرة إلى المخـابرات العـامة ، وتوضـيح دورهـا الحقيقى ، وبقـى أن نصحح ذلك التصور الخاطئ عن قوة العدو وقدراته الأسطورية ، التى يحـاول إيهام الجميع بهـا .. وأعتقـد أن لديـك خبـرة كافيـة الآن ، فى مجـال الكتابـة للصحف ، ثـم إن خبراتك فـى المرحلـة السابقة ستفيدك كثيرًا فى المرحلة القادمة بالتأكيد .

ثم مال نحوه ، قائلاً بلهجة حاسمة :

ـ وسيكون لها أثر أكبر ، وفوائد أكثر بالتأكيد .

أدرك (مـاهر) ، فـى تلـك اللهجـة الحاسـمة الحازمـة ، أن ساعة الصفر قد اقتربت ، وأن الوطن بحاجة إلى كل جهد يبذله فى الأيام القادمة ..

لذا ، لقد اتجه فى الخامس والعشرين من مايو ، بعـد كتابة أول مقالاته ، فـى سلسـلة اختـار لها اسم (رحلة إلى الجانب الآخـر فـى التـل) ، لمقـابلة (موسى صـبرى) رئيس تحريـر جريدة (الأخبار) الذى استقبله فى اهتمـام ، وطالع مقالـه بنظرة خبير ، ثم راح يناقشـه فى أمـره ، مقترحًا تبديـل العنـوان إلـى (قصص من قلب إسرائيل) .

ووافـق (مـاهـر) على التعديل ، الـذى لاقى منـه قبـولاً ، وانهمك مع رئيس التحرير فى مناقشة الموعد الأنسب لصـدور المقـال الأسبوعى ، والـذى اتفق الطرفان على أنه يـوم الجمعـة

التالى مباشرة ، على أن يقدم (ماهر) مقالاته يوم الأربعاء من كل أسبوع .

ومرة أخرى ، عاد شعب (مصر) يتابع تلك المقالات المثيرة ، حول عملاء المخابرات المصرية ، فى قلب (إسرائيل) ، وعملياتهم الناجحة والمبهرة هناك ..

وقرأ الناس أسماء مثل (إيد كارمن) .. (عبد البواب) .. وغيرهم ..

لم تكن الأسماء حقيقية بالطبع ، ولكن الشخصيات ، والأحداث ، ومعظم التفاصيل كانت حقيقية ومثيرة ، وجذابة إلى أقصى حد ..

وأصبح عدد الجمعة ، من جريدة (الأخبار) يرتبط فى أذهان الناس بتلك القصص فى قلب (إسرائيل) ، والتى يكتب (موسى صبرى) بنفسه مقدمة قصيرة فى بدايتها ، وكأنه يعلن اهتمامه بها ، ويجذب إليها أنظار القراء أكثر وأكثر ..

وفى أحد أعداد أغسطس ١٩٧٣م ، كان موضوع مقال (ماهر) يدور حول غارة ، قام بها رجال الضفادع البشرية المصريون ، فى الواحدة من صباح الأحد ، السادس عشر من نوفمبر ١٩٦٩م ، على ميناء (إيلات) ، أسفرت عن تدمير مدمرتين حربيتين إسرائيليتين ، وأحدثت دويًا هائلاً ، فى كل الأوساط ..

ولقد ذكر (ماهر) بخطأ غير مقصود ، أن الهجوم قد وقع صباح السبت ، وليس صباح الأحد ، ثم قال : إنه يعتقد أن اختيار يوم السبت جاء بسبب أنه عطلة رسمية ، بالنسبة لليهود ، ثم أضاف أن تاريخ اليوم كان يتوافق مع السادس من رمضان ، وذكر أثر شهر رمضان فى نفوس الناس فى (مصر) ، وكيف أن الروح الدينية ، التى تحيط بهم فى ذلك الشهر الكريم ، تملأ نفوسهم ثورة وحماسًا ، وخاصة عندما يواجهون عدوًا .. وفى النهاية ، اقترح أن يكون تاريخ المواجهة القادمة متناسبًا مع نفس الأمور .. وعلى الرغم من أن المقال قد تم نشره قبل شهرين فحسب من حرب أكتوبر ، ومن أن الجرائد والصحف والمطبوعات ، على اختلاف أنواعها ، تعد مصدرًا رئيسيًا لما يطلق عليه اسم (المعلومات العلنية) ، وأنه من المحتم أن يكون هناك قسم كامل ، فى (تل أبيب) تقتصر مهمته على قراءة ومتابعة هذه المعلومات العلنية بعناية فائقة ، وتحليلها بدقة ، مع إعداد كل التقارير الخاصة بها ، إلا أن أحدًا من الإسرائيليين لم ينتبه إلى ما فى هذا المقال من حقائق ..

والدليل على هذا أنه فى يوم السبت ، السادس من أكتوبر ، العاشر من رمضان ، اندلعت الحرب الثأرية ، بين (مصر) و (إسرائيل) ..

وأنها كانت مفاجأة مذهلة لهم ، بكل المقاييس ..

مفاجأة جعلت المصريين يعبرون قناة السويس ، أكبر وأخطر مانع مائى عرفه التاريخ ، ويحطمون خط (بارليف) ، أقوى خط دفاعى عسكرى فى التاريخ .. بل ويحققون النصر على الجيش الإسرائيلى ، الذى ظل يوهم العالم طوال عقد كامل من الزمان بأنه جيش أسطورى لا يقهر ..

وفى هذه المرة كانت البيانات كلها حقيقية .

وكذلك النتائج ..

الإسرائيليون انهزموا هزيمة ساحقة ..

انهار خط (بارليف) ..

ارتفع العلم المصرى ، على الضفة الشرقية لقناة (السويس) ..

تساقطت الطائرات الإسرائيلية كالذباب ـ بالفعل ـ أمام صواريخ (سام ـ ٦) الدفاعية ، التى كانت أكبر مفاجأة تلقاها العدو ..

وفى المرة التالية ، التى التقى فيها (ماهر) مع (ع) ، داخل مكتبة المخابرات الكبيرة ، التى تحوى آلاف الكتب فى شتى الموضوعات ، إلى جانب كل ما تم نشره عن أعمال المخابرات بكل اللغات المعروفة ، كان الأخير يمسك نسخة من

جريدة (الأخبار) ، التى نشرت مقال أغسطس هذا ، وهو يضحك قائلاً :

ـ يبدو أن الإسرائيليين أيضًا لا يقرءون .

التقت ضحكاتهما الخافتة ، وهما يجلسان متجاورين ، وسط هدوء المكتبة ، وكل منهما يدرك أن الإسرائيليين ، وعلى رأسهم وزير دفاعهم المتغطرس ، قد تلقوا الدرس أخيرًا ..

وأنه كان درسًا قاسيًا ..

للغاية .

★ ★ ★



عبر الأثير..

تجاوزت عقارب الساعة منتصف الليل بدقيقة واحدة ، فى تلك الليلة من ليالى الشتاء الأخيرة ، فى فبراير ١٩٧٢ م ، فى نفس الوقت الذى توقفت فيه سيارة مصرية بيضاء ، حديثة الطراز ، أمام أحد الأبواب الجانبية ، لمبنى المخابرات العامة المصرية ، وبرز سائقها برأسه من نافذتها ، وقد أحاط عنقه بكوفية سميكة ، وأبرز بطاقته الرسمية لحارس البوابة ، الذى ابتسم قائلاً :

ـ مساء الخير يا سيد (ف) .. تفضل ..

لم يكن (ف) زائرًا غير تقليدى للمكان ، وإنما كان أحد ضباطه المعدودين ، الذين أقيم الجهاز منذ نشأته على أكتافهم ، إلا أن طبيعته شديدة الالتزام ، كانت تدفعه دومًا إلى اتباع كل القواعد وترتيبات الأمن الرسمية ، على الرغم من أنه لا يوجد رجل أمن واحد فى الجهاز كله يجهله ، أو لا يكن له الاحترام والتقدير الشديدين ..

وفى سرعة اعتادها كل من يعرفه ، انطلق (ف) بسيارته عبر ساحة المبنى ، حتى أوقفها فى المكان المخصص لها ، أمام بناء صغير من طابقين ، وغادرها وهو يحكم كوفيته الصوفية حول عنقه ، ودلف إلى المكان فى خطوات واسعة سريعة ، وهو يقول :

ـ مساء الخير يا رجال .. كيف حالكم ؟!

استقبله الجميع بترحاب شديد ، وراحوا يعرضون عليه ما أنجزوه طوال النهار ، على نحو يؤكد أنه يرأس المكان ، الذى لم يكن سوى القسم الخاص بالحرب النفسية والمعنوية ، فى جهاز المخابرات العامة المصرى ..

وكان من الواضح أن (ف) يولى كل الأمور اهتمامًا فائقًا ، وأنه يراجع بنفسه كل كلمة ، بل كل حرف يتم وضعه فى أية منشورات ، من تلك التى يتولى القسم إعدادها ، والتى يؤكد البعض أنها كانت تصل إلى خنادق الجيش الاسرائيلى ، فى نفس يوم كتابتها تقريبًا ..

وليس فى هذا القول أية مبالغة فى الواقع ، فمنذ ديسمبر ١٩٧١ م ، اتخذت الحرب النفسية مسارًا قويًا ، فى الصراع العربى الإسرائيلى ، واتخذ المسئولون قرارًا بتكثيفها بشدة ، ردًا على محاولات الاسرائيليين المستمرة ، لمهاجمة الجبهة الداخلية ، والتأثير على الحالة المعنوية للمواطن المصرى ، الذى يقلقه ويثير توتره ، وجود العدو على الضفة الشرقية لقناة السويس ، وعدم شعوره بما يتم من استعدادات للثأر مما حدث فى يونيو ١٩٦٧ م ، والقتال لاستعادة الأرض السليبة ..

ولأول مرة ، شعر الإسرائيليون بقوة المصريين ، وتفوقهم فى هذا المجال الذى تصوروا أنهم أساتذته وملوكه منذ الأزل ..

فبمهارة مدهشة ، راح فريق من أبرع العملاء المصريين ، يجمع كل ما يمكنه من معلومات ، عن أحوال جنود الجيش الاسرائيلى ، ومشكلاتهم ، ومعاناته اليومية ، وحتى الأخطاء القانونية والعسكرية ، التى تحدث فى ثكناتهم ومعسكراتهم بصورة يومية ..

وفى (القاهرة) كان هناك فريق آخر ، يرأسه (ف) يتلقى كل تلك المعلومات ، ويقضى الساعات الطوال فى دراستها وفحصها وتمحيصها ، ثم صياغتها فى منشورات قوية ، مدروسة ، تستخدم المخابرات كل الحيل والوسائل ، لدفعها إلى أهدافها بمنتهى الدقة ، عبر الأحراش ، أو الدروب الجبلية ، وفوق ظهور الإبل ، أو بالمظلات ، وأحيانًا بوساطة فرق انتحارية خاصة ، تدرك جيدًا مدى قوة وأهمية ما تنقله إلى قلب الأرض المحتلة ..

ولقد جن جنون الإسرائيليين ، مع ما لاقته تلك المنشورات من نجاح ، وخاصة عندما وصلت إلى (تل أبيب) ، وألقى القبض على أحد اليهود السود ، وهو يقوم بتوزيعها فى شوارع (القدس) ، وكشف أحد المحققين الإسرائيليين أن الجنود فى جبهة القناة ، يقومون بتهريبها إلى ذويهم وأصدقائهم فى المستعمرات ، وبلغ جنونهم هذا ذروته ، عندما فجرت تلك المنشورات فضيحة كبرى ، أهانت فيها السلطات

الإسرائيلية أحد جنود المظلات الإسرائيليين ، واعتدت على زوجته ، على نحو استفزازى عدوانى شرس ، ثم حاولت التستر على ما حدث ، إلا أنها فوجئت بتلك المنشورات المصرية فى الشوارع ، حاملة أدق التفاصيل ، بما فيها أقوال الجندى (بيتر كوباش) شخصيًا ، ورقم محضر الشرطة الأول ، وذلك بعد مرور ثلاثة أيام فحسب على الواقعة ..

ـ وعلى الرغم من كل هذا ، ومن النجاح الساحق ، الذى حققه ذلك القسم ، فى المخابرات العامة المصرية ، إلا أن (ف) كان يشعر بأنه يستطيع أن يبلغ المزيد والمزيد ، إذا ما استخدم وسيلة جديدة ، لإيصال المعلومات إلى الإسرائيليين ..

وفى تلك الليلة ، كان يحمل لفريقه الأخبار الجديدة ، عن تلك الوسيلة ، التى ستضاعف من كفاءة عملهم عشرات المرات ..

وعندما اجتمع الجميع فى حجرة مكتبه المتواضعة ، بناء على طلبه ، أدار عينيه الضيقتين فى وجوههم ، ثم تراجع فى مقعده ، وأشار بيده ، قائلاً بابتسامة كبيرة ..

ـ لقد اقتنعوا بفكرة الإذاعة العبرية .

ولا أحد ، من خارج ذلك القسم ، يمكنه أن يتخيل ما فجرته تلك العبارة القصيرة البسيطة من حماس جارف ، وسعادة بالغة ، فى ذلك المبنى البسيط ، فقد انطلقت هتافات الجميع ،

وراحوا يتحدثون مع بعضهم فى انفعال ، تركه (ف) حتى خفتت حدته ، وهو يبتسم ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ سيضيف هذا إلينا عبئًا جديدًا ، فمنشوراتنا لن تسافر إلى (إسرائيل) عبر الجبال والأحراش ، أو تهبط إليها بالمظلات فحسب ، وإنما سيمكننا أيضًا أن ننقل أفكارنا إليهم أولاً فأولاً ، عبر الأثير ، وهذا يعنى المزيد والمزيد من العمل ، وأوقاتًا إضافية فى المكتب ، يتم خصمها كالمعتاد من أوقات الراحة ، والإجازات ، وفترات الترابط العائلى ..

وأجابه أحد رجاله فى حماسة :

ـ كل شىء يهون من أجل (مصر) ..

كانت هذه بالضبط هى العبارة ، التى تمنى (ف) سماعها من رجاله ، لذا فقد أثلجت صدره ، وجعلته يتراجع فى مقعده ، وعيناه تتألقان بحماس جارف ، وهو يقول :

ـ عظيم .. عظيم ..

لم تكن الإذاعة العبرية أمرًا وليدًا ، فى تلك الأيام ، فقد بدأ إرسالها فى يوليو ١٩٥٣م ، عندما أدرك رجال الثورة الأوائل أهمية إرسال أفكارهم ومبادئهم ، وبثها إلى الإسرائيليين ، ولكنها اقتصرت حينذاك على نصف ساعة من البث اليومى ، يقوم به اثنان من المذيعين ..

ولكن بعد هذا الاجتماع بسبعين يومًا تقريبًا ، وبناء على ما تقرر مسبقًا ، زاد إرسال الإذاعة العبرية إلى ست عشرة

ساعة ، فى منتصف مايو ١٩٧٢م ، وارتفع العاملين بها إلى اثنى عشر مذيعًا ، وأربعة من معدى البرامج ، إلى جانب الفنيين ، ومهندسى الصوت ، وغيرهم ..

ومع هذه الزيادة ، بدأت مرحلة جديدة من التطوير ، بحيث أصبح برنامج الإذاعة العبرية متنوعًا ، مثيرًا ، مشوقًا ، على نحو نجح فى جذب مئات الإسرائيليين إليه بحيث أصبح استماعهم إلى الإذاعة العبرية المصرية أمرًا يوميًا ، لا يمكنهم الاستغناء عنه . وبذكاء مدهش ، راح (ف) وفريقه يدسون منشوراتهم وكلماتهم ، وكل ما يرغبون فى نقله إلى الإسرائيليين ، عبر برامج الإذاعة العبرية ، وخاصة برامج المنوعات ، والسهرات المثيرة الشيقة ..

ولأن الإذاعة العبرية لم تكن تهاجم السياسة الإسرائيلية ، أو تدعو إلى التمرد عليها على نحو سافر مباشر ، فقد حظيت بشعبية خرافية ، فى قلب المجتمع الإسرائيلى ، وبخاصة فى أوساط الشباب ، وبين أولئك الذين استقبلوا كل ما ترغب المخابرات المصرية فى بثه إليهم ، دون أن يدركوا هذا فعليًا ..

وكان (ف) على حق فى كل ما قاله لرجاله ..

لقد تضاعفت ساعات العمل ، وتضاعفت معها المتاعب والمسئوليات ، حتى إن بعض أفراد القسم قد جعلوا من إحدى

حجرات المبنى جزءًا مخصصًا للنوم والراحة ، فنقلوا إليها ثلاثة أسرّة معدنية صغيرة ، فرشوها بما جادت به بيوتهم ليحظوا داخلها ببعض النوم ، بين فترات العمل ، التى تقاربت وتقاربت ، حتى امتزج بعضها بالبعض ، فلم تعد تترك بينها ما يكفى للعودة إلى المنزل ، فى معظم الليالى ..

وعلى الرغم من كل هذا ، لم يكن (ف) يشعر بالاكتفاء ، أو الارتياح ، وإنما كان يخبر الجميع أن الدور الفعلى للإذاعة العبرية لم يبدأ بعد ..

والعجيب أنه كان على حق ، فى قوله هذا ..

فما إن اندلعت حرب أكتوبر ١٩٧٣م ، حتى أثبت الموقف أن الدور الحقيقى للإذاعة العبرية قد بدأ ، حتى إن تقارير عملاء المخابرات المصرية ، فى قلب (إسرائيل) ، كانت تؤكد أن أكثر الأغنيات شعبية ، فى كل الأوساط الإسرائيلية ، فى أثناء الحرب ، كانت أغنية (إريك إينشتين) ، (أبناء العشرين يريدون ويحبون السلام) ، وهى الأغنية التى كانت تتردد فى الإذاعة العبرية يوميًا ، قبل إذاعة تسجيلات الأسرى الإسرائيليين ، ورسائلهم إلى ذويهم ..

ثم حان الدور الأكبر بالفعل ..

فذات صباح ، والقتال فى ذروته ، خرجت صحف (القاهرة)

كلها ، تعلن وقوع ضابط المدرعات الإسرائيلية (عساف ياجورى) فى الأسر ، وقد كان يقود لواء دبابات كاملاً ، مدعمًا بوحدات مدفعية ذاتية الحركة ، ومضادة للدبابات والطائرات ..

ولقد أعلن البيان العسكرى حينذاك .. أن (عساف) عقيد (ألوف) ، فى الجيش الإسرائيلى ..

ولكن الحقيقة كانت تختلف ..

فالواقع أن (عساف ياجورى) لم يكن سوى مقدم (سجين ألوف) ، فى الجيش الإسرائيلى ، وليس عقيدًا ، كما ذكر البيان العسكرى ..

ولكن هذا لم يكن خطأ فى البيان العسكرى الرسمى ..

وإنما كان جزءًا فى خطة عبقرية بسيطة ، لتوجيه ضربة قوية إلى الروح المعنوية الإسرائيلية ، كجزء من الحرب النفسية ، التى بلغت ذروتها ، فى أيام الحرب والقتال ..

فمنذ وقع (عساف ياجورى) فى الأسر ، أدرك رجال المخابرات أن هذا الخبر كفيل ببث الكثير من القلق والتوتر ، وسط جنود الجيش الإسرائيلى ، وفى قلب المجتمع الصهيونى كله ، الذى اعتاد أن يسمع من قادته ما يؤكد بأن لديهم جيشًا أسطوريًا لا يقهر ، ومن المستحيل أن يظفر المصريون ، والعرب كافة ، بجزء واحد منه ، فما بالك بضابط من كبار الضباط ؟!

ولكن كيف يمكن إثبات وقوع (عساف) فى الأسر ؟!

صحيح أن التليفزيون المصرى سيجرى لقاء مع الرجل ، إلا أن إرساله ، فى ذلك الوقت ، لم يكن من القوة ، بحيث يصل إلى (إسرائيل) ، وهذا يعنى أن المصريين وحدهم سيشاهدونه ، ويمكن للإسرائيليين نفى الأمر ، أو إنكاره تمامًا ، بل واتهام المصريين بتلفيق الحدث كله ، للتأثير على معنويات الجيش والشعب الإسرائيلى ..

لذا فقد تم طرح الأمر على مائدة المناقشة ، التى ضمت بالطبع (ف) الخبير فى مثل هذه الأمور ، والذى استمع إلى الأمر كله فى صمت ، وهو غارق فى تفكير عميق ، قبل أن يشير بسبابته ، قائلاً :

- فليكن .. دعونا ندفع الإسرائيليين أنفسهم للاعتراف بأسرنا للرجل ..

سأله المهتمون :

- وكيف يمكن هذا ؟!

تراجع (ف) فى مقعده ، وشبّك أصابع كفيه أمام وجهه ، كعادته كلما بدأ فى شرح أمر ما ، وقال :

- سنثير فى نفوسهم شكًا حقيقيًا ، يجعلهم يتصورون أننا لم ننجح فى أسر ضابطهم فعليًا ، بحيث يسرعون بالتشكيك فى

الأمر واستنكاره ، وعندما يعلنون رفضهم واستهجانهم ، نفاجئهم بدليل لا يقبل الشك ، فيرتبكون ، ويهتزون ، ويضطرون للاعتراف بوقوع ضابطهم فى الأسر ، مما يكون له أبلغ الأثر فى تحطيم معنوياتهم ، وتوجيه ضربة نفسية قاصمة لجبهتهم الداخلية ..

سأله أحد رؤسائه فى اهتمام بالغ :

ـ ما خطتك بالضبط يا (ف) ؟!

ابتسم (ف) فى هدوء ، مجيبًا :

ـ خطة بسيطة للغاية .. سنمنح (عساف) هذا رتبة تخالف رتبته الحقيقية ، ولأن الإسرائيليين يعلمون جيدًا ، أن أول ما يجيب به الأسير هو اسمه ورتبته ، فسيتصورون أننا لم نلق القبض عليه فعليًّا ، وسيسارعون بإعلان هذا ..

كانت الخطة بسيطة وعبقرية بحق ، حتى إنها لاقت قبول واستحسان الجميع فور طرحها ، ولم تستغرق مناقشتها أكثر من ربع الساعة ، وبعدها صدر البيان العسكرى ..

ووقع الإسرائيليون فى الفخ ..

وعندما اجتمع فريق مخابراتهم لدراسة الأمر ، كان معظم أعضائه يميلون إلى الاعتقاد بأن المصريين لم يأسروا (ياجورى) فعليًا ، وإلا لتضمن بيانهم العسكرى رتبته الحقيقية !!

وكان الأرجح ـ بالنسبة إليهم ـ أن (عساف) قد لقى مصرعه ، مع رتل دباباته ، ولم يقع أسيرًا فى قبضة المصريين ..

ولأن الوقت لم يكن يسمح بمناورة طويلة ، فقد أسرع الإسرائيليون بإعلان كذب المصريين ، وبأنهم لم يأسروا (عساف ياجورى) فعليًا ..

وفى نفس اللحظة ، التى صدر فيها إعلانهم هذا ، كان كبير المذيعين ، فى الإذاعة العبرية المصرية (أحمد الحملى) يستعد لعقد لقاء مع الأسير ، على شاشات التليفزيون ، بحيث يتم بثه عبر الإذاعة العبرية ، فى الوقت ذاته ..

وكجزء من الخطة ، ترجم (أحمد الحملى) رتبة (عساف) باعتباره عقيدًا ، وليس مقدمًا فى الجيش الإسرائيلى ..

ولقد أدهش هذا الملمين بالعبرية ، فى العالم العربى ، فقد تصوروا أن كبير المذيعين قد أخطأ الترجمة ، وارتضى هو لنفسه أن يوصم بهذا ، لإيمانه وسعادته بالدور الذى يلعبه ، فى تلك اللعبة الخداعية الإعلامية الذكية ، التى تلعبها المخابرات المصرية ، عبر الأثير ..

وكم أسعده أكثر وأكثر ، أن الإسرائيليين قد ابتلعوا الطعم ..

ويمنتهى السرعة ..

فقبل أن ينتهى اللقاء ، كان المعلق الإسرائيلى (دوف أينون) يعلن ، فى راديو (إسرائيل) ، أن (عساف) لم يؤسر ، وأن (القاهرة) تكذب ..

وعندما استمع (ف) إلى ذلك البيان الإسرائيلى ، شمله حماس جارف ، جعله يتخلى عن وقاره التقليدى ، ويقفز ضاربًا الهواء بقبضته ، وهو يصرخ :

ـ لقد فعلوها .. هؤلاء الأغبياء ووقعوا فى الفخ ..

أما (أحمد الحملى) فقد سرى الحماس والانفعال فى عروقه ، عندما رأى الخطة تؤتى ثمارها بهذه السرعة المدهشة ، فانتقل على الفور إلى الجزء التالى من الخطة ، وطلب من (دوف أينون) أن يجرى اتصاله ببنات (عساف ياجورى) الثلاث وبزوجته ؛ لكى يتأكد من أن الأسرة تستمع بالفعل إلى صوت عائلها ، ومنحه خمس عشرة دقيقة ، للقيام بهذا الاتصال ..

وكان تحديًا مدهشًا ، عبر موجات الأثير ..

وأسقط فى يد الإسرائيليين ..

لقد تم التحدى على الهواء مباشرة ، ولم يعد التراجع ممكنًا ..

لقد جرهم المصريون إلى الفخ ، وأسقطوهم فيه ، ثم أحكموه عليهم بمنتهى الدقة ، دون أن يمنحوهم فرصة واحدة للفرار ..

حتى هذا الفرار لم يكن ليفيد ، فى مثل هذه الظروف ..

ففى كل الأحوال ، ستبدو الهزيمة واضحة جلية ، أمام كل من تابعوا الموقف منذ بدايته ، وجذبهم الأمر ، وأثار فضولهم وقلقهم ..

لذا ، فقد أجرى (أينون) اتصاله ببنات (عساف) وأمهم ..

وبكل الخزى والأسى ، أعلن هزيمته ، وهزيمة كل من تابعوا الأمر من الإسرائيليين ..

واضطر الإسرائيليون أنفسهم إلى إعلان سقوط ضابطهم فى أسر المصريين ..

وكانت صدمة عنيفة للجميع ، فى قلب (إسرائيل) .

بل كانت صفعة ، هوت على جيشهم الأسطورى ، وأظهرته على حقيقته أمام عيونهم جميعًا ..

مجرد جيش عادى لدولة استعمارية ، يمكن أن يسقط وينهار ، عندما يضطر إلى مواجهة مباشرة صريحة ..

ولا أحد يمكنه أن يصف سعادة (ف) وحماسه ، عندما نجحت خطته العبقرية البسيطة ..

ولا أحد يمكنه أن يعبر عن انفعال فريقه الجارف ، مهما بلغت فصاحة كلماته ، فعملهم لم يؤت ثماره عبر الأوراق والكلمات والمنشورات فحسب ..

لقد حققوا أيضًا انتصارًا ساحقًا على الإسرائيليين ، ووجهوا إليهم ضربة قاصمة ، لن تنمحى من عقولهم وأذهانهم وتاريخهم أبدًا ..

ضربة فريدة ، انطلقت من قبضة المصريين إلى كيان الإسرائيليين كله ..

عبر الأثير .

★ ★ ★



عملية الأذن الخفية ..

سطعت الشمس فى كبد السماء ، على نحو غير مألوف ، فى تلك الفترة من العام ، مع انتصاف شتاء ١٩٧٢ م ، وانتشرت أشعتها الذهبية فى تلك الحديقة الأنيقة الواسعة ، فى (الجيزة) ، لتبعث دفئًا محببًا فى الأجساد ، حتى إن الجميع شعروا بنشاط وانتعاش ، وبالذات الرئيس (أنور السادات) الذى استرخى فى مقعده ، مستمتعًا بأشعة الشمس ، وأرخى جفنيه على نحو قد يخدع المشاهد غير المدقق ، ويوحى إليه بأن الرئيس غارق فى سبات عميق ، لولا الدخان المتصاعد فى غليونه ، وتلك الإشارات والإيماءات الخفيفة ، التى تصدر عنه بين الحين والآخر ، وهو يستمع إلى الرجل الذى يجالسه ، والذى بدا منهمكًا فى التحدث إليه فى اهتمام بالغ ..

والواقع أن الرئيس (السادات) كان على عكس ما يبدو ، شديد الانتباه لكل كلمة ينطقها الرجل ، الذى لم يكن سوى مدير أكبر وأقوى جهاز أمنى فى (مصر) ، وربما فى الشرق الأوسط كله ..

مدير المخابرات المصرية ..

كان الرجل ينقل إلى الرئيس تفاصيل آخر عمليات ، قام بها جهاز المخابرات ، ويلخص له آخر النتائج والمعلومات ،

التى توصل الرجال إليها ، بذكائهم وحنكتهم ، ومهاراتهم المتعددة ..

حتى بلغ مرحلة شرح آخر تطورات المخابرات الإسرائيلية ..

وعند تلك النقطة بالذات ، اعتدل الرئيس فى مجلسه ، وأعاد حشو غليونه وإشعاله ، وبدا عليه اهتمام زائد ، وأصغى جيدًا لمدير مخابراته ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه ، وقال :

ـ من الواضح أن الإسرائيليين يعقدون اجتماعات سرية للغاية هذه الأيام ، وهذا لا يشعرنى أبدًا بالارتياح ..

وافقه مدير المخابرات بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ نحن أيضًا لا نشعر بالارتياح يا سيدى الرئيس ، ولكننا لا نقف أمام هذا الشعور فحسب ، وإنما نبذل قصارى جهدنا ، ونحقق نتائج معقولة فى كل الأحوال تقريبًا ، فلنا عملاء فى صفوف المخابرات الإسرائيلية ، ووسط ضباط وجنود الجيش الإسرائيلى ، وفى (الهستدروت) والصحف ، و ...

قاطعه الرئيس فى اهتمام :

ـ وماذا عن مقر (جنوه) ؟

كان الرئيس (السادات) يشير إلى واحد من أخطر مقار المخابرات الإسرائيلية فى (أوروبا) ، إذ يجتمع فيه قادتهم هناك ، مع بعض أهم القادة فى (تل أبيب) ، لاتخاذ قرارات غاية فى الخطورة والأهمية ، بشأن الصراع العربى الإسرائيلى ..

وكان الإسرائيليون يؤكدون طوال الوقت فى ثقة وزهو مبالغين ، أن التوصل إلى مقرهم هذا ، أو اختراقه ، ضرب من المستحيل ، وأنهم أحاطوه بنظام أمنى خاص ، بالغ الدقة ، على نحو لم يسبق له مثيل ..

لذا فقد انعقد حاجبا مدير المخابرات بشدة ، عند الإشارة إلى هذا المقر ، فى مدينة (جنوة) الإيطالية ، وقال فى حزم :

ـ إننا نبذل قصارى جهدنا فى هذا الشأن ، يا سيادة الرئيس ..

أجابه الرئيس بسرعة :

ـ هذا لا يكفى فى الوقت الحالى .. أنت تعلم أننا مقدمون على حرب شاملة ، وكل قرار يتخذ فى مقر (جنوة) قد يربك خططنا الرئيسية ..

ثم مال نحوه ، مضيفًا بلهجة صارمة حاسمة :

ـ لذا فمن الضرورى أن تكون لنا أذن خفية داخل هذا المقر .. وبأى ثمن يا مدير المخابرات .. هل تفهمنى ؟ بأى ثمن ..

صمت مدير المخابرات بضع لحظات ، وعيناه لا تفارقان عينى الرئيس ، ثم لم يلبث أن أجاب فى صوت قوى :

ـ أفهمك يا سيادة الرئيس .. أفهمك جيدًا ..

وكانت البداية ..

فبعد ساعة واحدة من هذا الاجتماع ، كان مدير المخابرات العامة داخل حجرة الاجتماعات ، فى مبنى المخابرات ، يروى

لفريق من أقرب مساعديه ما حدث ، فى لقائه مع الرئيس ، ويطرح الأمر أمامهم للمناقشة واتخاذ القرار ..

واستوعب الرجال الأمر بسرعة .. كالمعتاد ..

وكان الهدف واضحًا ، على الرغم من صعوبته الشديدة ، التى تصل إلى حد الاستحالة .. أن يتم التوصل إلى المقر السرى لقيادات المخابرات الإسرائيلية فى (جنوة) ، وزرع أجهزة تنصت داخله ..

وعلى الرغم مما يبدو عليه الأمر ، من الاستحالة ، راح الرجال يناقشونه بكل اهتمام وعقلانية ، وبلا أدنى يأس أو إحباط ..

فالخطوة الأولى ، وهى التوصل إلى المقر ، تحتاج إلى معرفة أولئك الذين يجتمعون فيه ، وتحديد شخصياتهم وطباعهم ، واهتماماتهم ، وميولهم ، وحتى أوجه القصور والشذوذ فى حياتهم ..

وصدر الأمر لكل مكاتب المخابرات المصرية ، فى مختلف بلدان (أوروبا) ؛ لبذل جهد مضاعف ، وجمع كل المعلومات المطلوبة ، بمنتهى الدقة والسرية ..

ولم يكن هذا بالأمر السهل أو اليسير ..

لقد انطلق رجال مكاتبنا فى (أوروبا) ، فى كل الاتجاهات ، وبكل السبل الممكنة ، وراحوا يبذلون جهدًا خرافيًا ، حتى إن

بعضهم لـم يكن يتذوق النوم إلا لعدد محدود من الساعات ، لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، فى كل ثلاثة أو أربعة أيام ، ليراقبوا كل من ينتمى إلى المخابرات الإسرائيلية ليلاً ونهارًا ، وليجمعوا أدق التفاصيل والمعلومات عنهم ..

ولحسن الحظ ، لم يضع كل هذا الجهد هباء ..

لقد اجتمعت لدى المخابرات العامة المصرية فى النهاية ، كمية هائلة من المعلومات والحقائق والتفاصيل تكفى لمعرفة كل من يجتمعون فى مقر (جنوة) السرى ، بدءًا من هيئتهم ، وحتى أنواع كريم الحلاقة المفضلة لديهم ..

ومرة أخرى ، اجتمع مدير المخابرات برجاله ، وراجعوا معًا كل ما لديهم ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ الآن أصبحت لدينا اللبنة الأساسية للعملية ، والمطلوب أن ننتقل الآن إلى الخطوة التالية ، أو بمعنى أدق .. إلى مرحلة التنفيذ ..

وطوال الساعات العشر التالية ، وبلا انقطاع تقريبًا ، إلا لتناول بعض الشطائر السريعة ، أو أقداح الشاى الساخنة ، راح المدير يناقش الأمر مع رجاله بكل التفاصيل ، لتحديد الوسيلة المناسبة لمعرفة موقع المقر السرى ، وزرع أجهزة التنصت داخله ..

فقادة المخابرات الإسرائيلية ، الذين تم تحديدهم فى

(أوروبا) ، كانوا يحاطون بسرية بالغة ، وبنظم أمنية شديدة التعقيد ، عندما يتحدد موعد أحد الاجتماعات فى مقر (جنوة) ، ثم يستقل كل منهم طائرة خاصة ، تحمله إلى جهة مجهولة ، وعلى نحو يستحيل تعقبه ، ليصل إلى المقر السرى ، ويتم الاجتماع ..

وكان من المحتم أن نجد وسيلة لتعقب أحدهم ، حتى المقر ، وتحديد موقعه ، ونظم الأمن الخاصة به ، والتى يستحيل اختراقها ، كما يؤكد الإسرائيليون ..

وبعد أن احتدم النقاش ، ونوقشت كل الاقتراحات ووجهات النظر ، وتبين استحالة كل منها ، من الناحية العملية ، وبدأت روح اليأس والإحباط تتسلل إلى الرجال ، اندفع (ر . ج) يقول بغتة :

ـ الأمر يحتاج إلى شخص بينهم .

التفت إليه الجميع فى دهشة وتساؤل ، وسأله المدير فى شىء من الحذر :

ـ شخص بين من ؟!

اعتدل (ر . ج) فى مقعده ، وبدا عليه الاهتمام والحماس ، وهو يجيب :

ـ شخص بين المجتمعين ، يقودنا إلى المقر السرى ، ويسهم فى زرع أجهزة التنصت فيه ..

تفجرت دهشة عارمة فى وجوه الحاضرين ، وتبادلوا نظرات حائرة ، مع بعضهم ، ثم تطلعوا جميعًا إلى (ر . ج) ، وسأله أحدهم فى استنكار شديد :

- هل تفكر فى تجنيد أحد قادة المخابرات الإسرائيلية فى (أوروبا) ؟!

أومأ برأسه إيجابًا فى هدوء عجيب ، وهو يقول :

- بالضبط .. هذا هو الحل الوحيد فى رأيى ..

كان أقل ما يمكن أن توصف به فكرته ، هو أنها مجنونة ، إلا أنه ، وعلى ما جرت عليه العادة فى جهاز المخابرات ، لم يكن هناك ما يمنع من مناقشتها ، ودراستها ، وبحث إمكانيات تطبيقها ..

والعجيب أنه ، كلما توغل (ر . ج) فى شرح خطته ، كان الاستنكار والاعتراض يتراجعان رويدًا رويدًا ، ويحل محلهما استعداد للفهم ، والاستيعاب ..

بل وربما بعض الاستحسان والتقدير أيضًا ..

صحيح أن تجنيد أحد ضباط المخابرات ليس بالمهمة السهلة أو اليسيرة ..

بل هو أمر غاية فى الصعوبة والدقة ..

إلا أنه كان البديل الوحيد المطروح ، فى تلك اللحظة ، بعد أن استحالت كل البدائل الأخرى ، ولم تلق قبولاً أو اقتناعًا ..

وفى نهاية الاجتماع ، اتفق رأيهم على بذل المحاولة ، على الرغم من خطورتها ، وأطلقوا على العملية اسم (عملية الأذن الخفية) ، وتم إسنادها رسميًا إلى (ر . ج) ..

ولم يضع الرجل لحظة واحدة ..

فبعد انصراف الجميع إلى بيوتهم ، وعلى الرغم من أنه لم يذق النوم منذ أكثر من ثلاثين ساعة متصلة ، جلس (ر . ج) يراجع كل التفاصيل والمعلومات مرة أخرى ، وهو يفرد أمامه صور القادة الإسرائيليين ، ويتطلع إليها بين الحين والحين ، وكأنما يحاول أن يستشف من ملامحهم ما لم توره تقارير المراقبة والمتابعة ..

ولسبب ما ، توقف طويلاً أمام صورة المرأة الوحيدة بين القادة ..

(سارة جولد شتاين) ..

لا أحد يدرى لماذا وقع اختياره عليها بالذات كهدف محتمل ، على الرغم من أنها امرأة قاسية ، شرسة ، قضت أيام طفولتها الأولى فى معسكرات الاعتقال النازية ، إبان الحرب العالمية الثانية ، ثم هاجرت مع والديها إلى (فلسطين) ، قبل حرب عام ١٩٤٨ م ، حيث التحق والدها بصفوف المقاتلين ، ولقى حتفه فى (الفالوجا) ، ونشأت هى على شظف العيش مع أمها ، فى إحدى المستعمرات البدائية ، فى صحراء النقب ، والغضب

والمرارة يملآن قلبها ، ويتضاعفان بمرور الوقت ، حتى التحقت بصفوف الجيش الإسرائيلى ، ثم بالمخابرات الإسرائيلية ، التى ترقت فيها بسرعة ، نظرًا لصرامتها الشديدة ، وقلبها الذى لا يعرف الرحمة ، فى تعاملاتها مع الأسرى والمعتقلين ، وكل من يتم اتهامه بالتجسس لحساب العرب ..

ولو أن أحدًا من رفاق (ر . ج) علم باختياره لها ، كأول هدف للبحث ، لأخذته الدهشة ، وامتزجت فى أعماقه بفيض من الاستنكار ، والاعتراض ، ولرفض الفكرة تمامًا ..

بل ، ولربما اتهم (ر . ج) بالحماقة والجنون أيضًا ..

ولكن شيئًا ما فى أعماق الرجل كان يدفعه دفعًا نحو (سارة جولد شتاين) بالذات ..

ربما هو ذلك التحدى الدائم ، الذى يجرى فى عروقه مجرى الدم ..

أو هى غريزة خاصة ، نبعت من موهبة شخصية ، ونمت مع الزمن والخبرة ، حتى صار يمنحها الثقة نفسها ، التى يمنحها لعقله وفراسته وحسن استنتاجه ..

المهم أنه اختار (سارة) ..

وأطلق كل فريقه خلفها ..

لم يكن يبحث عن أخطاء قديمة ، أو نقاط ضعف يمكن استغلالها ، وإنما ركز تفكيره وعمله كله على الثغرة الوحيدة التى يمكن النفاذ من خلالها إليها ..

صديقها (ميخائيل بوروسكى) ..

و (ميخائيل) هذا مهاجر يهودى بولندى ، يصغرها بسبعة أعوام ، ويعمل فى المصانع الحربية الإسرائيلية ، ولقد التقت به منذ عدة سنوات ، فى أثناء تفتيش دورى روتينى ، بعد حرب ١٩٦٧ ، وجذبها إليه ابتسامته الهادئة ، وعيناه الزرقاوان ، ولم تمض عدة أشهر ، حتى كانت غارقة فى حبه حتى النخاع ..

(سارة) الذئبة الشرسة ، وقعت فى غرام (ميخائيل) الحمل الهادئ الوديع ..

ولأن (سارة) محترفة ، فلم تسمح للحب بإلغاء عقلها ومنطقها ، وإنما قامت بعمل تحريات واسعة حول الشاب ، وراقبته لشهر كامل ، حتى تتأكد من سلامة أمره ..

وبعدها أعلنته بحبها له ..

ولم يفترقا منذ ذلك الحين قط ..

ولهذا السبب الأخير بالذات ، ركز (ر . ج) كل جهوده على (ميخائيل بوروسكى) ، وطلب من فريقه مراقبته بمنتهى الإحكام ، وإحصاء تحركاته ، وخطواته .. وحتى الأنفاس التى تتردد فى صدره ..

وطال الوقت ، وانهمك الرجال فى التتبع والمراقبة ، ومضى الزمن ، واقتربت نهاية عام ١٩٧٢ م ، وبداية عام ١٩٧٣ م ، و ...

« خبر مدهش عن (ميخائيل بوروسكى) .. »

انتفض جسد (ر . ج) فى انفعال جارف ، عندما نطق أحد رجاله العبارة فى مكتبه ، وهب من مقعده ، يسأله فى لهفة :

ـ هل أسفرت المراقبة عن شىء ؟!

أشار الرجل بسبابته ، مجيبًا :

ـ بل أوقعته بين أصابعنا .. ثم مال نحوه ، مستطردًا بلهجة خاصة :

ـ الولد يعمل لحساب المخابرات السوفيتية ..

كانت مفاجأة مذهلة ، لا يمكن هضمها أو استيعابها بسهولة :

ـ (سارة جولد شتاين) ، التى نالت كل هذه الشهرة الواسعة ، فى عالم المخابرات الإسرائيلية ، خدعها مهاجر بولندى ، هادئ الملامح ، ساحر النظرات ..

الأفعى الرقطاء ، وقعت فى فخ القط السيامى الرقيق ..

وبقدر ما كانت المفاجأة ، قرر (ر . ج) استغلالها على نحو لم يسبق له مثيل ، فى عالم المخابرات ، بكل سحره وغموضه وأسراره ..

كان عام ١٩٧٣ م قد بدأ بالفعل ، وبدأ معه العد التنازلى لحرب أكتوبر ، ولم يعد من الممكن إضاعة المزيد من الوقت ، قبل زرع الأذن الخفية فى مقر اجتماعات قادة المخابرات الإسرائيلية السرى فى (جنوة) ..

كان من المحتم أن تبدأ عملية التنصت على اجتماعاتهم وقراراتهم السرية ، فى هذه الفترة بالذات ..

لذا ، فقد قرر (ر . ج) اقتحام الأمر مباشرة .. ودون إبطاء ..

وعندما طرح خطته الجديدة على مائدة الاجتماعات ، عاد رفاقه يحدقون بعضهم فى البعض ، ثم ينقلون تحديقاتهم إلى وجهه ، قبل أن يتفجروا بالاعتراض والاستنكار ..

ثم بدأت مناقشة الفكرة الجنونية الجديدة ..

وتلاشت الاعتراضات رويدًا رويدًا ، خلال الساعات الست ، التى استغرقها ذلك الاجتماع ، والتى انتهت بأن حزم (ر . ج) حقائبه ، وسافر فى طائرة السابعة والربع صباحًا إلى (باريس) ، حيث تقضى (سارة) إجازتها مع حبيبها (ميخائيل بوروسكى) ..

ومن المؤكد أن (سارة جولد شتاين) لن تنسى أبدًا ما حدث فى تلك الليلة ، عندما عادت وحدها إلى حجرتها بالفندق ، وأضاءت الأنوار ، لتجد أمامها (ر . ج) يبتسم فى هدوء ، ويقول فى بساطة مدهشة ، وبلغة عبرية تتفوق فى إجادتها وسلاستها على لغتها هى نفسها :

ـ مساء الخير يا (سارة) .. أنا (و.و) .. ضابط فى المخابرات العامة المصرية ..

كانت مفاجأة مذهلة ، ومواجهة مباشرة ، لا مثيل لها فى تاريخ المخابرات كلها ، بكل أجهزتها ونظمها ، لذا فقد تجمدت (سارة) فى مكانها ، ولم تجد ما تفعله ، وهى تحدق فى (ر . ج) ، الذى اتسعت ابتسامته ، وأشار إلى حقيبته قائلاً :

ـ عندى لك أشياء تهمك رؤيتها ..

ولأنها ضابطة مخابرات محترفة ، تمالكت (سارة) أعصابها ، وواجهت رجل المخابرات المصرى بجرأة مماثلة ، وسألته عما تحويه الحقيبة ، فأفرغ محتوياتها فى هدوء ، ووضعها كلها أمام عينيها ، وتركها تحدق فيها ، وتلتهمها ببصرها طويلاً وقلبها يكاد يهوى بين قدميها ..

كانت مجموعة كبيرة من الصور ، والوثائق ، والأفلام ، التى تؤكد أن حبيبها (ميخائيل بوروسكى) جاسوس سوفيتى ، وأنه يستنزف منها الأسرار الحربية والعسكرية ، طوال خمس سنوات كاملة ..

ولم تستطع (سارة جولد شتاين) احتمال المفاجأة المذهلة ..

لقد انهار تاريخها العسكرى والسياسى دفعة واحدة ..

بل تحطم كيانها كله ، كضابطة مخابرات محنكة ..

وعندما عجزت قدماها عن حملها ، وسقطت على أقرب مقعد إليها ، مال (ر . ج) نحوها ، وهمس فى أذنها :

ـ كل شىء له حل .. كل شىء ..

لم تسأله (سارة) عما يعنيه ، فقد كانت تفهم الموقف جيدًا كمحترفة ..

لقد أصبح مصيرها كله فى قبضة المصريين ..

إما أن يكشفوا أمرها ، وأمر حبيبها الجاسوس السوفيتى ، ويحطمون تاريخها ومستقبلها كله ..

وإما ...

وفى هدوء ، راح (ر . ج) يقدم لها الجزء المتبقى من العرض ..

المكافأة المالية السخية ، والحماية المستقبلية ، و .. و ..

وعندما تم عقد الاجتماع التالى فى مقر (جنوة) السرى ، كانت (سارة جولد شتاين) أول الحاضرين ، وأكثرهم حماسة وثقة ..

وعند انصرافها ، تأكدت من أنها قد تركت خلفها ذلك القرص الأسود الصغير ، الذى أعطاها إياه (ر . ج) ، فى المكان الذى حدده لها بالضبط ..

وفى منتصف شتاء ١٩٧٣ م ، وبعد عام واحد من بدء العملية ، ارتسمت على شفتى مدير المخابرات العامة المصرية ابتسامة كبيرة وهو يجلس فى حديقة منزل الرئيس فى الجيزة ، ويقول فى ثقة وزهو وارتياح :

ـ تم تنفيذ العملية يا سيادة الرئيس .. صرنا نسمع دبيب النمل فى مقر (جنوة) ..

وهنا ابتسم الرئيس السادات ابتسامة كبيرة ، تموج بالارتياح ، وهو يومئ برأسه فى سعادة بمدير المخابرات ..

وراحت ابتسامة الرئيس تتسع ، وتتسع ، حتّى جاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ م ، لتعلن النجاح الحقيقى للعملية ..

عملية الأذن الخفية ؟

★ ★ ★



الصديق

الصـــديق

فجأة ، هبطت الهزيمة كالصاعقة ، على رأس كل مصـرى ، فى يونيو ١٩٦٧ م ، واعتصرت القلوب بقبضـة من الثلـج ، لتنتزعها من الصدور ، مع كل ما احتشد فيها ، طوال سنوات وسنوات ، مـن الفخـر ، والزهـو ، والحمـاس الملتهب ، الـذى فاضت به الأعمـاق طويلاً ، مـع الخطب الحماسية ، والوعود الرنانة ، وأحلام الانتصار الوردية ..

وعلى الرغم من ذلك الفيض الشعبى الجارف ، الذى شمل (مصر) كلها ، مـن أقصاها إلى أقصاها ، والمظاهرات التى اغلقت شوارع القطر كله ، لمناشدة الرئيس (جمال عبد الناصر) العودة إلى مقعد الرئاسة ، كانت هنـاك مـرارة حبيسـة فـى الصدور ..

مرارة النكسة ..

ولـو أن مـرارة الشعب كله كانت تسـاوى قيراطًـا ، فتلك المرارة ، التى استقرت فى أعماق ووجدان فئة خاصة من الرجال ، كانت تساوى ألف فدان ..

فهذه الفئة بالذات ، من رجال المخابرات العامة المصرية، كانت تشعر وكأن الهزيمة خنجر مسموم ، انغرس فى قلوبهم ..

صحيح أنهم قاموا بعملهم خير قيام ، وقدموا للرئيس

شخصيًا تقريرًا مفصلا وافيًا ، عن التحركات الإسرائيلية المريبة ، التى بدأت منذ النصف الثانى فى شهر مايو ، وأن الرئيس (جمال) قد أطلع قادة الجيش والمسئولين على ما جاء بالتقرير ..

ولكن الهزيمة أتت ..

أيًّا كانت الأسباب ..

وعندما اجتمع الرجال فى مقرهم الخاص ، فى منتصف يونيو ، كان الصمت يخيم عليهم على نحو كئيب ، والمرارة تطل من عيونهم .

« دعونا لا نستسلم للحزن واليأس .. »

نطق مدير المخابرات الجديد العبارة فـى حزم وقوة ، على نحو خفقت له قلوب الرجال ، الذين تطلعوا إليه فى اهتمام ، وهو يتابع فى انفعال .

ـ ما حدث قد حدث .. إننا لا نملك إعادة عقارب الساعة إلى الوراء ، ولكننا نملك طرح اليأس جانبًا ومواصلةالعمل والكفاح ، حتى نزيل آثار الهزيمة ، ونقفز منها إلى نصر قوى ، يثبت للعدو الإسرائيلى أن انتصاره السريع هذا ، لا يعنى أبدًا أنه الأفضل أو الأقوى .. وانتفضت كلماته فى حماس جارف ، وهو يضيف فى قوة .

ـ وهـذا ما سنسـعى لمنـع تكراره ، مهما كان الثمن .. بل

وسنقلب المائدة على رءوسهم فى المرة القادمة ، ونجعل المفاجأة من نصيبهم .. وكل ما أطلبه منكم ، هو أن تصبح تلك المفاجأة القادمة صاعقة ساحقة ..

- هل يمكنكم هذا ؟!

انتقل حماسه وانفعاله إليهم ، وهم يهتفون :

- بكل تأكيد .

تألقت عيناه فى ارتياح ، قبل أن يقول :

- عظيم .. هذا يعنى أن روحكم المعنوية تسمح بالقتال ..

ثم مال إلى الأمام ، متابعًا فى حزم :

- وبقبول تحديات جديدة .

جذبت العبارة الأخيرة انتباههم واهتمامهم بشدة ، فاعتدلوا فى مقاعدهم ، والمدير يقول :

- عندما التقيت بالرئيس (جمال) ، منذ يومين فحسب ، كان له مطلب رئيسى .. أن نحصل على المعلومات من قلب القيادة الإسرائيلية ، حتى يمكننا إعادة بناء الجيش ، والاستعداد للمرحلة القادمة .

وعاد يعتدل فى مقعده ، ثم يقول فى حزم وحسم :

- وهذه هى مهمتكم الجديدة يا رجال .. نريد زرع شخص لايمكن أن يتطرق إليه الشك ، فى قلب القيادة الإسرائيلية .

وعاد الصمت يخيم مرة أخرى على المكان ..

★ ★ ★

السابع من يناير ، عام ١٩٦٩ م ..

يوم دافئ من أيام الشتاء فى (تل أبيب) ، نشطت فيه الحياة على نحو ملحوظ ، بعد أسبوعين كاملين من الأمطار ، غابت فيهما الشمس ، خلف الغيوم الكثيفة ، وانخفضت خلالهما درجات الحرارة كثيرًا ..

وفى بقعة خالية ، على مشارف المدينة ، انهمك فريق من العمال فى العمل ؛ لصب أساسات مصنع الحلوى الجديد ، الذى يقيمه (إيد كارمن) ، رجل الأعمال الشاب ، الذى برز اسمه خلال العامين الماضيين ، كواحد من أكثر رجال الصناعة نشاطًا ، وأرقى نجوم المجتمع الاقتصادى ، ومحط أنظار عدد من أجمل جميلات المدينة ، نظرًا لوسامته المفرطة ، ولكونه أعزب ثريًا ، لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره بعد ..

وبينما انهمك (إيد) فى مراقبة العمال ، لاحت له سيارة أمريكية فارهة ، تقترب من موقع العمل بسرعة كبيرة نسبيًا ، فتابعها ببصره فى اهتمام ، وانعقد حاجباه فى شىء من التوتر ، عندما لاحظ أنها تتجه نحوه مباشرة ، ونهض من مقعده فى نفس اللحظة التى توقفت فيها أمام مكتبه ، ذى الجدران الزجاجية ، وتحرك ليتجه نحوها ، عندما وقع ببصره فجأة على وجه قائدها ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، ووجد نفسه يهتف فى انفعال :

ـ سيادة وزير الدفاع ؟!

اتجه وزير الدفاع الإسرائيلى ـ حينذاك ـ (موشى دايان) نحوه ، بوجهه المستدير ، وتلك العصابة السوداء الشهيرة ، التى تخفى عينه اليسرى ، ومد يده ليصافحه ، قائلاً :

ـ أنت (إيد كارمن) .. أليس كذلك ؟!

هتف (إيد) فى حماسة :

ـ بلى يا سيادة وزير الدفاع .. إنه لشرف كبير أن تأتى إلى هنا .. الواقع أننى أشعر بمزيج من الزهو والدهشة ، فلم أكن أتوقع أن تأتى وحدك .. أعنى دون حراسة رسمية ، و ...

قاطعه الوزير بإشارة من يده ، قائلاً :

ـ لم يكن هناك داع لكل هذا .. إنها ليست زيارة رسمية .

أجابه (إيد) ، وهو ينحنى نصف انحناءة :

ـ ولكنها بالنسبة لى ، أعظم جائزة نلتها فى حياتى كلها ، يا سيادة الوزير .

أطلق الوزير ضحكة قصيرة ، تشف عن استمتاعه بالعبارة ، ولوح بيده ، قائلاً :

ـ تمامًا كما يقولون عنك يا (إيد) .. أستاذ فى فن المجاملة .

عاد (إيد) ينحنى فى لباقة ، قائلاً :

ـ على العكس يا سيدى الوزير .. أنا لم أتجاوز الحقيقة قط .

هز الوزير رأسه ، وكأنما راق له ما سمعه ، ثم سأله بغتة :

ـ ما الذى عثر عليه عمالك ، فى أثناء حفر الأساسات يا (إيد) ؟!

أخفى (إيد) ابتسامته بصعوبة بالغة ، وهو يقول :

ـ آه .. تقصد ذلك التمثال الصغير ؟! إنه لا يتجاوز العشرين سنتيمترًا طولاً ، ولكن كيف بلغك الخبر يا سيدى الوزير ؟!

ارتسمت على شفتى الوزير ابتسامة ، وهو يقول :

ـ لى مصادرى يا (إيد) .

قالها ، بلهجة الرجل الذى يدرك تمامًا مدى قوته ، ثم لم يستطع إخفاء شغفه الواضح وهو يسأل :

ـ أيمكننى رؤية ذلك التمثال يا (إيد) ؟!

ـ بالطبع يا سيادة الوزير .. تقبل اعتذارى ، فقد بهرتنى رؤيتك ، حتى إننى نسيت قواعد اللياقة ، ولم أدعك للجلوس ، أو أسألك عما ترغب فى تناوله ، بعد أن قطعت الطريق إلى هنا .

تقدم الوزير داخل المكتب ، قائلاً :

ـ لا بأس يا (إيد) .. لا بأس .. هل يمكننى رؤية التمثال .

التقط (إيد) حقيبته الخاصة ، وأخرج منها تمثالاً فرعونيًا صغيرًا ، ناوله للوزير ، وهو يقول :

ـ ها هو ذا يا سيدى الوزير .. أرجو أن يروق لك .

تألقت عينا الوزير فى لهفة ، وهو يتناول التمثال فى حرص زائد ، وراح يفحصه فى اهتمام بالغ ، وبنظرة خبير وهاو قديم للآثار ..

فالشىء الذى لا يعرفه الكثيرون عن (موشى دايان) هو هوايته لاقتناء الآثار والتحف ، وبالذات المصرية منها ..

وبالنسبة لشخص مثله ، كان التمثال الذى يحمله بين أصابعه تحفة مدهشة ، خفق لها قلبه فى حماس مفرط ، أطل واضحًا من بين شفتيه ، وهو يسأل (إيد) :

ـ أأنت واثق من أنها قطعة أصلية ؟!

هز (إيد) كتفيه ، وقال فى شىء من اللامبالاة :

ـ لست أدرى .. إننى لا أفهم شيئًا عن هذه التماثيل .. وعلى أية حال ، يمكنك الاحتفاظ بها ، لفحصها جيدًا .

التقى حاجبا الوزير ، وهو يتطلع إليه ، قائلاً :

ـ الاحتفاظ بها ؟! هل تعنى هذا حقًا ؟! ألا تخشى أن ..

قاطعه (إيد) وهو يربت على كتفه ، كما لو كانا صديقين قديمين :

ـ ماذا تقول يا سيادة الوزير ؟! إنه لشرف لى أن أهديك هذا التمثال الصغير عن طيب خاطر .

تألقت عينا الوزير بشدة ، وهو يتطلع إليه فى صمت ،

يحمل الكثير من الدهشة والحيرة والتساؤل والحذر ، قبل أن يصافحه ، قائلاً :

ـ سأتصل بك .

قالها ، واستقل سيارته ، وانطلق يغادر الموقع و (إيد) يتابعه ببصره وابتسامته الهادئة ، قبل أن يتمتم فى خفوت واقتضاب :

ـ عظيم .

ثم عاد يتابع عماله ، وكيانه كله ينتفض من فرط النشوة .. نشوة النصر ..

كان التمثال قطعة فنية أثرية بالفعل ..

قطعة تساوى أكثر من عشرين ألف دولار ، بمقاييس ذلك الزمن ، أهداها (إيد كارمن) لوزير الدفاع الإسرائيلى ، دون أن يطلب أدنى مقابل ..

ومن الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يحمل له الوزير شيئًا من الامتنان ..

والصداقة ..

ولقد بدأت هذه الصداقة بدعوة من الوزير ، ليتناول مع (إيد كارمن) طعام العشاء ، فى مطعم صغير ، يتبع قيادة الجيش الإسرائيلى ، بعد ثلاثة أسابيع من لقائهما الأول ، فى منطقة الحفر ..

وكإجراء تقليدى ، نشطت المخابرات الحربية الإسرائيلية (أمان) ، لجمع المعلومات ، وعمل التحريات المكثفة عن ضيف الوزير للتأكد من أنه شخص طبيعى مسالم ، لا ينتمى إلى أية جهات معادية ، أو منظمات معارضة ، أو ... أو ...

وعلى مكتب الوزير ، وضع مدير المخابرات الحربية نتائج التحريات ، التى قرأها الوزير فى إمعان واهتمام بالغين ، ثم تنفس الصعداء ، مغمغمًا :

ـ عظيم .

واستقبل (إيد كارمن) على مائدة العشاء ..

وكانت بداية لصداقة قوية ..

عميقة ..

ومفيدة ..

فمع شخص مثل (إيد كارمن) كان من الطبيعى أن تتقارب وجهات النظر ، وتلتقى الآراء ، ويفتح الجميع قلوبهم بلا حذر ..

أو على الأقل ، بأدنى قدر ممكن من الحذر ..

ولقد وجد وزير الدفاع الإسرائيلى فى صديقه الجديد آذانًا مصغية ، تجيد الاستماع إلى أحاديثه ، وروايات بطولاته الفذة وقصص معاركه الحربية المتميزة ، التى لم ينافسه فيها الجنرال (ماك آرثر) نفسه ..

الشىء الوحيد ، الذى لم يدركه الوزير طوال الوقت ، ولم تنتبه إليه قط مخابراته الحربية ، هو أن (إيد كارمن) لم يكن يصغى بدافع المجاملة فحسب ..

لقد كان لديه دافع أكثر قوة ..

المعرفة..

فذلك الإسرائيلى الشاب الثرى الوسيم ، لم يكن مجرد رجل أعمال أنيقًا ، يسعى لمصادقة رجال الحكم والسياسة ، لتنشيط أعماله التجارية فحسب ..

لقد كان أيضًا عميلاً خاصًا ، تم تجنيده لحساب واحد من أقوى وأنشط أجهزة المخابرات ، فى منطقة الشرق الأوسط كلها ..

جهاز المخابرات العامة المصرية ..

ففى أوائل عام ١٩٦٨ ، نجحت المخابرات العامة المصرية فى تجنيد (إيد كارمن) ، المهاجر اليهودى الشرقى ، الذى لم يكد يستقر فى (إسرائيل) ، حتى صدمته تلك العنصرية الواضحة ، والتفرقة المهينة ، بين اليهود الغربيين (الاشكنزيم) ، الذين يتمتعون بكل الامتيازات ، ويحصلون على أرقى المهن ، وأرفع المناصب ، واليهود الشرقيين (السفرديم) ، الذين يضطرون لقبول أحط وأدنى المهن والوظائف ..

ولأن التراجع لم يعد ممكنًا ، اضطر (إيد) لقبول إحدى

الوظائف الوضيعة ، وراح يكافح فيها بلا أمل ، والحقد والمقت والنقمة تملأ قلبه ، وعقله ينتبه ، وربما لأول مرة ، إلى تلك الطبيعة الصهيونية الاستعمارية ، التى قامت عليها دولة (إسرائيل) ، والتى لم تستوعبها أو تهضمها طبيعته ، فراح يبحث عن وسيلة لمقاومة ما يحدث ، والثأر ممن خدعوه ، وألقوا به فيما اعتبره جحيمًا أرضيًّا مأساويًّا ، لا فكاك منه إلى الأبد ..

وبوسيلة ما ، تم الاتصال بين (إيد كارمن) ورجال المخابرات المصرية ..

وبدأ (إيد) مرحلة جديدة من حياته ..

وطوال عام ١٩٦٨ م ، راح (إيد) ينشئ تجارة صغيرة للحلوى ، لم تلبث أن تطورت على نحو ملحوظ ، حتى أصبح ذائع الصيت ، فى منتصف العام نفسه ، وسرعان ما لمع اسمه فى المجتمع الاقتصادى ، وتضاعفت أرباحه ، وصار واحدًا من رجال الأعمال المعروفين ، مع نهاية ١٩٦٨ م ..

وفى الأسبوع الأخير من ديسمبر ، طلبت منه المخابرات العامة إنشاء مصنع صغير للحلوى ، والتقى به مندوب المخابرات فى (باريس) وسلمه ذلك التمثال الأثرى الصغير ، وطلب منه أن يدفنه فى قطعة الأرض ، التى سيتم حفرها لبدء إنشاء المصنع ، بعد ثلاثة أيام فحسب ..

وكانت لعبة متقنة للغاية ، من المخابرات المصرية ، التى تدرك مدى شغف واهتمام وزير الدفاع الإسرائيلى بالآثار ، وتعلم أن ظهور التمثال سيصبح طعمًا مثاليًّا ، لجذب اهتمام الوزير ، ودفعه للقاء (إيد) ..

وكان ما كان ..

ولقد ارتبط (إيد كارمن) بصداقة وثيقة مع وزير الدفاع الإسرائيلى لأكثر من أربع سنوات كاملة ، نقل خلالها كل ما بلغ مسامعه من أحاديث ومعلومات ، إلى جهاز المخابرات العامة المصرية ، عبر الخطابات السرية ، والاتصالات اللاسلكية ، والعديد من اللقاءات الشخصية ، مع رجال المخابرات المصرية ، فى دول (أوروبا) وعواصمها ..

وإحقاقًا للحق ، لا يمكننا أن نقول : إن (إيد كارمن) قد حصل على كل هذه المعلومات من وزير الدفاع الإسرائيلى ، إذ إن الرجل ، بحكم منصبه وخبراته ، كان يدرك جيدًا أهمية وخطورة المعلومات العسكرية ، التى يطلع عليها طوال الوقت ..

ولكن هذا لم يكن ينطبق على الجميع .. فمع الصداقة القوية الواضحة ، بين وزير الدفاع و (إيد) ، راح معظم جنرالات الجيش ، وكل مساعدى ومعاونى الوزير ، يسعون لمصادقة الأخير ، والتقرب منه ، وصار مما يزهو به الواحد منهم ، أن

تتم دعوته إلى إحدى الحفلات الفخمة ، التى يقيمها (إيد كارمن) ، بين الحين والحين ، على شرف الوزير ..

وفى تلك الحفلات ، يتحرر الجميع ـ عادة ـ من مسئولياتهم ، وأعبائهم ، ومتاعبهم ، والتزاماتهم ..

وحتى أسرارهم ..

وكمحاولة لإثبات أنهم أهل لصداقته ، راح البعض يفرغون الكثير والكثير من أسرارهم فى أذنى (إيد) ، وتحت قدميه ، وكان هو يستمع إليهم جيدًا ، ثم لا يلبث أن ينقل كل هذه المعلومات ، فور انصرافهم ، إلى الرجال فى (القاهرة) ، والذين كانوا يبلغونها بدورهم للرئيس (جمال عبد الناصر) ، ومن بعده للرئيس (أنور السادات) ..

ومع نهر المعلومات المتدفق ، من أكثر المواقع خطورة وحساسية فى (إسرائيل) كلها ، راحت (مصر) تعيد بناء جيشها ، استعدادًا للمواجهة القادمة حتمًا ، والتى تخفق القلوب شوقًا ولهفة لها ..

وعندما حانت ساعة الصفر ، فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ م ، كان لنهر المعلومات هذا فائدة ضخمة ..

وكانت المفاجأة صاعقة ، مدمرة ، سحقت الغرور الإسرائيلى ، ونسفت نظرية الجيش الذى لا يقهر ، تحت أقدام جنود (مصر) الأبطال ..

والطريف أن وزير الدفاع الإسرائيلى ، عندما تلقى خبر نشوب الحرب ، كان فى ضيافة صديقه الصدوق (إيد كارمن) ..

وفى نفس اللحظة تقريبًا ، كان الرجال فى القاهرة يبتسمون فى زهو مظفر ..

فصحيح أن من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا ..

وصحيح أيضًا أن أحد عوامل الهزيمة الإسرائيلية الساحقة ، كان (إيد كارمن) ..

صديق وزير الدفاع الإسرائيلى ..

وصنيع أفضل الرجال ..

رجال (مصر)

★ ★ ★



عين السماء

مات الرئيس (جمال عبد الناصر) ..

لم يكد ذلك الخبر يعلن ، على الشعب المصرى والشعوب العربية ، فى سبتمبر ١٩٧٠ م ، حتى قامت الدنيا ولم تقعد ، فانطلقت صرخات الذعر والارتياع من الحلوق ، وانهمرت الدموع من العيون كالسيول ، وخرجت الأمة العربية عن بكرة أبيها ، تنعى الزعيم الراحل ، وتبكى على الأمل ، الذى وضعته فيه ؛ لتحرير الأرض السليبة ، والثأر من العدو الإسرائيلى ، الذى غدر بشبابها وأبطالها ، منذ سنوات ثلاث ..

ولم يشهد العالم كله جنازة شعبية مهيبة ، مثلما شهد جنازة (عبد الناصر) ..

ولكن الحياة لابد أن تستمر .. والمركب حتمًا يسير ..

لذا ، فقد انتقلت السلطة بتلقائية وهدوء إلى الرئيس الجديد (محمد أنور السادات) ..

ومنذ الساعات الأولى ، التى تبوأ فيها (السادات) منصبه ، بدأ اتصاله على الفور بجهاز المخابرات العامة ، فقد حرر بيده مذكرة إلى إدارة المخابرات ، يطلب فيها معلومات تفصيلية حول الأسطول الإسرائيلى ، وقوته ، ودرجة صلاحية قطعه البحرية ، ومدى تسليحها ، والمواقع التى تحتلها ..

ولقد شعر الرئيس بغبطة شديدة ، عندما وصلته كل المعلومات التى طلبها ، فى غضون ساعتين ونصف فحسب ..

وبكل التفاصيل ..

وبات من الواضح أن الرئيس لم يكن يسعى خلف المعلومات وحدها ، وإنما كان يختبر فى الوقت ذاته ، قوة جهاز مخابراته وكفاءته ، واستعداده لتقديم أدق وأخطر المعلومات ، فى أسرع وقت ممكن ..

وبمنتهى الكفاءة ..

ومنذ ذلك الحين ، راح الرئيس يعتمد على جهاز المخابرات فى أمور شتى ، وخاصة مع الاستعداد للمواجهة القادمة الشاملة ، التى يجرى الإعداد لها ؛ لاستعادة (سيناء) ، والثأر من العدو الإسرائيلى ، وتكبيده خسائر فادحة ، يدرك معها أنه من الخطر ، كل الخطر ، أن يعبث مرة أخرى مع المصريين ..

وفى ذلك الوقت ، كانت هناك لحظة عامة ، جرى إعدادها وتنسيقها ، فى مبنى وزارة الدفاع (الحربية فى ذلك الحين) باشتراك معظم مؤسسات الدولة ، وكل نظمها الأمنية ؛ لخداع العدو ، وإيهامه بأن الحرب ليست الخيار الأمثل أمام المصريين ، وأنهم يخشونها ، ويسعون لتفادى اندلاعها بأى ثمن ..

وكان من الواضح أن الرئيس (السادات) يسعى لخلق فريق عمل جديد ، يحمل كل رجاله موهبة محددة ، انتقاها بعناية ..

موهبة رجل المخابرات ..

فقد جمع فريقه الجديد مديرًا سابقًا للمخابرات العامة كقائد للجيش ، ومديرًا سابقًا أيضًا للمخابرات كمستشار للأمن القومى ، ومديرًا سابقًا للمخابرات الحربية كرئيس للعمليات وغيرهم من الطراز ذاته ..

ومن المؤكد أن الأيام التالية قد أثبتت ذكاء الرئيس وحصافته ، فعلى الرغم من أنه ، عند اندلاع حرب أكتوبر ، كان سرها منوطًا بأكثر من مائة وخمسين شخصًا ، فى (مصر) و (سوريا) ، إلا أن اندلاعها أذهل العدو وأربكه بحق ، مما يعنى أنه لم تكن هناك ثغرة واحدة ، يمكن أن تتسرب منها المعلومات آنذاك ..

وهذا يشف ـ بالتأكيد ـ عن حسن اختيار الرئيس ، وكفاءة فريقه النادر ..

ولقد نجح هذا الفريق فى تسيير خطة التمويه والخداع على أفضل ما يكون ، وخاصة فى الشهور الأخيرة قبل الحرب ..

وكخطوة أولى ، تم نقل ورش إصلاح المعدات وصيانتها إلى الخطوط الأمامية للجبهة ، مما كان له أكبر الأثر ، عند قيام الحرب فعليًا ، فلقد تم نقل أطقم الدبابات مثلا إلى الجبهة ، فى عربات نقل جنود عادية ، ثم أرسلت الدبابات فيما بعد ، يقودها سائقوها فحسب ، مع أوامر بالذهاب إلى الورش للإصلاح ،

وهذا يختلف بالطبع عن حالة الاستعداد للحرب ، حيث تنتقل الدبابات بكامل طاقمها فى المعتاد ..

وإمعانات فى الخداع ، ترك رجال المخابرات العامة جاسوسًا إسرائيليًا يمرح فى المنطقة ، ويجمع المعلومات عن الدبابات والعربات المصفحة ، التى تتجه إلى الجبهة ويرسل إلى الإسرائيليين ما يؤكد أنها قوافل إصلاح فحسب ، ثم أطبقوا عليه ، وأوقعوه فى شباكهم ، فور اندلاع الحرب ، عندما لم تعد هناك فائدة فى تركه يواصل عمله ..

ولقد تم وضع كمية كبيرة من الهياكل الخشبية للدبابات والعربات المصفحة .. ووزعت بطول الجبهة ..

ولكن الإسرائيليين فطنوا إلى أنها مجرد هياكل خداعية ، وارتفعت ضحكاتهم الساخرة إلى عنان السماء ، من سذاجة المصريين وتفاهتهم ، وأعلن أكثر من خبير إسرائيلى أنه يرثى لحال المصريين ، الذين استخدموا هياكل بدائية الصنع إلى هذا الحد ، متصورين أنها قادرة على خداع الإسرائيليين ، وإيهامهم بأنها دبابات ومعدات حقيقية ..

وعندما اندلعت الحرب ، اتسعت عيون هؤلاء الخبراء ذهولاً ، والتهم الخجل عقولهم وكرامتهم ، وتحولت ضحكاتهم الساخرة إلى شهقات ألم ومرارة ، عندما اكتشفوا أن تلك الهياكل البسيطة ، كانت تخفى فى أعماقها كل المعدات الحقيقية ،

التى استخدمت فى عبور القناة ، وتحطيم خط بارليف الأسطورى ..

وصول معدات العبور فى حد ذاته ، خضع لخطة خداع بسيطة وعبقرية فى الوقت ذاته ، فقد تم شراء كمية أكبر من المعدات المطلوبة للعبور ، وعندما وصلت المعدات الزائدة إلى (الإسكندرية) ، تم شحنها ونقلها على نحو علنى ، يوحى بالإهمال والاستهتار ، إلى منطقة صحراوية فى ضاحية (حلوان) ، حيث تم تكديسها فوق صناديق خشبية ، تم إعدادها مسبقًا ، وغطيت فى إهمال ، وظلت كذلك ، تحت بصر كل عيون العدو ، حتى قيام الحرب ..

أما المعدات المطلوبة فعليًا ، فقد تم نقلها سرًا إلى الجبهة ، حيث أخفيت داخل الهياكل الخشبية الساذجة .

وعندما حلقت الطائرات الإسرائيلية الاستطلاعية ، فوق الصحراء الغربية ، لتفقد الموقف هناك ، التقطت عشرات الصور بمواقع عمالية ، تحمل اسم مقاول شهير ، ورصدت سياراته ، التى تنقل العمال إلى المواقع المختلفة ، كما التقطت صورة واضحة للافتة كبيرة ، أسقطتها الرياح لتنغرس فى الرمال ، دون أن يبالى أحد بإعادتها إلى وضعها الأول ، وكانت اللافتة تحمل عبارة : « المؤسسة المصرية العامة لاستصلاح الأراضى » ..

ولم يخطر ببال الإسرائيليين لحظة واحدة ، أن كل تلك المواقع كانت مراكز تدريب حربية ، أقيمت فيها نماذج متفرقة لعدة قطاعات من خط (بارليف) مع مانع مائى صناعى ، لتدريب الجنود على اقتحامها والتعامل معها ..

المشكلة الحقيقية ، التى واجهت الجميع ـ آنذاك ـ هى أن الجواسيس وطائرات الاستطلاع لم تكن العيون الوحيدة للعدو ، التى ترصد كل ما يكون ..

كانت هناك أعين أخرى أكثر خطورة .. عين تطل من السماء مباشرة ..

عين أقمار التجسس الصناعية ..

واجتمع الجميع لدراسة ما يمكن أن تكشفه تلك الأقمار الصناعية ، التى تقطع السماء طوال الوقت ، ويمكن رصد وتصوير كل تحركاتنا العسكرية ، على نحو يصعب معه نقل الجنود المطلوبين إلى الجبهة ، دون أن يكشف العدو ما نقوم به من استعدادات للحرب القادمة ..

وكانت نتائج الدراسة مقلقة للغاية ..

فمع العدد الكبير لأقمار التجسس الصناعية ، كانت تحركاتنا مراقبة طوال الوقت تقريبًا ، بالتبادل بين كل قمر وآخر ..

وأكد الفريق (الجمسى) أيامها أن التغلب على هذه المشكلة ليس مستحيلاً ، ولكنه يحتاج إلى شىء واحد .

خريطة مسارات الأقمار الصناعية ..

فعلى خريطة الطرق ، كان من الممكن أن تتم التحركات بأسلوب مدروس للغاية ، بحيث تتحرك القوافل طوال الوقت على طرق لا ترصدها الأقمار الصناعية ، لو تم الالتزام بجدول زمنى بالغ الدقة ، فى وجود خريطة المسارات تلك ..

وكان من الطبيعى أن يقفز فكر الجميع إلى الجهة الوحيدة ، التى اعتاد رجالها اختراق المستحيل ، وتحقيق المعجزات على الصعيدين ، الأمنى والحربى ..

وفى زيارة مفاجئة للجهاز ، طرح الرئيس الأمر على الرجال ، وأشعل غليونه الشهير فى نهاية حديثه ، قبل أن يلخص مطلبه فى عبارة واحدة ، نطقها بكل الحزم والصرامة قائلاً :

ـ إننا نحتاج إلى هذه الخريطة ، بأسرع ما يمكن .

ثم نفث دخان غليونه ، وضاقت عيناه بشدة وهو يضيف :

ـ وبأى ثمن .

والتقط الرجال الأمر ، وبدءوا التنفيذ على الفور ..

وطوال أسبوعين كاملين ، درس الرجال كل ما يتعلق بأقمار التجسس الصناعية ، والصور التى تلتقطها ، وكيفية التعامل معها ..

وكان من الطبيعى أن يقودهم هذا لإعادة دراسة أسلوب التعاون ، بين مخابرات الدولة ، صاحبة الأقمار الصناعية ، والمخابرات الإسرائيلية ..

وفى نهاية الأسبوعين ، أصبحت الصورة واضحة أمامهم ..

فالأقمار الصناعية تلتقط الصور على طول مسارها ، وتقوم بتحليل ألوانها إلى اثنين وثلاثين قسمًا ، تتدرج من الأبيض الناصع ، إلى الأسود القاتم ، وترسل هذه الأرقام إلى محطات الاستقبال الأرضية ، حيث يعاد استبدال الأرقام بألوانها ، فتتكون الصورة ..

وبعد الحصول على الصور المرقمة ، تتولى مجموعة من الخبراء دراستها فى الدولة الرئيسية ، ثم ترسل الصور ، التى تحوى معلومات مهمة ، إلى (إسرائيل) ، حيث يعيد دراستها عدد من خبراء الأرصاد الجوية هناك ، للحصول على المعلومات اللازمة ..

واجتمع الرجال كالمعتاد ، وتم طرح ما توصلوا إليه ، ثم قال أحدهم :

- من الواضح أنه لاتوجد سوى وسيلتين ، للحصول على مسارات الأقمار الصناعية ، وما تحصل عليه من معلومات ، فإما أن نزرع عميلاً فى مركز استقبال المعلومات ، فى الدولة الكبرى ، أو نسعى لتجنيد أحد الخبراء ، من مركز الأرصاد الجوية ، فى (إسرائيل) ، وفى الحالة الأولى ، سنحصل على خرائط المسارات مباشرة ، ولكننا سنحتاج إلى وقت طويل ، وربما أكثر مما لدينا بالفعل ، لنزرع عميلاً جديدًا ، فى مكان

شديد الحساسية والخطورة كهذا ، أما فى الحالة الثانية ، فيمكننا استنتاج المسارات الفعلية من الصور الملتقطة وتوقيت كل منها ، وسيستغرق هذا بعض الوقت بالتأكيد ، ولكن تجنيد أحد خبراء الأرصاد أمر ممكن نسبيًا ، مما قد يؤدى إلى نتائج أفضل .

كانت وجهة النظر سليمة ومنطقية بالفعل ، حتى إن مناقشاتها لم تستغرق وقتًا طويلاً ، قبل أن يتم اختيار الأسلوب الثانى بالإجماع ، وكالمعتاد أسندت المهمة لصاحب الاقتراح ، باعتباره أفضل من يتعامل معه ..

وفى مساء اليوم نفسه ، بدأت عملية (عين السماء) ..

وفى حماسة وهمة شديدتين ، ودون نوم (تقريبًا) ، طوال أكثر من يومين ونصف اليوم ، جمع ضابط المخابرات (م . ن) كل المعلومات الممكنة ، عن كل فرد من خبراء مركز الأرصاد الإسرائيلى ، وبالذات أولئك الذين تلقوا دورات تدريبية فى قراءة صور الأقمار الصناعية وتحليلها ..

ووقع الاختيار على (زلفى) ، وهو شاب فى أوائل الثلاثينات من عمره ، من أصل بولندى ، حصل على شهادته الجامعية من جامعة (وارسو) ، قبل أن يبلغ الحادية والعشرين من عمره ، ونال رسالة الدكتوراه فى الثالثة والعشرين ، قبل أن تهاجر أسرته كلها إلى (إسرائيل) ويحصل هناك على عمل فى هيئة الأرصاد الجوية لا يتناسب أبدًا مع مؤهلاته وخبراته .

وطوال ست سنوات كاملة ، لم يحصل (زلفى) على أية ترقيات أو علاوات ، وإنما على العكس ، كان مديره ورئيسه المباشر يتعاملان معه بصلف وتكبر وتعنت ، وكأنما يغاران من ذكائه وعبقريته وتفوقه ..

ومع الوقت تصاعدت فى أعماق (زلفى) نبرة غضب وكراهية لمجتمعه الجديد ، وأحجم عن الزواج ، وراح يقضى معظم وقت فراغه فى أماكن اللهو والعبث ، وإن لم يتورط قط فى أية علاقات عاطفية ، أو قمار أو غيره ..

وفى الثلاثين من عمره ، تم اختياره ضمن فريق جديد ، لفحص صور الأقمار الصناعية وتحليلها ..

وعلى الرغم من أهمية عمله ، لم يشعر (زلفى) بأية حماسة ، خاصة وأن رئيسه الجديد شعر أيضًا بالغيرة من عبقريته فاستبعده فى الترقيات ، وأسند إليه عمليات الفحص الأولية ، التى لاتحتاج إلى مهارات خاصة ، أو كفاءات نادرة .. وهنا ، بلغ غضب (زلفى) ونقمته ذروتهما ..

وعندما أوشك على الانفجار ، وجد نفسه بين ذراعى المخابرات العامة المصرية ..

ولم تستغرق عملية تجنيد (زلفى) وقتًا طويلاً ؛ إذ عندما التقى به (م . ن) بنفسه .. فى واحدة من دول (أوروبا) فى بدايات عام ١٩٧٣م ، كان

مستعدًا ومؤهلاً لبيع المعلومات إلى المصريين ، دون أن يسأل عن الثمن ، وكأنما يجد كل متعته ولذته فى الانتقام من الإسرائيليين فحسب ..

والأمر الذى يؤكد هذا ، هو أن (زلفى) كان يحمل فى جيبه ، فى أول لقاء له مع (م.ن) ، قائمة كاملة بأسماء كل القادة العسكريين ، الذين يتعاملون مع مركز الأرصاد الإسرائيلى ، ليثبت حماسته ورغبته الحقيقية فى التعاون ..

وعلى الرغم من كل هذا ، لم يشرح له (م.ن) الأمر قط ، وإنما أخبره أنهم يسعون إلى معرفة ما يعرفه الإسرائيليون عن المصريين فحسب ..

وأولاً فأولاً ، ولمدة شهر كامل راح (زلفى) يرسل المعلومات ، التى يحصل عليها من الصور ، الى المصريين ، الذين استخدموها لتكوين صورة أولية عن الأمر ، إلا أنها لم تكن تكفى للحصول على المطلوب ، ولهذا فقد سافر (م.ن) مرة أخرى إلى (أوروبا) ، والتقى هناك بعميله (زلفى) وقال له فى هدوء ، وهما يحتسيان القهوة ، فى شقة آمنة ، أمام برج أثرى شهير ، مع غروب الشمس :

- قل لى يا (زلفى) : هل يمكنك أن ترسل لنا الصور نفسها ، بدلا من ملخص ما تحويه من معلومات ؟!

انعقد حاجبا (زلفى) فى شدة ، وهو يسأله :

ـ لماذا ؟! ألا تثقون بتحليلى لها ؟!

هز (م.ن) كتفيه ، وقال :

ـ إننا نرغب فى إلقاء نظرة عليها فحسب .

صمت (زلفى) طويلاً ، وكأنما يحاول استيعاب الأمر وهضمه ، وعيناه تكادان تنفذان إلى أعماق (م.ن) ، قبل أن يومئ برأسه ، مغمغمًا :

ـ فليكن .

ثم استدرك فى قلق :

ـ ولكن إرسال الصور ينطوى على مخاطرة بالغة و ...

قاطعه (م.ن) فى حزم :

ـ لن ترسل الصور .

رفع (زلفى) عينيه إليه فى دهشة ، فاستطرد فى سرعة :

ـ نريد أرقامها وتوقيت كل منها فحسب .

وعلى الرغم من دهشة (زلفى) وحيرته ، فقد نفذ الأمر كما طلبته منه المخابرات المصرية بالضبط .

وانهالت المعلومات على الرجال فى تواصل مدهش ، وانهمك فريق من العلماء فى إعادة تركيب الصور ، ودراستها ، وتحديد مساراتها ، وتوقيتاتها ، و ...

وفى منتصف يوليو ١٩٧٣ م ، كانت كل المعلومات أمام الرئيس وقادته ، وفريق العمل الخاص بالإعداد للحرب ..

وتم إعداد عدد من الجداول الزمنية شديدة التعقيد ، تحدد مواعيد تحرك القوات ، ومساراتها ، وأماكن توقفها ، وزمن التوقف بالدقيقة والثانية ، وصدرت أوامر مشددة باتباع جداول المواعيد بمنتهى الدقة مهما كان الثمن ..

وهكذا بدأت الطوابير تتحرك إلى الجبهة فى مجموعات صغيرة ، فوق طرق مختارة بعناية ، ثم تعود العربات بأعداد كبيرة فى الطرق الرئيسية ، لترصدها الأقمار الصناعية ، وترسل إلى الإسرائيليين معلومات خاطئة ، أدت إلى فشل حساباتهم ، وتصورهم أن الحرب بين العرب وإسرائيل لن تأتى أبدًا ..

لذا ، فقد هوى خبر اندلاع الحرب على رءوس الجميع كالصاعقة ، وصرخ بعضهم بأنه من المستحيل أن يفعل المصريون هذا ، ومن غير الممكن أن ينجحوا فى عبور القناة ، وتحطيم خط (بارليف) الأسطورى ..

ولم يدرك الذين أطلقوا صرخاتهم ، أن تلك العين ، التى وضعوها فوق رءوسنا ، لم تكن تساوى شيئًا ، أمام عين السماء ، التى ترعانا وتسدد خطانا ، وتقودنا إلى النصر .

عين الخالق (سبحانه وتعالى) ..

عين الحق .

★ ★ ★



العائلة المسمومة

منذ اشرقت شمس الثلاثين من أغسطس ، عام ١٩٧٤م لم يهدأ (أهارون ياريف) المستشار الأمنى لرئيسة الوزراء الإسرائيلية (جولدا مائير) لحظة واحدة ، وهو يعد كل الأوراق والمستندات التى تحتاج إليها رئيسة الوزراء فى اجتماع المجلس ، الذى تقرر عقده فى الواحدة ظهرا ...

كل ما كان ينقصه ، ليتم أوراقه ، هو رسالة لاسلكية ، تحوى بعض المعلومات العسكرية المصرية المهمة ، التى طلبتها رئيسة الوزراء ، والتى وعدها مدير المخابرات شخصيًا بإحضارها فى الوقت المناسب ، فور وصولها من (القاهرة) عبر جهاز إرسال حديث للغاية ، يبدأ بثه لأول مرة ، على يد واحد من أهم وأخطر عملاء (إسرائيل) فى قلب (مصر) .

مع مرور الوقت واقتراب عقارب الساعة من منتصف النهار ، تضاعف توتر (ياريف) وخاصة عندما اتصلت به (جولدا مائير) وطلبت منه استكمال كل أوراقه قبل الواحدة .

وفى الثانية عشرة والنصف بالضبط ، أبلغه مدير مكتبه أن مدير المخابرات الإسرائيلى وصل بنفسه ، فطلب منه إدخاله على الفور ، واستقبله فى لهفة متوترة ، وهو يهتف .

ـ أهلاً يا رجل .. لماذا تأخر وصول الرسالة كل هذا الوقت ؟! لقد أثرت أعصابى بشدة ! المفترض أن .

بتر عبارته بغتة ، عندما لمح ذلك التوتر العنيف ، الذى يطل فى إصرار ، من كل خلجة فى خلجات مدير المخابرات الإسرائيلى ، وسأله فى قلق شديد :

ـ ماذا حدث ؟! ألم تصل الرسالة ؟!

تردد مدير المخابرات الإسرائيلى لحظة ، قبل أن يناوله ورقة مطوية ، وهو يجيب :

ـ الواقع أن الرسالة قد وصلت ، ولكن ليس على النحو الذى كنا نتوقعه .

اختطف (ياريف) الورقة فى يده ، وفضها فى سرعة ، وارتجف جسده كله فى عنف ، وهو يقرأ أسطرها القليلة ، قبل أن يترك جسده يسقط على أقرب مقعد إليه ، وهو يتمتم :

ـ كارثة .. كارثة .

وافقه مدير المخابرات الإسرائيلى بوجه شاحب ، وإيماءة مبتورة فدفن الرجل وجهه بين كفيه بضع لحظات قبل أن يطلق من أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة ، ثم يلتقط سماعة الهاتف ، ويطلب رقم رئيسة الوزراء ، التى لم تكد تتعرف صوته حتى سألته فى لهفة :

هل أحضرت الأوراق المطلوبة ؟!

ازدرد (ياريف) لعابه فى صعوبة ، وقال :

ـ كلا .. لم تكتمل الأوراق .

هتفت محنقة :

ـ كيف هذا ؟! الاجتماع سيبدأ بعد ..

قاطعها فى توتر زائد :

ـ أعتقد أن أفضل ما يمكن عمله الآن هو إلغاء الاجتماع ، حتى إشعار آخر .

صمتت رئيسة الوزراء الإسرائيلية لحظة ، من فرط الصدمة ، قبل أن تسأله فى خفوت ، شف عن مدى انفعالها :

ماذا حدث ؟

أطلق زفرة أخرى ، قبل أن يجيب :

ـ المصريون فعلوها مرة أخرى .. لقد أوقعوا بأقوى رجالنا فى (القاهرة) وبضربة واحدة .

ولم تنبس رئيسة الوزراء بحرف واحد ..

فقد كانت الصدمة عنيفة ..

وإلى أقصى حد ..

* * *

(إبراهيم سعيد شاهين) ، موظف سابق وأحد سكان مدينة (العريش) ، الذين عانوا الأمرّين ، بعد الاحتلال الإسرائيلى فى يونيو ١٩٦٧م .

لقد خسر وظيفته وعمله ، فى نفس الوقت الذى انشطرت فيه عائلته ؛ إذ كان ولداه (نبيل) و(محمد) يدرسان فى (القاهرة) فى حين يقيم هو وزوجته (انشراح على موسى) فى (العريش) ، ويكافحون كالآخرين ، للحصول على دخل يكفى لحياة متوازنة ، فى ظل الاحتلال ..

كثيرون هم من عانوا من هذه الظروف ..

وقلة من فعلوا مثل (إبراهيم شاهين) ، الذى رأى أن السبيل الوحيد للتخفيف من وطأة ومتاعب الاحتلال ، هو اللجوء إلى المحتلين أنفسهم ..

وفى صباح أحد الأيام الدافئة ، توجه (إبراهيم) إلى الحاكمية العسكرية ، وطلب مقابلة أحد المسئولين فيها ، طلبا لفرصة عمل أو مساعدة ، فالتقى به بالفعل الضابط (نعيم) ، واستمع إليه جيداً ، ثم طلب منه الحضور فى اليوم التالى ..

وكعادة الإسرائيليين قضى الضابط (نعيم) ذلك اليوم ، فى جمع المعلومات عن (إبراهيم شاهين) ، ومعرفة طبائعه وسماته ومراجعة تصرفاته ، حتى جاء اليوم التالى ، وهو يدرك جيداً طبيعة الرجل الذى حضر فى الموعد المحدد ، فأعطاه (نعيم) جوال دقيق ، وطلب منه الاتصال به مرة أخرى ، إذا ما احتاج إلى المساعدة .

وعاد (إبراهيم) إلى منزله بجوال الدقيق ، الذى سعدت به زوجته (انشراح) ، وراحت تلقى عليه عشرات الأسئلة ، حول الضابط (نعيم) ، وأسلوب حديثه ، وما طرحه عليه من أسئلة ثم لم تلبث أن شجعته على الاتصال به مرة أخرى ، وطلبت منه أن يتقدم بطلب للسفر إلى (القاهرة) ، ليلتئم الشمل بولديهما (نبيل) و(محمد) .

وبفضل تشجيع (انشراح) المستمر ، ذهب (إبراهيم) مرة

أخرى لمقابلة الضابط (نعيم) الذى أحسن استقباله ، ودعاه إلى مكتبه ، مما شجع (إبراهيم) ، فطلب منه تصريح السفر إلى (القاهرة) وهنا تراجع (نعيم) فى مقعده ، وسأله :

وما الذى ستفعله فى (القاهرة) يا (إبراهيم) ؟!

أجابه (إبراهيم) فى حذر :

لى ولدان هناك ، وسوف ...

قاطعه الضابط (نعيم) فى صرامة ، مكررًا :

ـ ما الذى ستفعله فى (القاهرة) ؟!

تلفَّت (إبراهيم) حوله فى حذر قلق هذه المرة ، قبل أن يميل نحو مكتب الضابط (نعيم) متسائلا فى همس ، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد :

ـ ماذا تريدون منى أن أفعل فى (القاهرة) ؟!

وهنا ابتسم الضابط (نعيم) وضاقت عيناه ، وهو يقول :

ـ هذا يحتاج إلى مقابلة شخص مسئول .

وفى اليوم التالى ، اصطحبه (نعيم) إلى (بئر سبع) ، حيث التقى بالضابط (أبى يعقوب) ، الذى عرض عليه العمل معهم فى وضوح ، وأخبره أن كل المطلوب منه فى (القاهرة) هو معرفة أسعار الخضر والفاكهة ، بحجة إرسالها إلى شقيقه ، الذى يمتلك مكتبًا للاستيراد والتصدير فى (لندن) ..

ووافق (إبراهيم) على الفور وخاصة بعد أن علم أنه

سيحصل على راتب مقداره مائتا دولار شهريًا ، بالإضافة إلى مكافأة خاصة ، عن كل معلومة مهمة يرسلها ، ولقد أعطاه (أبو يعقوب) ألف دولار ، وبعض العناوين فى (أوروبا) ؛ لإرسال المعلومات إليها ..

وعند عودته إلى منزله أخبر (إبراهيم) زوجته (انشراح) بكل ما حدث ، فسعدت بالراتب وقررت مساعدته فى عمله القذر ، فور وصولهما إلى (القاهرة) .

وهكذا انتقل (إبراهيم) و(انشراح) إلى (القاهرة) حيث استقبلهما مسئول محافظة (سيناء) فى (القاهرة) فى ذلك الحين ، ومنحهما بعض التسهيلات المالية المخصصة لضحايا العدوان ، كما حصلا على منزل فى حى (المطرية) ، واستقر بهما المقام هناك مع ولديهما (نبيل) و(محمد) والتأم الشمل أخيرًا ..

ولم يُضِع الزوجان لحظة واحدة ، منذ وصولهما إلى (القاهرة) ، فقد بدءا فى جمع كل ما يمكنهما من معلومات على الفور وأخذا يرسلان حصيلتيهما أولاً فأولاً إلى تلك العناوين فى (أوروبا) ...

ويبدو أن تلك المعلومات كانت جيدة بالفعل ؛ إذ لم يلبث الإسرائيليون أن طلبوا من (إبراهيم) و(انشراح) السفر إلى (روما) وهناك تم سحب جوازى سفرهما المصريين ، وحصلا

بدلاً منهما على جوازى سفر إسرائيليين ، باسم (موسى عمر) و(دينا عمر) وحملتهما واحدة من طائرات (العال) إلى مطار (اللد) فى قلب (إسرائيل) ومنه انطلقت بهما سيارة حربية إسرائيلية إلى (بئر سبع) مباشرة ، حيث استقبلهما (أبو يعقوب) ، الذى سألهما عن مصادر معلوماتهما ، قبل أن يقول فى حزم : إننا نثق بأقوالكما بالتأكيد ، ولكن هناك اختبارًا ينبغى القيام به .

وكانت صدمة للزوجين ، عندما علما أن السبب الرئيسى لإحضارهما إلى (تل أبيب) هو إخضاعهما لاختبار خاص على واحد من أحدث أجهزة كشف الكذب الأمريكية .

وعندما جاءت نتائج الاختبار لتؤكد أنهما يتعاونان بالفعل مع المخابرات الإسرائيلية ، وليس لحساب المخابرات المصرية ، اعتذر لهما (أبو يعقوب) ، وأخبرهما أن هذا يحدث مع كل العملاء بلا استثناء ، بين كل فترة وأخرى ، ثم أبلغهما أنهما سيتلقيان بعض التدريبات ؛ لرفع مستوى كفاءتهما فى أعمال التجسس وجمع المعلومات ..

وبالفعل تلقى (إبراهيم) و(انشراح) دورة تدريبية متقدمة ، على أعمال التجسس ، واستخدام الأحبار السرية واللاسلكى وغيرها ، قبل أن يعودا مرة أخرى إلى (أوروبا) ، ويستعيدا جوازى سفرهما الحقيقيين ؛ ليعودا بهما إلى (القاهرة) ..

وفى هذه المرة ارتفع الراتب إلى ثلاثمائة دولار ، وتضاعفت مكافأة جمع المعلومات مما شجع الزوجين الخائنين على المضى قدمًا فى خيانتهما ، وشجعهما أيضًا على القيام بخطوة غير مسبوقة ، فى مجال الجاسوسية ..

فذات يوم ، وبمحض الصدفة كشف (نبيل) حقيقة والديه ، وكونهما جاسوسين ، يعملان لحساب المخابرات الإسرائيلية .

وعلى عكس ما توقع (إبراهيم) و(انشراح) لم يغضب (نبيل) ، أو يثُرْ ، أو حتى ينظر إليهما نظرة احتقار وازدراء بل طالب بنصيبه من الكعكة ما دامت تكفى الجميع .

وبأسلوب عملى بحت ، وبلا أدنى لمحة من المشاعر الأبوية ، أخبر (إبراهيم) ابنه أنه لا نقود بلا عمل ، وما دام يرغب فى الحصول على أجر كبير ، فليقم بجمع المعلومات المطلوبة أيضًا ..

وهكذا انضم عضو جديد إلى شبكة الجاسوسية العائلية .

ولم يمض شهران آخران حتى انضم (محمد) أيضًا إلى مستنقع الخيانة ليكتمل بهذا النصاب العائلى كله ، وليكتب تاريخ الجاسوسية اسم أول عائلة تعمل بالكامل فى هذا المضمار ، وفى الجانب القذر منه فحسب .

ومع تعاون الأسرة ، بدأ الإسرائيليون يتلقون فيضًا من المعلومات التى أسالت لعابهم ، وأثارت اهتمامهم ، وخاصة فى

تلك الفترة بعد وفاة الرئيس (جمال عبد الناصر) وتولى الرئيس (أنور السادات) السلطة وسعى الجميع لمعرفة قراره بشأن الموقف المتجمد فى (سيناء) ..

حرب أم لا حرب !!

ولأن الموقف كان يستحق الانتقال إلى خطوة تالية فقد تم استدعاء الزوجين مرة أخرى إلى (روما) ، ومنها سافرا بجوازى السفر الإسرائيليين إلى (اللد) ومنها إلى (بئر سبع) ، حيث استقبلهما (أبو يعقوب) ، بترحاب بالغ هذه المرة ، وأخبرهما أن راتبهما سيرتفع إلى ثلاثمائة وخمسين دولارًا ، كما أن المكافآت ستتضاعف مرة أخرى ، ثم أبلغهما أنهما سيتلقيان دورة تدريبية جديدة متقدمة ، على كيفية تصوير الأهداف والمستندات ، وأن بانتظارهما مفاجأة مدهشة بعد انتهاء الدورة مباشرة ..

وخاض الزوجان الدورة التدريبية الجديدة ، وتلقى كل منهما آلة تصوير حديثة دقيقة ، يمكنها التقاط الصور فى الضوء الخافت ، وبسرعة كبيرة ، ودون الحاجة إلى مصابيح تصوير .. ومع اجتياز الدورة بنجاح ، كانت تلك المفاجأة فى انتظارهما بالفعل ..

فبعد اطمئنان الإسرائيليين إلى إخلاص (إبراهيم) و(انشراح) فى الخيانة قرروا ضمهما إلى الجيش الإسرائيلى

فحصل (إبراهيم) على رتبة مقدم ، فى حين حصلت (انشراح) على رتبة ملازم أول ..

وعاد الخائنان إلى (مصر) وهما يحملان رتبتيهما الجديدتين ، وآلات التصوير الحديثة .

وعادت عجلة الخيانة تدور ...

وفى أوائل أكتوبر عام ١٩٧٣م سافرت (انشراح) وحدها إلى (روما) وانتظرت هناك قدوم (أبى يعقوب) ، الذى وصل يوم السابع من أكتوبر ، وهو يحمل حزن ومرارة الدنيا كلها ، وسألها عن ظروف الحرب ، وسقوط خط (بارليف) ، وتفوق المصريين والسوريين على الجبهتين ، فتلقت الخبر كالصاعقة ، وأخبرته أنها لا تعلم أى شىء عن تفاصيل الحرب وأنها تسمع الأمر منه لأول مرة ..

ويومها بكى (أبو يعقوب) منهارًا وأخبرها أن هذا أسوأ يوم فى حياته كلها وأن مفاجأة حرب السادس من أكتوبر كانت فوق طاقته فهدأت (انشراح) من روعه وأخبرته أنها تشعر بالصدمة نفسها ..

ولم تكد (انشراح) تعود إلى (القاهرة) حتى وصل استدعاء إلى (إبراهيم) ليسافر وحده إلى (بئر سبع) .

وفى أبريل ١٩٧٤ م سافرت الأسرة كلها إلى (تركيا) ثم انفصل (إبراهيم) عنهم وسافر وحده إلى (بئر سبع) ، حيث

استقبله (أبو يعقوب) مع طاقم جديد من ضباط المخابرات الإسرائيليين بعد أن أسقطت الحرب الطاقم القديم ، وهناك واجهه السؤال الأكثر أهمية :

ـ كيف لم تشعر ببوادر الحرب فى (القاهرة) ؟!

وكان (إبراهيم) مخلصًا فى جوابه تمامًا ، عندما قال :

ـ لم يشعر أحد ببوادر الحرب .. كل شىء كان يسير على ما يرام .. حتى الذين يعملون كضباط فى الجيش المصرى ، لم يشعروا قط أن الحرب على الأبواب .. بل لقد فتحت القوات المسلحة المصرية باب التقدم لعمرة (رمضان) وبعض الضباط الكبار حجزوا أماكنهم بالفعل .

كان جوابه سليمًا ومنطقيًا للغاية ، وكل الجالسين حول مائدة الاجتماعات يعلمون هذا جيدًا ، فقد أجاد الرجال فى (القاهرة) اللعبة تمامًا ، حتى إن كل أجهزة المخابرات الإسرائيلية ، وحتى الأمريكية لم يمكنها التنبؤ بالأمر فى حينه ، فجاءت الحرب مفاجأة صاعقة للجميع ..

لذا فقد ابتلع الإسرائيليون الجواب وأخبروه أن أكثر ما يقلقهم الآن هو أن يشن عليهم المصريون حربًا أخرى فى هذا الوقت الذى لم تلتئم فيه جراحهم بعد ، خاصة وأنهم لم يستعيدوا (سيناء) كاملة ..

وبصوت حمل كل توتره ، قال قائدهم :

- المطلوب منك فى المرحلة القادمة هو كشف نوايا المصريين ، والسعي لمعرفة هدفهم القادم بالتحديد ، ولو نجحت فى إبلاغنا بموعد الحرب القادمة ، قبل اندلاعها بيوم واحد على الأقل ستحصل على مكافأة ضخمة .

ثم مال نحوه مستطردًا :

- مليون دولار .

شهق (إبراهيم) من فرط الدهشة والانبهار ، إلا أنه لم يلبث أن عبر عن قلقه الخاص ببطء وسائل الاتصال ، وصعوبة إيصال المعلومة لو نجح فى الحصول عليها ، فى الوقت المناسب ، لذا فقد أخبره رجل المخابرات الإسرائيلى أنهم سيمنحونه أحدث جهاز اتصال لاسلكى ، ويمكنه بث رسائله بسرعة خمس كلمات فى الثانية الواحدة ، وطلبوا منه الحفاظ على الجهاز ، واستخدامه لإبلاغهم بالمعلومات أولاً فأولاً ..

وعاد (إبراهيم) وأسرته إلى (القاهرة) هذه المرة ورءوسهم جميعًا تحلم بمكافأة الخيانة الكبرى .

بالمليون دولار ..

وفى منزلهم الجديد قام (إبراهيم) بتجربة إرسال ، بوساطة الجهاز الجديد ، إلا أن البث لم يكتمل ، بسبب عطل فى أزرار الجهاز وحاول (إبراهيم) إصلاح العطل ولكن ذلك لم يكن ممكنًا ، دون طاقم أزرار جديد ..

ولأن هذه الأشياء لا يمكن أن تتوافر للمستهلك العادى ، تطوعت (انشراح) بالسفر وحدها إلى (إسرائيل) ، لإحضار طاقم أزرار بديل ..

وسافرت (انشراح) دون أن تدرى أن وصول جهاز الاتصال الجديد كان البداية ..

بداية نهاية رحلة الخيانة الطويلة ..

فالواقع أن المخابرات المصرية كانت تضع عينيها على عائلة (إبراهيم شاهين) منذ فترة طويلة ، وخاصة مع أسفارهم المتعددة ، وعلامات الثراء التى ظهرت عليهم ، والبذخ الذى ينفق به الابن (نبيل) بالتحديد ..

ومع المراقبة المستمرة كانت الصورة تتضح أكثر وأكثر ..

وكانت الخيانة ترسم صورتها بحروف من طين ..

كل ما كان ينقص الرجال هو الدليل المادى القوى الذى يكفل لهم إلقاءِ القبض على عائلة الخونة بأكملها ، دون ثغرة واحدة ..

وعندما بدأ (إبراهيم) ذلك البث الذى لم يكتمل ، لم يكن يدرك أنه بذلك يمنح الرجال الدليل الذى ينشدونه ..

الدليل على خيانته وخيانة أسرته كلها ..

ففى ذلك الحين ، وعلى الرغم من تصور الإسرائيليين أنهم

يمتلكون تكنولوجيا غير مسبوقة ، كان لدى (مصر) جهاز جديد ، يعرف باسم (صائد الموجات) له قدرة مدهشة على اصطياد أية موجة قصيرة ، وتحديد مصدر بثها ، بدقة تبلغ واحد فى كل مائة ألف كنسبة خطأ ..

وهكذا علم الرجال أن الجهاز قد وصل إلى (القاهرة) ..

وأن عائلة الخونة قد سقطت .

وفى السادسة من صباح الخامس من أغسطس عام ١٩٧٤م تم اعتقال (إبراهيم شاهين) وولديه (نبيل) و(محمد) فى منزلهم ..

والعجيب أن (إبراهيم) لم يقاوم الاعتقال !!

بل ولم يعترض بحرف واحد ، أو يسأل الرجال حتى عن هويتهم ، أو إذن النيابة العامة ، الذى يحملونه !! وفى استسلام ذليل كتب اعترافه كاملاً ، وذيله بتوقيعه ..

وعندما عادت (انشراح) ، فى السادس والعشرين من أغسطس ، فوجئت برجال المخابرات فى منزلها ، يواجهونها بخيانتها ، فهاجت وماجت وصرخت وبكت واستنكرت ثم استعطفت وتوسلت وأعلنت استعدادها للتعاون ..

ولكن بعد فوات الأوان .

وفى الثلاثين من أغسطس ، وبعد أن كشف المصريون موجة الإرسال التى يبث بها الجهاز الجديد رسائله إلى

(إسرائيل) ، أرسلوا إلى رجال المخابرات الإسرائيلية رسالة قصيرة تقول :

لا تزعجوا أنفسكم بالاتصال بعميلكم (إبراهيم) و(انشراح) ، فقد انكشف أمرهما ، وأصبحا فى قبضتنا .. وإلى جولة أخرى ... المخابرات المصرية .

وهى نفس الرسالة التى قرأها (أهارون ياريف) المستشار الأمنى لرئيسة الوزراء الإسرائيلية حينذاك ، (جولدا مائير) التى أدركت ، كما أدرك الجميع ، أن المصريين قد ربحوا هذه الجولة أيضًا ..

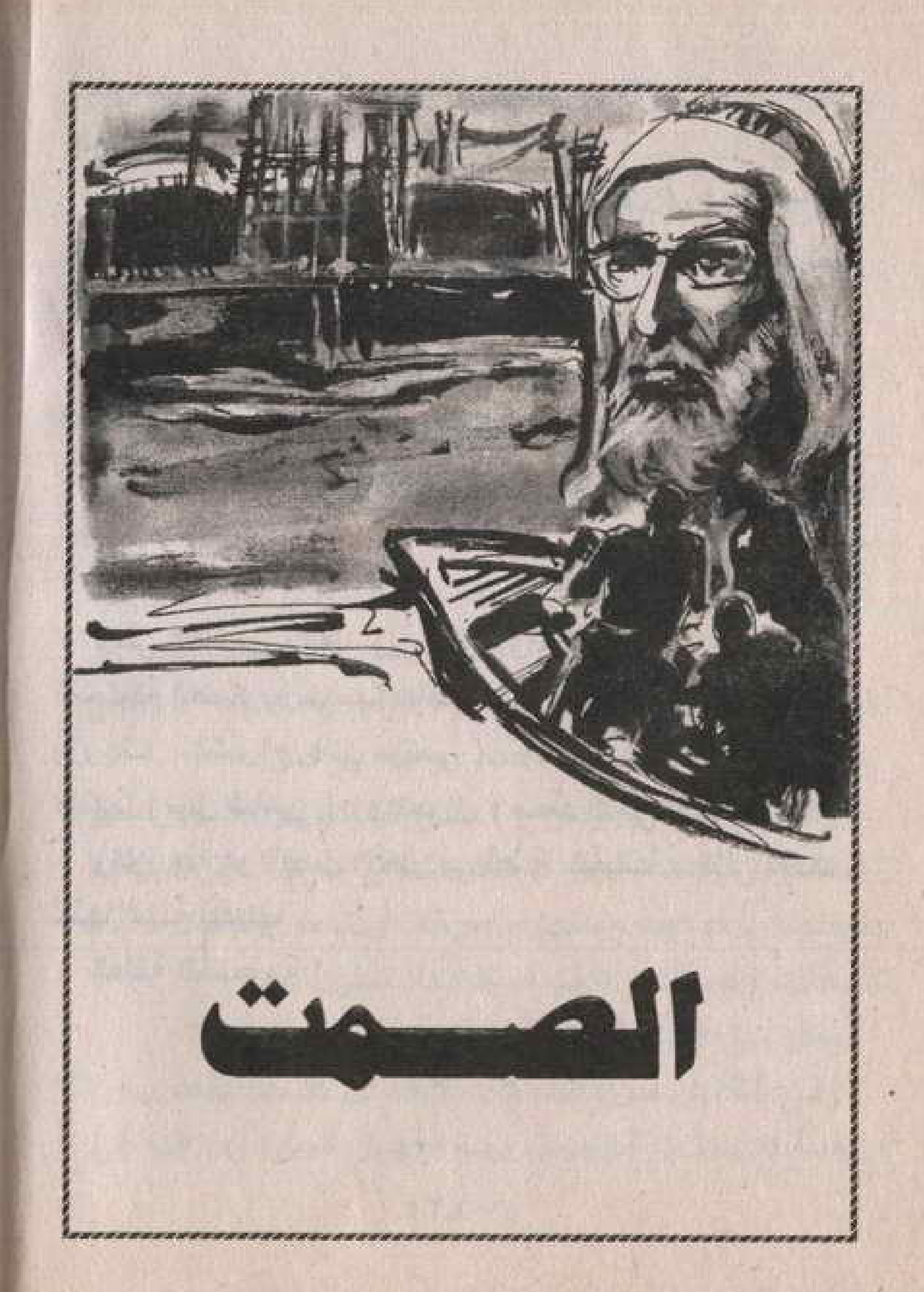
وبتفوق ..

وفى الخامس والعشرين من نوفمبر ١٩٧٤ ، أصدرت المحكمة العسكرية حكمها بإعدام (إبراهيم سعيد شاهين) وزوجته (إنشراح على موسى) ، وبالسجن خمس سنوات لابنهما (نبيل شاهين) ، وبتحويل (محمد) إلى الأحداث ..

وكان هذا هو الفصل الأخير فى قصة الخيانة ، التى دفعت ثمنها عائلة بأكملها ..

العائلة المسمومة !

★ ★ ★



الصمـــت

الأول من أكتوبر عام ١٩٧٣م ـ الخامس من رمضان عام ١٣٩٣ هـ ..

كل شىء يبدو هادئًا على السطح فى (القاهرة) ، التى انشغل معظم قاطنيها بمتابعة فوازير ومسلسلات شهر رمضان ، وانهمك البعض فى أعمالهم ، التى تشهد رواجًا ملحوظًا ، فى ذلك الشهر الكريم ، مع إقبال الناس على الشراء ، واستمتاعهم بالسهر والتجوال ، حتى مطلع الفجر ..

ولكن ، دعنا نبتعد عن قلب (القاهرة) ، ونتجه إلى ذلك المبنى القابع خلف القصر الجمهورى ، فى حدائق القبة ، وستبدو لنا الصورة مختلفة تمامًا ..

ففى قاعة الاجتماعات ، فى أحد طوابق المبنى الغامض ، التف عدد من الرجال حول خريطة مجسمة ضخمة ، تحتل منضدة كبيرة ، فى منتصف القاعة ، وتمثل نموذجًا شديد الاتقان لصحراء (سيناء) بكل مدنها وطرقها ، والمنشآت التى أقامها الإسرائيليون عليها ، حتى بجبالها وتبابها وكثبانها الرملية .

وكانت المناقشة محتدمة للغاية ، بين هؤلاء الرجال ، الذين هم صفوة جهاز المخابرات العامة ، وخلاصة خبراته وعقوله ،

والذين أدركوا قبل غيرهم أن الحرب على الأبواب ، وأن المهمة التى أسندتْ إليهم منذ فترة طويلة ، قد شارفت ذروتها ، واقتربت من اللحظة التى تحسم عندها الأمور ، والتى لن يشهد نهايتها إلا المنتصرون ..

وفى حزم ، أشار قائد الرجال إلى مبنى صغير على الخريطة ، يرتفع فوقه برج معدنى طويل ، وهو يقول هنا تكمن المشكلة الحقيقية ، فهذا هو مركز التنصت ، الذى أنشأته المخابرات الإسرائيلية فى منطقة محمية للغاية ، على ساحل (سيناء) الشمالى ، وهو يضم بين جدرانه أحدث الأجهزة الإليكترونية وأكثرها تطورًا ، وبفضلها يصبح بمقدور الإسرائيليين الاستماع إلى الإشارات المتبادلة ، بين وحدات الجيش المصرى ، وبين هذه الوحدات وقيادتها فى جبهة قناة السويس .. وهذا أمر بالغ الخطورة ، وخاصة فى ساعة القتال .

ثم اعتدل ، ودار بعينيه فى وجوه الرجال ، قبل أن يضيف فى حزم أكبر : ولهذا ، لا بد من تدمير ذلك المركز ، قبل ساعة الصفر .

التقط الرجال عبارته ، وعادوا يتناقشون فى حماسة ، واقترح أحدهم فكرة مهاجمة المركز بالطائرات المصرية ، أو بوساطة فريق من رجال الكوماندوز ، ولكن سرعان ما تم طرح الفكرة جانبًا ، لأنها ستنبه الإسرائيليين إلى قرب حدوث هجوم

مصرى شامل ، ثم إن الإسرائيليين اختاروا للمحطة نقطة حصينة للغاية ، وأحاطوها بحراسة مشددة ، ومراقبة دائمة دقيقة ..

وفى أثناء المناقشات والمحاورات ، هتف أحد الرجال فجأة :

- ولِمَ لا نلجأ إلى ضربة غير مباشرة ؟!

التفتت إليه العيون كلها فى تساؤل ، فأضاف فى حماسة ، وهو يشير إلى نقطة أخرى على الخريطة :

هذه هى محطة المحولات الكهربائية ، المقامة خلف جسر (وادى العريش) وتشتمل على ثلاثة محولات ضخمة ، كل منها له ثلاثة أوجه ، من الطراز الذى يجرى فيه الزيت مضغوطًا ، ويتم تبريده بتيار من الهواء ، وهذه المحطة تمد معسكرات الجيش الإسرائيلى فى (سيناء) وثلاجات حفظ الأطعمة الضخمة ، وأجهزة التكييف فى غرف العمليات والقيادة بالتيار الكهربى ، ولكن الأكثر أهمية هو أنها مصدر الطاقة الرئيسى لهذا المبنى .

قالها وهو ينقل سبابته إلى مبنى مركز التنصت ، فتألقت العيون كلها فى آن واحد ، وفهم الجميع الفكرة فى لحظة واحدة ، وهتف أحدهم :

فكرة عبقرية .. إذن فأنت تقترح تدمير محطة المحولات الكهربائية ، وقطع الطاقة عن مركز التنصت :

أشار الرجل بكفيه ، وهو يقول مبتسمًا :
بالضبط .. إننا لن نشغل أنفسنا بتدمير مركز التنصت ، ولكننا سنقطع أذنيه ، ونغرقه فى عالم من الصمت .
بدا القلق على وجه قائد الرجال ، وهو يقول :
ـ إنها فكرة جيدة بالفعل ، ولكن المشكلة أنها تحتاج إلى إعداد مسبق ، وليس لدينا الوقت الكافى لتدريب الرجال ، وإرسالهم إلى هناك ، و .....
قبل أن يتم عبارته ، اندفع رجل آخر يقول فى حماسة :
ـ ربّما لا نحتاج إلى هذا .
تطلع إليه زملاؤه ، فتابع بسرعة :
لدينا فى العريش من يمكنهم تنفيذ المهمة ، وبكفاءة مدهشة .. إننى أعنى تلك المجموعة .. مجموعة (صباح الكاشف) .
ومرة أخرى تألقت كل العيون ، فقد كان هذا الاقتراح رائعًا .. رائعًا بحق ..

★ ★ ★

الرابع من أكتوبر عام ١٩٧٣م الثامن من رمضان عام ١٣٩٣ هـ ..
ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتى الصيدلى (محمود حمودة) وهو يفتح باب صيدليته فى الصباح الباكر ، فى شارع (٢٣ يوليو) ، أهم شوارع العريش ، وبدا أنيقًا بسيطًا ،

فى معطفه الأبيض النظيف ، وهو يلقى التحية على المارين ، أو يتلقاها منهم ، ولم يلبث أن استقر خلف ذلك الحاجز الزجاجى فى الصيدلية ، وبدأ عمله فى قراءة التذاكر الطبية وتسليم الأدوية ، من خلال نافذة صغيرة فى الحاجز ، دون أن تفارقه ابتسامته البشوش لحظة واحدة ..
ثم دلف الرجل إلى الصيدلية ..
كان شابًا نحيلاً ، فى حوالى الأربعين من عمره ، تبدو عليه العصبية فى وضوح ، وهو يمسك تذكرة طبية ، ناولها للصيدلى ، قائلاً فى توتر :
هل يمكننى أن أجد هذا عندك ؟
ألقى الدكتور (محمود) نظرة مدققة على التذكرة ، التى تحوى تركيبة طبية بسيطة ، لعلاج آلام المفاصل ، ثم أشار إلى مقعد فى ركن الصيدلية ، قائلاً فى هدوء :
انتظر قليلاً يا أستاذ (عبد الحميد) ، فالتركيبة يحتاج إعدادها إلى بعض الوقت .
جلس (عبد الحميد عبد اللّه الخليلى) على ذلك المقعد فى الركن ، وراح يحرك قدميه فى عصبية واضحة ، وكان يحتاج إلى هذا الدواء فى شدة ، فى حين أجاب الصيدلى طلبات زبون أو زبونين فى سرعة ، ثم أعاد قراءة التذكرة فى اهتمام واضح شديد ، وبأسلوب تدرب عليه طويلاً ، فالتقط الحرف الأول من

اسم العقار الأخير ، ثم الحرف الثانى من اسم العقار السابق له ، وهكذا ، حتى تكونت لديه فى النهاية كلمة (الهدف ـ ١٢٦ ب) ..

وفهم الصيدلى على الفور تلك الرسالة ، التى وصلته من الرجال فى (القاهرة) ..

لقد تقرر تدمير ذلك الهدف ، الذى لم يكن سوى محطة توليد الكهرباء الكبيرة ..

وفى حسم ، سأل الصيدلى :

ـ ومتى تحتاج إلى هذا الدواء ؟

أجابه (عبد الحميد) فى سرعة حازمة :

ـ الليلة .

كان الموعد قريبًا للغاية ، والمهمة عسيرة إلى حد مخيف ، إلا أن الصيدلى لم يتردد لحظة واحدة ، وهو يجيب :

ـ ستحصل عليه فى الموعد المطلوب بإذن الله .

ولم يكد (عبد الحميد) يغادر الصيدلية ، حتى أزاح الصيدلى ستارة قريبة ، والتقط من خلفها صندوقًا يحمل اسم شركة أدوية شهيرة ، ونقله فى عناية إلى ما خلف مكتبه ، ثم التقط منه علبتين كبيرتين من علب أحد أدوية الروماتيزم ، ودسهما فى جيبه ، وأغلق باب الصيدلية ، ثم اتجه مباشرة إلى شارع المحطة ..

كان يعلم أن العلبتين لا تحويان أية عقاقير طبية ، كما يقول غلافاهما ، وإنما يحملان خمسة مفجرات طرفية تحتاج إليها المهمة ، ضمن عدد آخر من المعدات ، المبعثرة فى طول المدينة وعرضها ، فلكى يتم تدمير المحطة ، يحتاج الرجال إلى عشرة كيلوجرامات من مادة (T.N.T) تم إخفاؤها فى قاع زورق مهجور على الشاطئ ، وعشرين مترًا من الفتيل المتفجر ، يحتفظ بها (عبد الحميد الخليلى) فى بيته الكائن فى شارع الشهيد (محمد الخليلى) ، وهو شقيقه ، ويحتاجون أيضًا إلى قلم أو قلمين زمنيين ؛ لتحديد موعد التفجير ..

وفى شارع المحطة ، كان (محمود العزازى) فى ورشة السيارات التى يمتلكها ، بقامته الممشوقة وكتفيه العريضين ، وإلى جواره واحدة من سيارات الجيب الإسرائيلية ، التى تحتاج إلى إصلاح عاجل ، ولكنه لم يكد يلمح الصيدلى ، حتى أوكل أمر إصلاحها إلى أحد الصبية فى الورشة ، ومسح جبهته بكم سترته الملطخة بالشحم ، واتجه مباشرة إلى الصيدلى وصافحه فى حرارة ، وسأله بصوت مسموع عن عقار جديد ؛ لعلاج التهابات الأذن ، ثم انتحى به جانبًا ، وهمس فى اهتمام :

هناك جديد .. أليس كذلك ؟

أجابه الصيدلى بسرعة :

ـ بلى .. لابد من تدمير الهدف ١٢٦ ب الليلة .

أومأ (محمود العزازى) برأسه موافقًا ، دون أن يلقى أية

أسئلة أخرى ، وقال :

ـ سألحق بك عند الحاج (صباح) ، فى الموعد المعتاد ..

والحاج (صباح الكاشف) هذا هو قائد المجموعة ، وعلى الرغم من أنه فى ذلك الحين كان يتجاوز الستين من العمر ، إلا أنه يحتفظ بنشاط وحيوية شاب فى العشرين ، وجرأة مقاتل لا يشق له غبار . وكان هادئًا بطىء السير والحديث ، إلا أنه فى أعماقه داهية ماكر ، وعبقرى يتميز بين رفاقه فى قدرته على دراسة وتخطيط أعقد الأمور ، ثم إنه كان همزة الوصل بين مقاتلى (العريش) ، ورجال المخابرات العامة المصرية ..

وفى منزل الحاج (صباح) ، اجتمع الفريق كله .. الصيدلى ، و(عبد الحميد) ، و(العزازى) ، ومسئول اللاسلكى (سعد محمود جلباتة) ، والمزارعان (محمد عبد الغنى السيد) و(عدنان شهاب البراوى) .. وفى حزم ، قال الحاج (صباح) :

منذ زمن وأنا أشعر بأن هذه المحطة سيتم تدميرها ذات يوم ، فهى شريان الحياة للعسكريين الأمريكيين ، ولكن المهمة ليست سهلة أو هينة بالتأكيد ، بل هى مهمة شاقة للغاية ، وستتطلب منا جهدًا خرافيًا ، واحتمالات نجاتنا منها قد لا تتجاوز الخمسة فى المائة ، فمن منكم يرغب فى التراجع الآن ؟ ظلت الوجوه جامدة حازمة ، يطل منها العزم والإصرار الذى ترجمه (عدنان) بقوله :

اشرح لنا ما ينبغى فعله :

ابتسم الحاج (صباح) وأدرك أن الجميع مصرون على القيام بالمهمة ، فالتقط نفسًا عميقًا ، وقال :

على بركة اللّه .

ثم بدأ يشرح خطته ..

كانت عملية شاقة بالفعل ، ولعل أخطر ما فيها هو عملية نقل المواد نفسها ، والتى لا بد أن تتم فى وضح النهار ، وعبر طرقات تغص بجنود الاحتلال ، إلى خارج المدينة ، حيث منطقة الجسر ، والتى تتم حراستها بعناية فائقة ، نظرًا لأن فيها جسر السكك الحديدية ، وكابل الاتصالات اللاسلكية ، ومحطة المحولات المنشودة ..

ولكن أحدًا من الرجال لم يتقاعس أو يتراجع ..

فبعد صلاة الظهر مباشرة ، بدأت تحركات المجموعة فى نشاط جم ، وصمت تام ، وسرية بالغة ، فأحضر (عبد الحميد) الفتيل المتفجر والقلمين الزمنيين من منزله ، واتجه (سعد جلباته) إلى الزورق المهجور ، وأحضر المواد الناسفة من قاعه ، ثم تولى (محمد عبد الغنى) و (عدنان شهاب) وزميل لهما عملية نقل الشحنة كلها إلى (منطقة الجسر) و ..

وفجأة أمسك (عدنان) ذراعى زميليه ، وهمس :

ـ مهلاً .. يبدو أن الأبقار كلها لم تعد إلى حظائرها بعد .

انتبه زميلاه فى تلك اللحظة إلى ثلاثة من الحرّاس الإسرائيليين المدججين بالسلاح ، يقفون لحراسة المحطة ، وعيونهم تدور فى كل مكان ، فغمغم (محمد عبد الغنى) :

- هذا من سوء حظهم .

وفى خفة وحذر ، تسلَل الرجال الثلاثة إلى المحطة ، واتخذوا مواقعهم ، التى حددها لهم الحاج (صباح) وتطلّع أحدهم إلى ساعته لحظات ، قبل أن يقول فى حزم ، وهو يلوح بيده فى قوة :

- الآن .

وقبل أن يتلاشى صوته ، كان الثلاثة ينقضون على الحراس الإسرائيليين ، الذين أخذتهم المفاجأة ، فعقدت ألسنتهم ، وأخرست حلوقهم ، وجمّدت أيديهم على أزندة أسلحتهم ، فلم ترتد إليهم عقولهم ، ويعاودهم جأشهم ، إلا وقد جرّدهم الرجال الثلاثة من أسلحتهم ، وألقوهم أرضًا ، وجثموا فوق صدورهم ، و ...

وانتهى أمر الحراس الثلاثة ، فى أقل من دقيقة واحدة .

ثم بدأت عملية زرع المتفجرات .

وحتى بعد التخلص من الحراس الثلاثة ، لم يكن هذا بالمهة السهلة أو اليسيرة . فالمحطة محاطة بسياج مرتفع من الأسلاك الشائكة ، والأضواء تغمرها من كل جانب ، على نحو يجعل من

العسير أن يتحرك أى شخص فى نطاقها ، دون أن يبدو واضحًا منظورًا .

ولكن المدهش أن الرجال أنجزوا المهمة ، بعد أن انضم إليهم رفاقهم ، ثم تراجع الجميع على نحو منظم ، إلى مسافة عشرين مترًا ، وهو طول فتيل التفجير ، قبل أن يغمغم (سعد) :

- حانت اللحظة .

قالها ، وغرس القلم الزمنى ، وأشعل فتيل التفجير ، ثم انطلق الرجال يبتعدون بأقصى سرعة .

ومن بعيد ، وفى شرفة منزله فى قلب (العريش) ، وقف الحاج (صباح الكاشف) يراقب الأفق ، وهو يتمتم بآيات قرآنية ، ويداعب حبات مسبحته فى توتر .

ثم دوى الانفجار .

كان انفجارًا رهيبًا ، ارتجت له (العريش) كلها ، وارتجفت له أجساد الإسرائيليين ، فى نفس اللحظة التى رقصت فيها قلوب المصريين فى المدينة .

ومع اندلاع النيران ، أطلق الحاج (صباح) كل التوتر المحبوس فى صدره ، على هيئة زفرة حارة ، أفلتت من بين شفتيه الباسمتين ، وهو يتمتم :

- الحمد للَّه .

وفى منتصف الليل ، وعندما التقى الرجال فى منزل الحاج

(صباح) ، والزهو الظافر يملأ عقولهم وقلوبهم ، ويزغرد صامتًا فى عيونهم ، ابتسم الحاج ، وأشار إلى (عبد الحميد) و(سعد) ، قائلا :

ـ أبلغا (القاهرة) أن الهدف لم يعد هناك .

وصمت لحظة : ثم أضاف فى حزم :

وقل لهما : إنها ليست عمليتنا الأخيرة بإذن الله .

وعندما وصلت الرسالة إلى (القاهرة) ، استقبلها الرجال بلهفة وسعادة حقيقيتين ، وهتف أحدهم :

كنت أعلم أنهم سيفعلونها ،

أومأ قائده برأسه ، وهو يقول فى إعجاب واحترام :

هؤلاء الرجال أبطال بحق .

مال عليه أحد الرجال ، وسأله :

ـ هل تظن أن الحاج (صباح) كان يعنى ما يقوله ، عندما أشار إلى أنها ليست عمليتهم الأخيرة .

ابتسم القائد ابتسامة واسعة ، وهو يقول :

ـ نعم .. الرجل اكتسب خبرة جيدة ، وهو يدرك جيدًا أن تدمير محطة محولات كهربية ليس بالهدف الرئيسى حتمًا ، وإنما هو مجرد خطوة فى طريق طويل ، تقترب نهايته فى سرعة .

ثم تطلع إلى خريطة (سيناء) المجسمة ، قبل أن يستطرد فى حزم :

ـ وأنها حتمًا ، لن تكون عمليتهم الأخيرة .

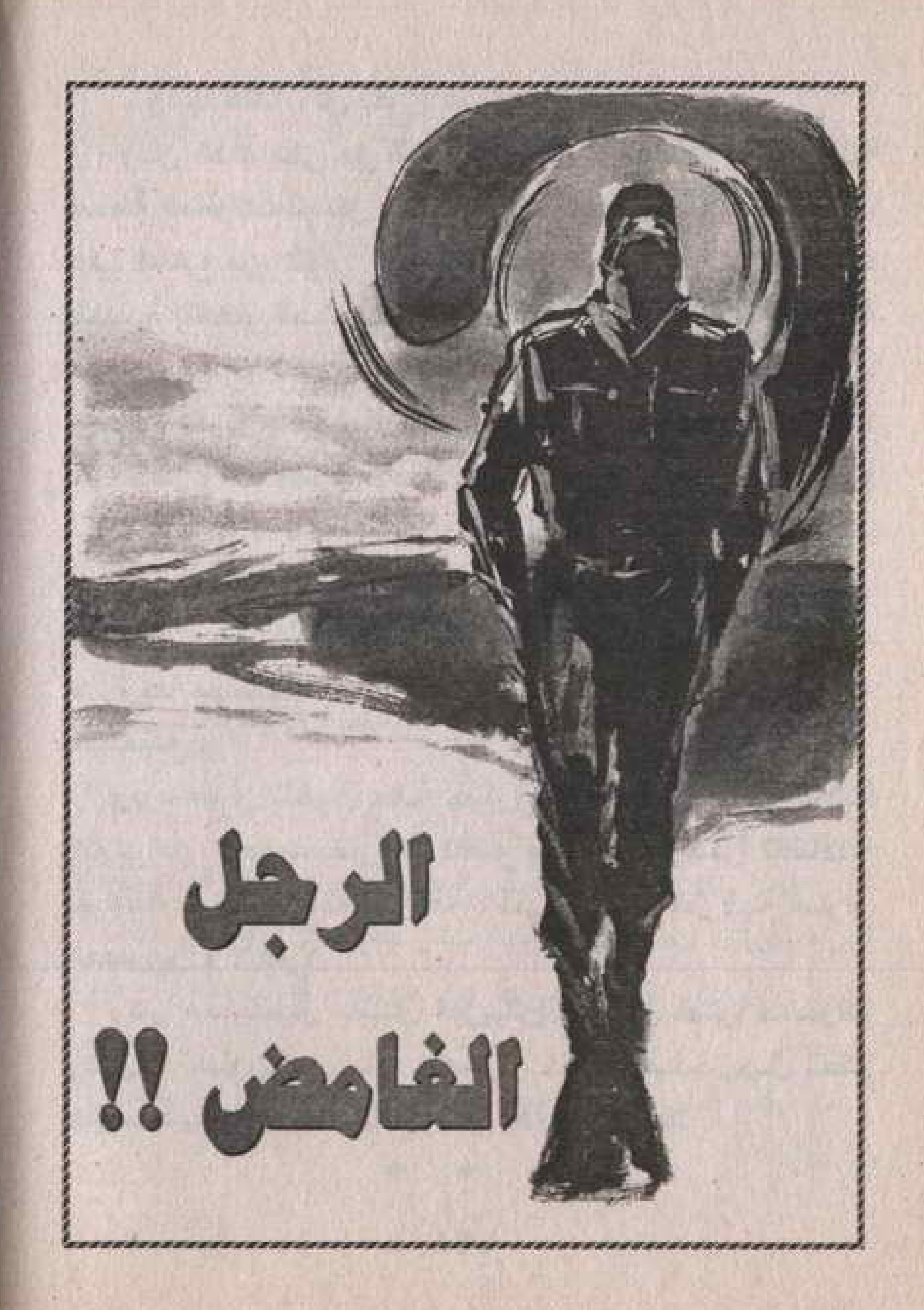
وكان القائد على حق تمامًا ، فى كل حرف نطق به ، فعملية محطة المحولات لم تكن آخر عمليات مجموعة (العريش) ، ففى السابع من أكتوبر ١٩٧٣ ، قاموا بوضع ستة من العبوات شديدة التفجير تحت ستة من الدعائم الخرسانية الضخمة لكوبرى السكك الحديدية ، الممتد من (إسرائيل) إلى الجبهة ، ونسفوا الكوبرى فى تمام الثامنة والنصف ، ليقطعوا بهذا واحدًا من أخطر وأهم خطوط الإمداد والتموين الإسرائيلية ، فى اليوم الثانى للحرب .

وفى الساعة الثانية والثلث ، من مساء الإثنين الثامن من أكتوبر ، نسفوا كابل الاتصالات السلكية الرئيسى للإسرائيليين ، فى أربعة مواضع متباعدة ، حتى تصبح عملية إصلاحه شبه مستحيلة .

وبوسعك أن تتخيل حالة جيش ، فوجئ فى الأيام الثلاثة الأولى من الحرب بضربات تقطع إمداداته ، وتشل اتصالاته بقياداته ، وتنسف أذنه المرهفة ، التى كانت تنقل إليه أسرار المصريين أولاً فأولاً .

وكل هذا بفضل أبطال العريش ، الذين ظلوا لسنوات وسنوات يعملون فى بسالة وإصرار ، تحت قيادة رجال تحتم عليهم طبيعة عملهم أن يقاتلوا فى دقة وفى صمت .

★ ★ ★



الرجل الغامض

ارتفعت درجة حرارة الجو ، على نحو غير معتاد ، فى قلب (سيناء) ، فى تلك الفترة من منتصف يوليو عام ١٩٧٢م ، وغرِق الجميع فى موجة من العرق والتوتر والقلق مع تلك الإجراءات التعسفية العنيفة ، التى اتخذتها السلطات الإسرائيلية ، والتى امتدَت إلى (العريش) ، بعد موجة من التخريبات المتتالية ، لعدد من المواقع والمنشآت العسكرية ، تمت خلال ثمان وأربعين ساعة فحسب ، مطيحة بمحطة إرسال لاسلكى ، وقضبان سكك حديدية ، ومخزن للذخيرة ، ومحطة تحلية كانت تمد أحد المعسكرات الرئيسية بالماء اللازم للشرب .

ومع غضب الإسرائيليين وثورتهم راحوا يقتحمون المنازل والبيوت ، ويمزقون الستائر والأرائك ، وحتى أغطية الأسرة ، ويعتقلون كل من تحمل نفوسهم ذرة واحدة من الشك تجاهه ، أو سبق اعتقاله ، فى أية أحداث سابقة .

وبعد حملة الاعتقالات الواسعة ، بدأت مرحلة الاستجواب ، أو بمعنى أدق ، مرحلة التعذيب والتنكيل لانتزاع المعلومات من المعتقلين .

أية معلومات ..

وكان من المستحيل أن يلوذ الجميع بالصمت أو يحتملون أساليب الاستجواب الرهيبة ، فى قاع السجون الإسرائيلية ، مع

الضرب والجلد بالسياط ، والنوم وسط الماء المثلج ، ونزع الأظفار ، والربط بأسلاك رفيعة ، يسرى فيها تيار كهربى قوى ، لا يكفى لقتل المستجوب ، ولكنه يبعث فى كل خلية من خلاياه موجة من الألم ، يكاد يطير لفرطها مخه من جمجمته .

لذا فقد انهار البعض .

واعترف .

وبكل اللهفة والتوتر ، بدأ الإسرائيليون يسجلون الاعترافات ، ويلتهمون المعلومات الجديدة ، التى تتساقط فى تثاقل وصعوبة من أفواه المعتقلين ، الذين يوشكون على فقدان الوعى ، من فرط الألم والإرهاق .

وانتقلت إلى ملفاتهم أسماء جديدة .

كانوا واثقين من أن عمليات التخريب المنظمة هذه تتم بوساطة مجموعات فدائية محدودة لكل منها قائد مدرب ، لديه بالتأكيد خلفية عسكرية ، تتيح له دراسة الخصم وتحديد المواقع المختارة ، ووسيلة التعامل معها .

ومع الاعترافات الأولية ، ظهرت عدة أسماء واضحة .

فمع مجموعة (العريش) ، كان القائد يحمل اسم (الكابتن) ، وفى (الحسنة) هو (منصور) ، وفى (سانت كاترين) يحمل القائد اسم (زياد) ، أما فى (أبو رديس) فهو (فؤاد) .

والتقط الإسرائيليون هذه المعلومات الجديدة ، وهرعوا بها

إلى رؤسائهم فى ظفر ، وهم يتصورون أنهم أمسكوا طرف الخيط للإيقاع بقادة مجموعات التخريب كلهم فى آن واحد .

ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة .

ففى اجتماع لقادة المخابرات الإسرائيلية ، المسئولين عن منطقة (سيناء) المحتلة ، تم طرح الأمر ، وراح الجميع يناقشون كل ما حصل عليه جنودهم ، لثلاث ساعات كاملة ، قبل أن يسود حجرة اجتماعاتهم صمت مطبق ، دام لدقيقة كاملة أو يزيد ، والجميع يتطلعون بعضهم إلى البعض بنظرات لا تحمل ذلك الظفر المنتظر ولا توحى بأى تفاؤل واضح ، ثم لم يلبث قائدهم أن قال فى شىء من العصبية :

ـ كل هذا ، على الرغم من أناقته ، لا يعنى شيئًا أيها السادة . إننا لم نحصل سوى على قائمة بأسماء من أطلقنا عليهم اسم القادة . أما فيما عدا هذا ، فلا توجد صور ، أو أوصاف ، أو أية دلائل أخرى يمكن أن تقود إلى شخص واحد منهم .

ثم نهض من مقعده ، وقد تزايدت عصبيته على نحو ملحوظ وهو يتابع :

ـ لا أحد منهم رأى قائد أية مجموعة .. مجرد أوامر يتلقونها على نحو شديد الدقة والتنظيم مع كل التعليمات المطلوبة ، وحتى مواد التفجير الأساسية ، يتم نقلها إليهم ، وتدريبهم عليها عن طريق رجل غامض ، يظهر ويختفى ، دون مواعيد محدودة أو اتصالات مسبقة . باختصار ، على الرغم من كل ما لدينا ، لن يمكننا الإيقاع بشخص إضافى واحد .

عادوا يتبادلون تلك النظرة العصبية المتوترة ، قبل أن يقول أحدهم :

ـ ولكن هذا مستحيل ! لا يمكن أن يكون هناك شخص غامض على طول الخط . هناك حتمًا من رآه أو تبعه أو راقبه . هناك حتمًا خيط ما . خيط يمكن أن يقودنا إليه بأية وسيلة كانت.

عقد قائدهم حاجبيه ، وراح يدور حول مائدة الاجتماعات ، قائلاً :

ـ الأوراق التى أمامنا تؤكد أن أحدًا لم يلتق به ، سوى قادة المجموعات الفرعيين ، ودائمًا ما يكون اللقاء فى قلب الليل ، والرجل يأتى ملثمًا ، ويلقى ما لديه على نحو موجز واف ، ثم لا يلبث أن يرحل ، ويبتلعه الليل بظلمته وغموضه .

ضرب أحدهم سطح المكتب براحته وهو يقول فى حزم:

ـ مستحيل يا سيدى ! إننا لا نتحدث عن شخصية أسطورية ، فى واحدة من الروايات التاريخية القديمة ، وإنما عن شخص طبيعى ، والأشخاص الطبيعيون لا يمكن أن يظهروا ويختفوا هكذا دون أن يتركوا خلفهم أدنى أثر ، أو أبسط دليل يمكن أن يقود إليهم .

التفت إليه القائد ، يسأله فى صرامة :

ـ ماذا تقترح إذن ؟

أجابه الرجل فى حزم أكبر :

ـ أن نعيد استجواب جميع المعتقلين ، وبمنتهى القسوة .

تطلّع إليه الجميع بضع لحظات فى صمت ، وكلمة (منتهى القسوة) ترن فى عقولهم ، قبل أن يقول القائد فى حسم :

ـ يبدو أنه ليس أمامنا سوى هذا الإجراء .

وفى حجرة اجتماعات قادة المخابرات الإسرائيلية لمنطقة (سيناء) طار هذا الأمر الجديد إلى كل السجون الإسرائيلية فى قلب (سيناء) .

وعادت موجة جديدة من الاستجوابات والتعذيب والتنكيل والوحشية .

وبدأت موجة جديدة من الاعتقالات ، وتفتيش المنازل والمساكن ، وحتى الخيام ، فى واحدة من أشرس الحملات التى شهدها سكان وبدو (سيناء) ، منذ أن احتلها الإسرائيليون بعد حرب يونيو ١٩٦٧ .

كل من تربطه حتى صلة صداقة بأى من المعتقلين القدامى ، تم اعتقاله وضربه وجلده وتعذيبه بشتى الوسائل ، أملاً فى انتزاع كلمة واحدة منه ، يمكن أن تقود إلى أى من قادة المجموعات ، أو تساعد فى الإيقاع بذلك الرجل الغامض ، الذى يبدو وكأنه همزة الوصل بين القادة ومجموعاتهم .

ومرة أخرى انهار من انهار ، من فرط التعذيب الرهيب ، وحصل الإسرائيليون على معلومة جديدة ، بعد كل ما فعلوه .

لقد أخبرهم أحد المعتقلين بعد أن فقد ثلاثة من أصابعه ، أنه كان يجوّل ذات مرة حول المدينـة ، فلمح ذلك الرجل الغامض وهو يحيط نفسه بلثامه عندما كان البدر يتوسط السماء ، ويغمر الصحراء كلها بضوئه الفضى الرائع .

ولم تمض ساعات محدودة ، حتى كان ذلك المعتقل المسكين يجلس أمام رجال المخابرات الإسرائيلية ، وعيونهم كلهم ترمقه بنظرة قاسية مخيفة ، قبل أن يسأله قائدهم فى صرامة فظة :

ـ كيف يبدو ذلك الرجل ؟! صفه لنا جيدًا .

كان المسكين يكاد يفقد الوعى ، مع كل ما عاناه ، وعلى الرغم من هذا ، فقد راح يصف ذلك الوسيط الغامض بمنتهى الدقة فأكَد أنه طويل القامة ، عريض المنكبين ، بيضاوى الوجه ، أسمر البشرة ، أسود الشعر ، مع صلع خفيف فـى مقدمـة الرأس .

وبسرعة ، حضر رسام خاص برجال المخابرات ، وراح يحول كل ما يتحدّث عنه الرجل ويصفه إلى خطوط ومنحنيات ، ورسوم تتغير كل لحظة وأخرى .

وأخيرًا ، وبعد أن فقد الرجل وعيه بالفعل ، مرتين على الأقل خلال ثلاث ساعات كاملة ، حصل الإسرائيليون على رسم شديد الوضوح لذلك الرجل الغامض ، الذى وضعوا كل آمالهم فى إلقاء القبض عليه ، ليقودهم إلى القادة الأصليين

لمجموعات التخريب ، والذين ينتمون حتمًا إلى جهة عسكرية ، أو تم تدريبهم على الأقل بوساطة إحدى الجهات الأمنية المصرية .

أو جهاز المخابرات المصرى على الأرجح .

وفى طول (سيناء) وعرضها ، تم توزيع ذلك الرسم لوجه الضابط الوسيط الغامض .

وشعر الإسرائيليون بالتفاؤل ، وأيقنوا أن خطتهم هذه ستؤتى ثمارها حتمًا .

وبسرعة لم يتوقعها أكثرهم تفاؤلاً ، راحت المعلومات تتوافد من كل صوب .

واستقبل قادة مخابرات (سيناء) هذه المعلومات فى لهفة شديدة ، أملاً فى أن تقودهم إلى هدفهم مباشرة .

ولكن النتيجة كانت مفاجئة للجميع وإلى أقصى حد .

فمن (سانت كاترين) ، جاءت معلومات تؤكّد أن الرسم لتاجر غلال ، يظهر بين الحين والآخر فى المنطقة ليبيع ما لديه ، أو يحصل ثمن صفقة سابقة . وأكد مندوبو (الحسنة) ، أنه رسم متسول شهير ، يستوطن المكان لعدة أيام ، ثم لا يلبث أن يختفى ، دون أن يعلم أحد متى يظهر أو لماذا يختفى !!

وفى (أبو رديس) تعرف الجميع ذلك الرسم باعتباره مهربًا قديمًا يتعامل معه بعض سكان المنطقة فى الخفاء .

وهكذا توالت المعلومات ، لتؤكد أن الرسم لراعى غنم ، أو بحار ،أو دليل صحراوى .. أو .. أو ..

وجنّ جنون الإسرائيليين هذه المرة .

وفى اجتماعهم ، قال أحدهم فى حنق :

- أى شخص هذا ؟ إننى أشعر وكأننا نطارد حرباء بشرية ، يمكنها أن تتخفى أو تتلون بأية صورة تناسب البيئة المحيطة ، حتى تعجز عيناك عن رؤيتها ، لو لم تقترب منها ، حتى يكاد أنفك يلامسها .

بدا قائدهم شديد العصبية هذه المرة ، وهو يقول :

- شىء ما خطأ .. إما أن ذلك البدوى لم يرشدنا إلى الرسم الصحيح لذلك الرجل الغامض ، أو أن الجميع قد أصابهم العمى ، فلم يعد باستطاعتهم تمييز رسم مباشر بسيط .

انبرى أحد الرجال يقول فى اهتمام :

- المشكلة أن شاهدنا الوحيد لم ير ذلك الرجل إلا فى قلب الليل . صحيح أن القمر كان يضىء المكان كله ، ولكن المسافة كانت بعيدة . والرجل كان فى أسوأ حالاته ، وهو يصفَ لنا ملامح الرجل . وهذا يعنى أن احتمالات الخطأ كلها واردة .

كان رأيه هذا منطقيًا للغاية ، حتى إنهم لاذوا بالصمت طويلاً ، وراحوا يتبادلون نظرات متوترة قلقة ، قبل أن يقول قائدهم بلهجة فقدت الكثير من حزمها وحسمها .

- يبدو أنه لا مفر يا رجال .

والتقط نفسًا عميقًا ، فى محاولة للتغلب على ذلك البركان فى أعماقه ، قبل أن يضيف :

- سنعيد الاستجواب مرة أخرى .

كانت خطتهم هذه المرة تعتمد على عكس ما فعلوه فى المرتين السابقتين تمامًا ، فقد قرروا إعادة استجواب شاهدهم الأول مع كل من يمكن استجوابه من الآخرين ، بعد أن يستردوا عافيتهم ، وينعموا بتفكير صاف دقيق ، عسى أن يمنحهم هذا معلومات صحيحة فى تلك المرة .

وشعر المعتقلون بالدهشة ، مع تلك المعاملة الحسنة ، والعلاج الطبى الجيد ، والزنازين النظيفة ، والطعام الجيّد ، حتى إن بعضهم تصوَّر أن ما يحدث مجرّد مقدمة لإعدامهم ، وأن هذه هى وجباتهم الأخيرة .

ولكنهم سرعان ما فهموا الأمر واستوعبوه بسرعة ، عندما بدأت مرحلة الاستجواب الأنيقة .

وعلى الرغم من هذا ، وبعد أربعين ساعة من المهادنة والاستجوابات الدقيقة ، لم يحصل الإسرائيليون على أكثر مما حصلوا عليه فى المرة السابقة .

نفس الملامح ، لنفس الوسيط الغامض .

ودون أدنى تغيير .

ووسط حالة الإحباط العنيفة ، التى أصابت الإسرائيليين فى

تلك الأيام ، وبينما يعيدون النظر فى كل مـا حـدث ، وكـل ما جمعوه من معلومات ، هوت على وجوههم صفعة جديدة .

محطة الإرسال اللاسلكية الجديدة ، بالقرب من (العريش) تم نسف قواعدها ، وبرجها الرئيسى ، بوساطة مجموعة تخريبية جديدة .

ومرة أخرى ، جن جنون الإسرائيليين ، وتصبّب حجم غضبهم كألف ألف بركان .

وراحوا يعتقلون ، ويستجوبون ، ويعذبون .

ولم تختلف النتائج كثيرًا .

كل المعتقلين صمتوا ، وأنكروا ، وتحمّلوا ، حتى انهار أحدهم وألقى ما لديه .. و ..

وحصل الإسرائيليون على الأوصاف ذاتها .

والمعلومات نفسها .

وأغلقت الدائرة من جديد ، ولم تحو سوى نفس الصورة .

صورة الوسيط الغامض .. همزة الوصل بين مجموعات التخريب وقادتها السريين .

ولكن الصورة أضيف إليها شىء واحد ، فى هذه المرة .

شارب كث يملأ ما تحت أنف الرجل ، ويتدلى عند طرفى شفتيه حتى يتجاوز الشفتين إلى ما قرب ذقنه .

وبات من الواضح أن الحرباء قد بدأت تتلون مرة أخرى . لتختفى وسط البيئة ، وتعجز الأعين غير الفاحصة عن تمييزها .

ولم يعد هناك من همٍّ بالنسبة لقادة المخابرات الإسرائيلية ، فى قلب (سيناء) طوال أكثر من عام كامل ، سوى العثور على الوسيط الغامض ، الذى سيقودهم حتمًا إلى قادة مجموعات التخريب ، التى مازالت تواصل عملياتها الفدائية الناجحة القوية ، فى طول (سيناء) وعرضها .

وسقطت أبراج اتصالات ، وخزانات مياه ، وبالونات مراقبة ، وانفجرت مخازن ذخيرة ، وأشرطة سكك حديدية . واشتعلت النيران فى أطنان من الوقود ، ومئات الخيام والأغطية والمواد التموينية المتجهة إلى المعسكرات الإسرائيلية .

ثم فجأة وفى منتصف عام ١٩٧٣م توقفت فجأة كل عمليات التفجير والتخريب ، وساد فى (سيناء) هدوء عجيب أدهش رجال المخابرات الإسرائيلية فى البداية ، ثم لم يلبث أن أثار قلقهم وحذرهم لبعض الوقت ، قبل أن يوحى إليهم الأمر بأن العمليات قد توقفت من غير رجعة بعد أن انتشر فى (سيناء) كلها خبر يؤكد أن الوسيط الغامض قد اختفى فجأة ولم يعد له أدنى أثر ، منذ فترة طويلة .

وتنفس الإسرائيليون الصعداء ، عندما مر شهران كاملان ، دون أن تقع عملية واحدة ، وساورهم شعور بأن كل شىء صار على ما يرام ، وأن الأزمة قد انفرجت ، وانكشفت بعد أن بلغت ذروتها .

وفجأة وفى الخامس من أكتوبر عام ١٩٧٣م ، عادت عمليات التخريب والتفجير بغتة وبكثافة ليس لها مثيل ، فتم نسف محطة الاتصالات الأولى وخطوط الإمداد والتموين وعدد من خزانات المياه ، وكل التقاطعات الرئيسية لخطوط السكك الحديدية العسكرية .

وقبل أن يدرك الإسرائيليون ما يعنيه هذا كانت الطائرات المصرية تدك حصونهم وثكناتهم ومطاراتهم ، بعد أن عبرت كلها قناة السويس ، من الغرب إلى الشرق فى لحظة واحدة بالضبط ، وكان الجنود المصريون البواسل يعبرون القناة ويقتحمون خط (بارليف المنيع) ويسحقونه على رءوس قوات الجيش الإسرائيلى الذى أشاع فى كل وقت ومكان وصدق أنه جيش أسطورى لا يقهر .

واضطرب رجال المخابرات الإسرائيلية ، مع تلك الضربات العنيفة ، فى الداخل والخارج ، واتسمت تحركاتهم بالتخبط والارتباك ، الذى أصاب القيادة الإسرائيلية ، مع تلك الضربة العسكرية المصرية الرائعة ، التى أصابت جيشهم وثقتهم وكرامتهم فى مقتل ، وحاولوا حصر خسائرهم وأسراهم ، خاصة بعد أن انهار خطهم الدفاعى الأسطورى (خط بارليف) ، الذى أعلنوا للعالم أجمع من قبل ، أنه قادر على الصمود حتى أمام القنابل الذرية نفسها .

وفى الوقت الذى انهمك فيه الإسرائيليون فى حصر الخسائر والبكاء أمام القيادة الأمريكية فى محاولة لتعويض ما فقدوه من عتاد وسلاح ، كان بدوى أسمر ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، بيضاوى الوجه ، أسود الشعر ، مع صلع خفيف فى مقدمة الرأس ، يلتقى بأحد قادة كتائب الصاعقة فى قلب (سيناء) ويتبادل معه عبارة متفقًا عليها لم يكد قائد الصاعقة يسمعها ، حتى صافحه فى حرارة ، وهنأه على سلامته ، ثم قاده بنفسه إلى سيارة من طراز (جيب) انطلقت به على الفور إلى أحد المعابر ، لتعود به إلى الجانب الغربى من القناة ، حيث انتظرته سيارة أخرى حملته على الفور إلى (القاهرة) .

وبالتحديد فى مبنى المخابرات العامة المصرية ، فى حدائق القبة .

وهناك تم استقبال الرجل استقبال الأبطال والتقى به مدير الجهاز على الفور واجتمع به لثلاث ساعات كاملة استمع خلالها إلى كل ما لديه ، قبل أن ترتسم على وجهه ابتسامة واسعة ، ويصافحه قائلاً :

ـ حمدًا للّٰه على سلامتك يا (ك) . هيّا يا بطل . عُد إلى منزلك ، واستمتع بنوم عميق ، وسننتظرك غدًا ، لتقدم لنا آخر تقاريرك .

وعندما غادر ضابط المخابرات (ك) المبنى فى ذلك اليوم .

وعلى الرغم من كل ما يشعر به من تعب وإرهاق كانت تملأ وجهه ابتسامة كبيرة ، وهو يسترجع كل ما فعله الإسرائيليون ، عندما يعلمون أن من كانوا يبحثون عنهم .. (الكابتن) ، (منصور) ، و(زياد)، و(فؤاد) وحتى الوسيط الغامض ، لم يكونوا فى الواقع سوى رجل واحد .

(ك) .

الرجل الذى قاد بنفسه تلك العمليات الفدائية ، فى قلب (سيناء) المحتلة ، بتعليمات وتوجيه من أفضل أجهزة المخابرات فى المنطقة .

رجل المخابرات العامة المصرية .. الغامض !!

★ ★ ★



أصغر جاسوس فى العالم ..

أدرك أهالى قرية (ميت أبو الكوم) مسقط رأس الرئيس (أنور السادات) ، عندما استيقظوا من نومهم ، فى ذلك اليوم فى منتصف شهر سبتمبر ، عام ١٩٧٣م أن ضيفًا مهمًا سيحل على قريتهم ، التى اعتادت استقبال العديد من كبار الساسة ورجال المجتمع ، فى تلك الفترة من حكم الرئيس (السادات) فقد وصل الرئيس بنفسه فى الصباح الباكر ، مع عدد من معاونيه وحراسه ، وبدأ إعداد منزله لاستقبال ضيفه أو ضيوفه ، وبدا الرئيس شديد الاهتمام بكل التفاصيل كالمعتاد ، وغليونه الشهير لا يفارق أسنانه ، وهو يلقى تعليماته هنا وهناك ، ويشرف بنفسه على مراجعة مراسم الاستقبال والترحيب بالضيف القادم .

وتسلل الفضول كالمعتاد إلى نفوس أهالى القرية وراح بعضهم يستنتج أو يخمن شخصية الضيف القادم ، ولكن أحدًا لم يمكنه الجزم بهويته ، مما أشعل فضولهم أكثر وأكثر ، فوقفوا يراقبون الطريق ، ويلتفون حول منزل الرئيس ، فى محاولة لإشباع الفضول ، ورؤية ذلك الضيف المهم .

ومع منتصف النهار ، وصل الضيف داخل سيارة سوداء ، تحمل أرقام رياسة الجمهورية ، ولم تكد السيارة تتوقف ، أمام

منزل الرئيس ، حتى هبط منها بدوى أسمر ، بصحبة زوجته وابنه الذى لا يتجاوز عمره الثانية عشرة ، وتقدم منهم الرئيس السادات بابتسامة واسعة وهو يقول فى حماس وترحاب :

- مرحبًا بكم فى (ميت أبو الكوم) .. مرحبًا يا بطل ..

يسعدنى أن أستقبلك بنفسى ، بعد الخدمات الجليلة ، التى قدمتها لنا .

اتجهت الأنظار كلها إلى البدوى وزوجته ، ولكن العيون لم تلبث أن اتسعت فى دهشة ، عندما تجاوزهما الرئيس ، وهو يمد يده لمصافحة البطل ، الذى لم يكن سوى ابنهما (صالح) . أصغر جاسوس فى العالم .

* * *

كانت الهزيمة مريرة ، فى يونيو ١٩٦٧م وأكثر ما فيها مرارة هو أن المخابرات الإسرائيلية أصبحت هى المهيمنة على الموقف ، ولديها كل التفاصيل العسكرية ، والمعلومات الكاملة عن الجيش المصرى وتسليحه وتوزيع وحداته ، وخاصة بعد أن صارت على بعد أمتار قليلة من صفوفه الأولى عبر قناة السويس .

وهنا كان من الضرورى أن يتم تطوير نظم وأداء المخابرات المصرية ، ومحاولة زرع تواجدات جديدة لها ، فى قلب (سيناء) ، خلف خطوط العدو ، كنواة لاستعادة المكانة المفقودة ، وتقوية درع الأمة الخفية .

وفى هذا الإطار ، ظهر تاجر مخدرات جديد ، فى قلب (سيناء) .

وكان هذا التاجر بدويًا ، يحفظ الدروب والمسالك الصحراوية فى (سيناء) ، وينفق على عمله بسخاء ، ويقيم علاقات قوية مع البدو ، وبعض العاملين فى المنطقة .

ومن خلال عمله وتجارته ، التقى ذلك البدوى (محمد على كيلانى) بأسرة صغيرة ، تتكون من الشيخ (حمدان) ، وزوجته (مبروكة علم الدين) ، وابنهما (صالح) ، الذى يعمل كراع للغنم ، ويربى بعض الدجاج ، حول الكوخ الصغير ، الذى يقيم فيه مع والديه .

وعلى الرغم من هيئة الصبى الضعيف البنية ، الكثيف الشعر ، وعينيه اللتين توحيان بالغباء والبلادة ، أدرك (محمد كيلانى) أنه أمام غلام عبقرى ، يتمتع بذكاء فطرى كبير ، وقدرة مدهشة على الملاحظة والمراقبة ، وذاكرة فوتوجرافية عجيبة .

وذات يوم ، وبعد فترة من التعارف والمراقبة ، عرض (كيلانى) على الشيخ (حمدان) استضافته فى منزله لبضعة أيام ؛ لأنه ينتظر قدوم شحنة كبيرة ، ستدر ربحًا خرافيًا ، وقدَّم له فى مقابل هذا مبلغًا ضخمًا من المال ، سال له لعاب الرجل ، فوافق على الفور ، ودون تردد .

وطوال الأيام التالية ، كان (كيلانى) يلتقى بالصبى (صالح) ، ويتحدث معه ، ويناقشه فى بعض الأمور العامة ، إلى أن واجهه ذات يوم قائلاً :

- هل تعرف من أنا بالضبط يا (صالح) ؟

رمقه الصبى بعينيه البليدتين قليلاً ، ثم أجاب فى هدوء :

- أنت تقول : إنك بدوى تنتظر شحنة مخدرات ، ولكننى أعتقد أنك تخفى شيئًا آخر .

ابتسم (كيلانى) ، وهو يقول :

- هذا صحيح تمامًا يا (صالح) .

ثم مال نحوه ، وتطلع إلى عينيه مباشرة ، قبل أن يستطرد فى حزم :

- أنا ضابط مخابرات مصرى .

ولم يهتز للصبى جفن ، وهو يستمع إلى هذا الاعتراف البالغ الخطورة ، وكأنه كان يتوقع كل حرف سمعه ، بل أجاب فى هدوء مدهش :

- وما الذى تريده منى بالضبط ؟

وهكذا مباشرة ، بدأ ضابط المخابرات (محمد على كيلانى) ، فى تلقين (صالح) أساليب وفنون التجسس وتدريبه على كل ما يمكن أن يحتاج إليه فى عمله .

لم يستغرق هذا وقتًا طويلاً .

لقد استوعب الصبى كل هذا فى وقت قصير للغاية ، مما أكد صحة نظرة (كيلانى) له ، وبراعته فى اختياره بالذات لهذه المهمة .

ولكن بقيت نقطة شديدة الأهمية والخطورة .. كيف يمكن أن يجوّل (صالح) بين الإسرائيليين ، ووسط مواقعهم ، دون أن يثير الشكوك ، أو تحوم حوله الشبهات .

ووجد (كيلانى) الحل .

لقد تم تزويد (صالح) بعدد من الدجاج البياض ، وأصبح يتبادل البيض مع الجنود الإسرائيليين ، فيحصل على علبة من اللحم المحفوظ أو المربى ، مقابل كل ثلاث بيضات .

وسرعان ما شغف الإسرائيليون بهذا البيض الطازج ، وراقت لهم شخصية (صالح) المهذبة المرحة ، وأصبحوا ينتظرون قدومه ، وينادونه فور ظهوره فى الأفق ، وهم يسألونه عن البيض الذى يحمله ، والذى لم يزد يومًا على ست بيضات ، وهى الحد الأقصى الذى حدّده الصبى لنفسه ، مقابل دخول موقع من المواقع الإسرائيلية ، حتى لا يفقد رصيده بسرعة .

وبفضل كرمه ومرحه وبساطته ، لم يعد (صالح) يحتاج إلى البيض الطازج ، ليدخل المواقع الإسرائيلية ، ويجول فيها كيفما وأينما يحلو له .

لقد ارتبط بعدد من الصداقات مع الجنود الإسرائيليين ، وصار يقضى معهم الكثير من وقته ، وهم لا يشكون مطلقًا فى أمره ، باعتباره مجرّد صبى بليد وبسيط ، فى حين كانت عيناه وأذناه تعمل طوال الوقت ، فى مهارة مدهشة ، وحنكة يحسده عليها الكبار ، ويبلّغ ما لديه ، أولاً فأولاً للمخابرات المصرية عن طريق وسطاء مختلفين .

واستقبل رجال المخابرات المصرية هذا السيل من المعلومات فى إعجاب وانبهار ، فعلى الرغم من أنه كان أميًّا ، لا يقرأ ولا يكتب ، إلا أنه نقل للمخابرات معلومات بالغة الأهمية والخطورة ، عن الثغرات فى حقول الألغام ، حول عدد من مواقع المدفعية الثقيلة ، وحدد موضع المولدات الكهربائية ، وخزانات النابالم وغرف الضباط ، وعدد حراس كل موقع ، فى الليل والنهار ونطاق الأسلاك الشائكة ..

وكل هذا لا يقارن ، أمام خدمات من نوع آخر ، كان يجيد تقديمها ، ويتفوق فيها على نحو مدهش مثير للإعجاب .

إنها خدماته المباشرة ، للفدائيين الذين يتسللون خلف خطوط العدو ، ويقضون فى مخابئهم ما يقرب من ستة أشهر فى بعض الأحيان .

كان يزودهم بالطعام والشراب ، ويزيل كل ما يتركونه خلفهم ، حتى يستحيل اقتفاء أثرهم ، ويقودهم عبر دروب ومسالك خاصة ، تربك الإسرائيليين ، وتثير حيرتهم وغضبهم .

وعندما عاد فريق من هؤلاء الفدائيين مرة إلى (القاهرة) ، واستقبلهم الرئيس (جمال عبد الناصر) بنفسه كعادته ، وهو يسألهم عما فعلوه فى أرض العدو ، أجابه قائدهم فى إعجاب :

ـ الواقع أن المهمة لم تكن سهلة أو يسيرة يا سيدى الرئيس ، ولكننا تلقينا مساعدة رائعة ، من أفضل رجالنا فى (سيناء) .

ابتسم الرئيس (جمال) ، وهو يقول :

ـ هل تقصد الصبى (صالح) ؟

أجابه الجميع فى آن واحد :

ـ نعم .. نقصد ذلك الصبى الرائع .

وقال قائدهم فى حماس :

ـ هذا الصبى من أشجع وأفضل من رأيت فى حياتى ، وأكثرهم حنكة وجرأة وذكاء ، على الرغم من سنوات عمره الصغيرة ، والخدمات التى يقدمها لا تقدر بثمن ، وهو لم يطلب مقابلاً لها قط .. فيما عدا ..

صمت الضابط لحظات ، فسأله الرئيس (جمال) فى اهتمام :

ـ فيما عدا ماذا ؟

ابتسم الضابط ، وهو يقول :

ـ فيما عدا رغبته فى رؤيتك فى (القاهرة) يا سيادة الرئيس .

ران على الجميع صمت تام ، وهم يتطلعون إلى الرئيس (جمال عبد الناصر) فى انتظار جوابه ، وشاركهم الرئيس هذا الصمت لحظات ، وهو يفكر فى عمق ، ثم قال فى هدوء :

ـ سنذهب نحن إليه إن شاء الله .. عندما تتحرر (سيناء) .

ونقل الضابط (كيلانى) هذا القول للصبى ، الذى ابتهج كثيرًا لقول الرئيس الذى يشير إلى أن العمل يسير على قدم وساق ؛ لاستعادة (سيناء) ، واشتعل حماسه أكثر وأكثر ، مع التدريبات المستمرة ، التى يتلقاها من الضابط (كيلانى) ، والتى أهلته ليميز كل أنواع الأسلحة والذخائر ، وتحديد أنواعها وأعدادها بمنتهى الدقة .

وارتبط (صالح) بصداقة وثيقة مع ضابط إسرائيلى من أصل يمنى ، يدعى (جعفر درويش) ، كان قائدًا للنقطة ١٥٨ ، المعروفة باسم (موقع الجباسات) ، وكان (جعفر) سخيًا معه ، يميل إلى التحدث إليه باللغة العربية ، التى يفتقدها منذ هجرته إلى (إسرائيل) ، فى حين كان (صالح) شديد التودد معه ؛ لينقل كل ما يمكنه من معلومات ، حول (موقع الجباسات) والمواقع المحيطة به ، والمطلة عليه .

ولم تكن رحلة (صالح) مفروشة بالورود دائمًا ، فكثيرًا ما تعرض لخشونة ومضايقات بعض الجنود الإسرائيليين ، وكثيرًا ما وصلت هذه المضايقات إلى حد الشتائم والضرب والصفعات .

ولكن الصبى كان يحتمل برجولة مدهشة ، وينقل ضيقه وحزنه إلى الضابط (كيلانى) الذى يواصل تشجيعه ، ويبث فيه روح البطولة والتحدى ، مؤكدًا له أنه بطل عظيم ، وأنه سيلقى التكريم حتمًا فى (مصر) ، التى فعل كل مافعل من أجلها .

ومات الرئيس (جمال عبد الناصر) .

وتفجّر حزن الدنيا كلها فى قلب الصبى ، واغرورقت عيناه بالدموع ، فى واحدة من المرات القلائل ، التى شاهده فيها (كيلانى) يبكى ، أو لعلها المرة الوحيدة ، فربّت على كتفه فى تعاطف ، جعل الصبى يتمتم فى مرارة :

- كنت أحلم برؤيته .

أجابه (كيلانى) فى خفوت ، تلوح فيه نبرة حزن :

- وهو (رحمه الله) لم ينس خدماتك وشجاعتك قط ، ولقد أوصانا بك ، وأوصى بأن تحصل على كل الرعاية والتقدير فى (مصر) .

كان لهذه الكلمات أفضل الأثر فى تخفيف حزن الصبى وآلامه ، فعاد إلى عمله بنفس القوة والحزم والحماس ، وكأنما يثبت لروح الرئيس الراحل أنه أهل لهذا التقدير .

واقتربت ساعة الحسم .

وفى بداية سبتمبر ، عام ١٩٧٣م وقبل شهر واحد من حرب أكتوبر المجيدة ، أسندت المخابرات العامة المصرية إلى (صالح) أهم وأخطر عملية فى حياته كلها .

لقد زوده الضابط (كيلانى) بقطع معدنية صغيرة ، تشبه فى شكلها شرائح المغناطيس العادية ، وطلب منه وضعها فى حجرات قادة المواقع التى يتردد عليها ، وأن يلصق وجهها الممغنط فى الأجزاء الحديدية الخفية ، أسفل الأسرة والموائد ، وأعلى الدواليب المعدنية .

ودرّبه (كيلانى) جيدًا على هذه المهمة ، قبل أن يسأله :

- أنت واثق فى قدرتك على أداء هذا يا (صالح) ؟

أومأ الصبى برأسه إيجابًا ، وقال :

- بالتأكيد يا سيد (كيلانى) .. اطمئن .

قالها فى هدوء وثقة ، وكأنه لا يقدم على عملية بالغة الخطورة ، يكفى كشف أمره فيها لإعدامه فورًا وبلا رحمة .

ولكن (صالح) نفذ المهمة .

نفذها بنجاح منقطع النظير ، وباقتدار يستحق الإعجاب ، وقدم للمخابرات المصرية أكبر وأعظم خدمة ، منذ بدأ عمله معها .

فهذه الشرائح الصغيرة ، لم تكن سوى أجهزة إرسال بالغة الدقة ، استطاعت المخابرات المصرية بوساطتها الاستماع إلى كل ما يدور فى حجرات القيادة ، من أحاديث وأوامر ، قبل وفى أثناء القتال فى الحرب السادس من أكتوبر ، وعرفوا كل تعليمات القتال فى أثناء الحرب ، فور إصدارها ، كما أمكنهم بوساطة

هـذه الأجهـزة ، تحديـد المواقـع وقصفهـا ، أو توجيـه إنـذارات التسليم لها .

ولكن (صالح) لم يحضر اندلاع حرب أكتوبر .

فقبل قيام الحرب بعشرين يومًا ، أصدرت المخـابرات المصرية أوامرها ، بنقل (صالح) ووالديه إلى (القاهرة) ؛ لتجنيبهم ويـلات الحرب ، وانتقام الإسرائيليين ، عند كشف أمر أجهزة الإرسال .

ولم يكن هذا بالعمل السهل .

ولكن المخـابرات المصرية نجحت فـى إنجازه .. ولـم يكـد (صالح) يعبر القناة ليلاً مع والديه حتـى صدرت الأوامر بنقلهم مباشرة إلـى (ميت أبو الكوم) ، حيث يتم استقبال (صـالح) رسميًا ، بوساطة أشهر وأهم رجل فى (مصر) كلها .

الرئيس (محمد أنور السادات) .

شعر الشيخ (حمدان) وزوجته (مبروكـة) بالانبهار ، وهمـا يقفان أمـام الرئيس (السـادات) مباشرة ، وارتجف قلباهمـا فـى شدّة ، وعندما صافحهما الرئيس ، وهو يشير إلى ابنهما ، قائلاً :

ـ ابنكما بطل بحق .. لقد قدّم لنا خدمات جليلة .

انهمرت دموع الأم غير مصدّقة ، وهى تتطلّع إلى ابنها فى فخر وحنان ، فى حين ارتجفت الكلمات على شفتى الشيخ (حمـدان)، وهو يقول :

ـ لقد أدهشنا هذا للغاية يا سيدى الرئيس ، فنحن لم نتصوّر هذا قط .. (صالح) لم يشر حتى إلى ما فعل .

ابتسم الرئيس (السادات) فى إعجاب ، وهو يقول :

ـ هذا جزء من رجولته .. لقد حفظ السر .

ثم داعب رأس (صالح) ، مستطردًا بابتسامة كبيرة :

ـ هل تعلم أننى سعيد للغاية برؤيتك ؟ إنك تبدو كثير الشبه بصورتى فى أيام طفولتى .

ولم يكن (صالح) يصدق نفسه .

إنـه يقف أمام رئيس الجمهوريـة شخصيًا ، ويتلقـى منـه التهنئة والتكريم .

وتناول الصبى ووالداه الطعـام فـى ذلك اليوم ، علـى مائدة الرئيس (أنـور السـادات) ، الـذى اسـتضافهم حتـى غـروب الشمس ، ثم أمر برعايتهم والعناية بهـم ، وتكريمهم بمـا يليق بما قدمه (صالح) لوطنه .

وتم إسناد مهمة رعاية البطل لأقرب الناس إليه ، فى جهاز المخابرات المصرى .

للرائد (محمد كيلانى) .

ومع قيام حرب أكتوبـر ، أدرك (صـالح) أهميـة مـا قدّمـه لوطنه ، وعرف أن صديقه الضابط الإسرائيلى (جعفر درويش) قد وقع فى الأسر ، فطلب مقابلته ، وإرسال بعض الطعام إليه ، مقابل كرمه وسخائه معه فيما مضى .



ونال البطل ما طلب .

ولكنها لم تكن نهاية المطاف .

لقد تعهّدت المخابرات المصرية (صالح حمدان مسلم) برعايتها وعنايتها ، فالتحق بالمراحل التعليمية المختلفة ، من الثانوية العامة إلى الكلية الفنية العسكرية .

ومرّت الأيام والسنون .

ثم كانت المفارقة المدهشة .

لقد التحق (صالح) بالمخابرات المصرية ، وتولى نفس المنصب ، الذى كان يتولاه صديقه وأستاذه الرائد (محمد كيلانى) من قبل .

بل وجلس فى نفس الحجرة ، وخلف نفس المكتب ، مع فارق واحد .

لقد كان يحمل شهادة خبرة لا مثيل لها .

شهادة تقول : إنه كان يومًا جاسوسًا خطيرًا .

بل أصغر جاسوس فى العالم .

* * *

وتبدد الظلام ..

ازدحمت شوارع (القاهرة) ، واكتظت بالمارة والسيارات كالمعتاد ، فى ساعات النهار الأولى ، وعلى الرغم من أن الغالبية العظمى من الناس كانت تتجه إلى أعمالها ، إلا أن الوجوه حملت شيئًا من الإجهاد ، والأعصاب بدت أشبه بالأوتار المشدودة ، وتزايدت الاحتكاكات ، وازدادت حدة وعنفًا ، بسبب الارتفاع المفاجئ فى درجات الحرارة ، فى تلك الفترة من أوائل مايو ١٩٧٣م ، والذى فاق المعدلات الطبيعية لبدايات الصيف التقليدية ، وخاصة وهى تشترك مع حالة الإحباط العامة ، التى ملأت نفوس الشعب ، بعد طول انتظاره للمعركة المرتقبة ، التى تحدث عنها المسئولون طويلاً ، فى السنوات السابقة ووعدوا بأنها ستكون السبيل لتحرير (سيناء) المحتلة ، واسترداد الكرامة الجريحة ، ثم لم يلبثوا أن لاذوا بالصمت ، وتجاهلوا الإشارة إلى تلك الحرب ، منذ بدايات العام الحالى ، وكأنما أدركوا صعوبة الانتصار على الإسرائيليين ، أو استحالة هذا ، كما تؤكد الدعايات الصهيونية ، وقرروا نسيان الأمر برمته ، ودفع الشعب كله إلى تناسيه ، والانشغال بحل مشكلاته الداخلية ..

هذا لأن أحدًا من أفراد الشعب العاديين ، لم يكن يدرك شيئًا مما يدور خلف الكواليس ، أو يعلم بأمر خطة الخداع والتمويه ، التى تشترك فيها كل أجهزة الدولة ، منذ عدة أشهر ، لإقناع

العدو بوصولنا إلى حالة اليأس ، وإعماء عيونه عما يدور من استعدادات تمهيدًا لحرب التحرير ، التى تقترب وتقترب ، فى سرية تامة وتكتم شديد ..

وهناك ، فى ذلك المبنى الصامت دائمًا الغامض أبدًا ، فى حى حدائق القبة ، كان هناك فريق من أفضل رجال المخابرات العامة المصرية ، لم يذق أحدهم طعم النوم بعد ، وهم يجتمعون منذ مساء اليوم السابق ، لدراسة خطة الخداع ، ومراجعة كل ما تم تنفيذه منها ، والإعداد لخطواتها التالية ، التى لن تنتهى - بطبيعة الحال - إلا باندلاع الحرب نفسها ..

وفى إرهاق تام ، فرك أحد الرجال عينيه ، وهو يقول :

- أعتقد أننا ناقشنا كل ما يمكن مناقشته ، وراجعنا كل التقارير والنتائج ، ويمكننا تأجيل الباقى إلى المساء ، فأنا أحتاج إلى النوم بشدة ، وأظنكم تشاركوننى الشعور نفسه .

تثاءب آخر ، قائلاً :

- بالتأكيد .. إننا نشعر بالتعب حتى إنه لم يعد باستطاعتنا التمييز بين ضوء الحجرة والضوء الطبيعى .. إننى لم أنتبه سوى الآن فقط ، إلى أن الشمس قد أشرقت منذ زمن .

اشترك الجميع فى ضحكة مرحة ، وهم ينهضون لالتقاط ستراتهم ، استعدادًا للعودة إلى منازلهم ، و ..

وفجأة ، هتف أحدهم فى حماس :

- آه .. مشكلة الضوء .. كيف لم ننتبه إلى هذا ؟

التفتوا إليه جميعًا فى دهشة ، وسأله زميله فى اهتمام :

- أية مشكلة ؟!

نفض رجل المخابرات كل الإرهاق عن رأسه ، وهو يجيب فى حماس عجيب :

- عندما تندلع الحرب ، ستصاحبها فى المعتاد فترة إظلام إجبارية .

قال زميل آخر ، فى شىء من الحذر :

- هذا أمر طبيعى .

واصل رجل المخابرات بنفس الحماس :

- ومن الطبيعى أيضًا أن يرتفع استهلاك المصابيح اليدوية ، ويتزايد الاحتياج إليها ، ولو تم استيراد الكميات الكافية منها على نحو رسمى ، سترصد أجهزة مخابرات العدو هذا ، وسيدرك رجالها ما يعنيه بالطبع .

تبادلوا نظرة قلقة ، وغمغم أحدهم ، وهم يعاودون الجلوس حول مائدة الاجتماعات :

- إنها مشكلة مهمة بالفعل .

ولو أن شخصًا فى خارج هذا المجال يتابع ما حدث فى اللحظات التالية ، لاستولت عليه دهشة عارمة ، وهو يتطلع إلى وجوه رجال المخابرات ، ولتساءل فى حيرة كيف أمكنهم أن

يطرحوا كل تعبهم وإرهاقهم جانبًا فى لحظة واحدة ، وأن يستعيدوا روح الحماس والنشاط ، وهم يناقشون هذه المشكلة الجديدة ، ويطرحونها على مائدة البحث بمنتهى الجدية لثلاث ساعات أخرى .

لم يكن من الممكن أن يتركوا ثغرة واحدة ، فى الخطة التى غاصوا فيها حتى النخاع لشهور وشهور ، مهما بدت بسيطة أو جانبية ، فعدم وجود الكم الكافى من المصابيح اليدوية ، فى أثناء فترة الحرب كفيل بإثارة الأعصاب ورفع معدلات التوتر ، مع الإظلام الإجبارى ، واستيرادها أيضًا كفيل بتعريض خطة الخداع كلها للخطر ، وبإنذار العدو بما يجرى الاستعداد له منذ زمن ..

وهذا يضع الجميع أمام حل واحد لا غير ..

من الضرورى ، بل والمحتم ، أن تتواجد كمية كافية من المصابيح اليدوية فى الأسواق ، بشكل غير رسمى ، وعلى نحو لا يمكن أن يثير شكوك العدو أو قلقه ..

وفى نهاية الساعات الثلاث ، كان رأى المجموعة قد استقر على فكرة واحدة ..

الاستعانة بمهرِّب محترف لإحضار هذه المصابيح ..

ولكن حتى هذه الفكرة كانت تنطوى على مخاطر كبيرة ، إذ كيف تضمن أن هذا المهرب لن يشك فى الأمر ، وأن تزايد الكميات المعروضة من المصابيح اليدوية فى الأسواق ، على

نحو مباغت ، لن يتم رصده بوساطة عيون العدو وجواسيسه فى داخل البلاد ، وإثارة شكوكه وتساؤلاته أيضًا ؟!

وعلى الرغم من أن الرجال لم يتناولوا طعامًا منذ عشاء الأمس ، فقط استغرقهم الأمر لساعة أخرى ، دون أن يشعروا بهذا ، وهم يدرسون هذه النقطة الأخيرة ، وفى نهاية الساعة كانوا قد وضعوا برنامج العمل ، وأسندوا المهمة كلها لزميلهم (حسام) ، الذى غادر المبنى مباشرة متجهًا إلى وزارة الداخلية ، حيث التقى بعدد من رجال الشرطة ، المسئولين عن عمليات التهريب ، وأقنعهم بأنه يجرى دراسة حول المهربين ، ومدى خطورتهم ، فى التأثير فى الجبهة الداخلية ، ثم أنهى الزيارة ، وهو يحمل فى جيبه قائمة بأسماء عدد من كبار المهربين ، الذين لم يتم ضبطهم متلبسين قط ، وقضى ساعة أخرى فى منزله لدراستها ، وعندما استسلم أخيرًا لنوم عميق ، كانت أصابعه تقبض على القائمة ، وقد وضع علامة صغيرة أمام أحد الأسماء المدونة بها ..

اسم (مرزوق المحلاوى) ..

و(مرزوق) هذا مهرب قديم ، ورث المهنة - إن صح تسميتها بهذا - من والده وجده ، اللذين عملا بها منذ الحرب العالمية الثانية ، وحفظ مسالك ودروب الصحراء ، والثغرات فى الحدود المصرية الليبية ، وحاول استغلال فترة ما بعد النكسة

لتهريب السلع والبضائع ، وتعامل مع هذا الأمر ببراعة وحذق ، فلم يتم القبض عليه متلبسًا قط ، حتى تلك اللحظة ، بسبب حرصه الشديد ، وثقته التى لا يمنحها إلا لأقرب أقربائه ، وأخلص رجاله القلائل ..

ولأن (مرزوق) كان يثق تمامًا بأنه الملك غير المتوج لعمليات التهريب فى المنطقة ، فقد أدهشه ، وأحنقه فى الوقت ذاته ، أن يتحدث الناس فجأة عن (عبد الفتاح) ، المهرب الشاب ، الذى أثبت تفوقًا وبراعة ، فى خلال فترة قصيرة ، كاد يسرق السوق واللقب فيها من (مرزوق) ، بعد أن اشتهر بالجرأة والذكاء ورخص بضاعته وجودتها ..

وفى البداية حاول (مرزوق) تجاهل وجود (عبد الفتاح) ، وأغلق أذنيه أمام ما يتردد عنه من أحاديث متصورًا أن ذلك القادم الجديد لن يستمر طويلاً ، وأنه سيقع إن عاجلاً أو آجلاً فى قبضة الشرطة ..

ولكن هذا لم يحدث ..

لقد واصل (عبد الفتاح) عملياته وانتصاراته ، وتجاهله أيضًا للمهرب القديم (مرزوق) ، فلم يحاول الالتقاء به ، أو حتى إجراء أية اتصالات معه ، على الرغم من أن هذا الأخير كان يتوقع منه محاولة للتقرب ، وتقديم فروض الطاعة والولاء على الأقل ..

ومع هذا التجاهل المستمر والمستفز ، قرر (مرزوق) أن يكسر الحاجز بنفسه ، وأن يسعى هو للقاء غريمه .. ولأن كرامته لا تسمح له بالذهاب إلى (عبد الفتاح) ، فقد أرسل من يخبر هذا الأخير أن المهرب الكبير يرغب فى مقابلته ..

وجاء رد فعل الشاب مرضيًا ومريحًا للجميع ..

لقد استقبل رسول (مرزوق) بحفاوة بالغة ، وأكرم وفادته ، وأثنى ثناء مستفيضًا على سيده ، وأعلن أنه يعتبره أستاذه ومعلمه فى هذا المجال ، ثم أرسل معه هدية قيمة ، ووعد بزيارة (مرزوق) فى المساء التالى مباشرة ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يرد (مرزوق) الجميل ، ويستقبل (عبد الفتاح) بالحفاوة والترحاب والشاب يبالغ فى إظهار احترامه وتقديره له طوال الوقت ، ويؤكد أن تأخره عن زيارته لم يكن غرورًا أو تكبرًا وإنما كان رهبة من الأستاذ الكبير فى عالم التهريب والمناورة ..

وكرد فعل نفسى طبيعى ، تمت دراسته بدقة مدهشة ، فى قسم خاص بجهاز المخابرات العامة ، قرب (مرزوق) الشاب إليه ، وسعد بقربه ، وقضى ليلته كلها يتحدث معه فى اهتمام وحماس ، ولم تشرق الشمس ، حتى كان يدرك جيدًا أن الشاب حاذق للغاية ، وأنه أكثر دراية منه بدروب ومسالك الصحراء ، وخفايا خلجان الشاطئ ، وأنه من الممكن جدًا أن يفيده بخبرته ..

وفى لقائهما الثانى مباشرة ، طلب (مرزوق) من (عبد الفتاح) أن يساعده فى عملية تهريب لقطع غيار السيارات ..

وكانت عملية ناجحة للغاية ..

بل أنجح صفقة قام بها (مرزوق) فى حياته كلها ..

وازداد تعلقه بالشاب ، وقويت أواصر الصداقة بينهما ، حتى إن (مرزوق) عرض عليه ، بعد شهر واحد ، وبالتحديد فى أوائل يوليو ١٩٧٣ م ، أن يشاركه إحدى صفقاته ، واقترح أن يقوما بتهريب شحنة من الخمور السوفيتية ، إلا أن (عبد الفتاح) لم يقتنع بهذا ، ومال عليه قائلاً :

ـ دعك من هذه الصفقات المرهقة .. أحجام كبيرة وأرباح صغيرة .. هذا لا يحقق التوازن المنشود .

فسأله (مرزوق) فى اهتمام :

ـ ما الذى تقترحه إذن ؟

تراجع (عبد الفتاح) وهو يلوح بيده ، ويقول فى حسم :

المصابيح اليدوية .

ارتفع حاجبا (مرزوق) فى دهشة بالغة . وهو يقول :

المصابيح اليدوية ؟! وهل يمكن أن يكون هذا مربحًا ؟!

اعتدل الشاب ، وهو يجيب فى حماس :

ـ بالطبع .. إنها خفيفة الوزن ، صغيرة الحجم ، وأسعارها معقولة ، ثم إن الكل يشترى المصابيح اليدوية .. الكبير والصغير ..

سنبيع الآلاف منها ، ونربح أكثر بكثير من بيع العشرات من زجاجات الخمر السوفيتية الرديئة الصنع .

لم يقتنع (مرزوق) بالفكرة فى سهولة ، ولكن حماس (عبد الفتاح) وذكاءه فى طرح فكرته ، لم يلبثا أن وجدا صدى لدى المهرب القديم ، فأعلن موافقته على المضى فى العملية ، وإن أشار إلى أن المصابيح اليدوية ستحتاج إلى مكان ضخم لتخزينها . فأعلن الشاب أنها ليست مشكلة كبيرة ، وأنه سيتولى هذا الأمر بنفسه ..

وبالفعل ، لم يمض أسبوع واحد ، حتى كانا قد استأجرا ثلاثة مخازن واحد فى الصحراء الغربية والثانى فى بدروم فسيح فى (الإسكندرية) والثالث عبارة عن جراج فى (العباسية) فى (القاهرة) ..

وفى منتصف أغسطس ١٩٧٣م ، وصلت الصفقة ..

وبسرعة نقلها (مرزوق) و (عبد الفتاح) ورجالهما إلى المخازن الثلاثة ، وفرك الأول كفيه فى سعادة ولهفة ، وهو يقول :

ـ يبدو أنها عملية ناجحة للغاية يا (عبد الفتاح) .. سأجرى اتصالاتى فى الصباح الباكر مع التجار ، و ...

قاطعه (عبد الفتاح) فى حزم :

ـ لا .. ليس بهذه السرعة .

سأله فى دهشة :

ـ ولم لا ؟! المصابيح وصلت بالفعل ، وتصريفها بأقصى سرعة ينهى العملية ، ويعيد إلينا نقودنا وأرباحنا .

هز (عبد الفتاح) رأسه فى هدوء وحكمة ، وهو يقول :

ـ خطأ .. مباحث التموين بدأت حملة نشطة هذا الأسبوع ، لمراجعة كل البضائع المستوردة فى السوق ، وتحديد مصادرها الرسمية ، وفى مثل هذه الظروف ينخفض سعر البضائع المهربة كثيرًا ، لأن أحدًا لايرغب فى المخاطرة .. انتظر حتى تنتهى الحملة ، ويمكننا بيع بضاعتنا بثمن جيد .. الأرباح الإضافية تستحق الانتظار .

ومرة أخرى بدا الأمر منطقيًا ، فترك (مرزوق) المصابيح اليدوية فى المخازن الثلاثة ، وانتظر حتى تنتهى حملة مباحث التموين ..

ولكن الحملة لم تنته بسرعة ..

لقد استمرت حتى أوائل سبتمبر ، على نحو جعل أعصابه تتوتر أكثر وأكثر ، وهو يقول لشريكه (عبد الفتاح) فى حدة:

ـ إلى متى ننتظر ؟! لقد سئمت هذا ، وأموالى معطلة فى هذه الصفقة .

أدهشته ابتسامة الشاب الهادئة الواثقة ، وهو يجيب :

ـ لا تقلق .. أعتقد أن الوقت قد حان لإتمام العملية .

وكالمعتاد ، اتخذ (مرزوق) كل إجراءات الحيطة والحذر ، وهو يستعد لتصريف بضاعته المهربة ، و ..

وحدث فجأة ما لم يكن فى حسبانه ..

لقد فوجئ بالشرطة تطبق عليه ، وعلى مخازنه الثلاثة ، فجر اليوم التالى مباشرة ، والتقى فى مديرية الأمن بشريكه (عبد الفتاح) ، الذى استقبله فى توتر شديد ، وهو يقول فى عصبية :

ـ كيف انكشف أمرنا يا (مرزوق) ؟! إننى أعمل وحدى منذ زمن ، ولم ينكشف أمرى قط .. لابد أن أحد رجالك قد وشى بنا .

كاد (مرزوق) يضرب رأسه بالجدار ، وهو يتساءل عن كيفية وقوعه فى قبضة الشرطة ، وعن ذلك الخائن ، الذى كشف أمر الصفقة والمخازن الثلاثة ، ولكنه لم يعثر على جواب قط ، طوال فترة محاكمته هو وشريكه ، ولا بعد أن أصدرت النيابة أمرها بمصادرة المصابيح اليدوية المضبوطة ، طبقًا للقانون ، وطرحها للبيع فى المجمعات الاستهلاكية ..

وجاء هذا قبل اندلاع الحرب بشهر واحد ، وعلى نحو طبيعى للغاية ، حتى إن عيون العدو لم تنتبه إليه أو ترصده ، ولم يتصور عباقرته أنها خدعة مدروسة لغمر السوق بالمصابيح اليدوية المطلوبة ..

وعندما اندلعت الحرب ، فى السادس من أكتوبر ، عام ١٩٧٣ م ، وصدرت الأوامر الخاصة بالإظلام الإجبارى ، كانت المصابيح اليدوية مطروحة بكميات كبيرة ، فى كل المجمعات الاستهلاكية ، وبأسعار متواضعة للغاية ..

من المؤكد أن صدمة المهرب العريق (مرزوق) كانت عنيفة للغاية ، عندما عرف فجأة فى سجنه ، أن شريكه لم يكن سوى واحد من أبرع رجال المخابرات العامة المصرية ، وأول من ينجح فى خداعه ، وفى تحقيق هدفين جليلين بضربة واحدة ..

ومن المؤكد أيضًا أن صدمة العدو كانت أكثر عنفًا وقسوة ..

لقد أدرك ـ عمليًا ـ مهارة وبراعة رجال المخابرات العامة المصرية ، الذين وضعوا وأداروا أبرع خطة خداع فى تاريخ الحروب الحديثة ، وأنهم بالاشتراك مع القوات المسلحة المصرية ، وأجهزة الدولة المختلفة ، قد نجحوا فى تحدى المستحيل ، فتحقق النصر ، ..

وتبدد الظلام

★ ★ ★



الخدعة الطبية !!

سبتمبر ١٩٧٣م ..

اقتربت ساعة الصفر ، وبدأ العد التنازلى لحرب أكتوبر ، وبلغت حرارة الرجال حدًّا مخيفًا ، على الرغم من انخفاض درجات الحرارة الفعلية ، ووصولها إلى معدلات معتدلة ، بالنسبة لهذه الفترة من العام ..

فكل شىء ينبغى دراسته بمنتهى الدقة والعناية ، حتى أدق أدق التفاصيل ، بحيث تمضى الخطة فى مسارها ، دون أن ينتبه العدو ، أو تلتقط عيونه لمحة واحدة ، يمكن أن تفصح عما يدبره جيشنا ، وتعده له قيادتنا السياسية والعسكرية ..

ولم يعد هناك وقت للنوم .. الجميع صاروا يعملون ليلاً ونهارًا ، بلا انقطاع تقريبًا ، وكل فريق منهم يعيد دراسة الأمور ، وتقييمها ، فى ظل ما يستجد من معلومات ، يتولى عدد من أمهر الجواسيس والعملاء جمعها بلا هوادة ، من كل المصادر الممكنة ، فى قلب النسيج الأساسى للعدو ..

وكلما برزت مشكلة ، كان على الرجال أن يفحصوا ويمحّصوا ، ويجاهدوا للبحث عن أفضل الحلول لها ، وبأكثر الوسائل سلامة وأمنًا ..

وفى الوقت ذاته كانت هناك مشكلات معتادة وتقليدية ، فى

كل الحروب يدركها ويعلمها العدو ، تمامًا مثلما ندركها ونعلمها ، ومن الضرورى أن يجد الخبراء لها حلولاً مبتكرة وجديدة ، بحيث لا ينتبه العدو إلى هذه الحلول التى تقوده بالطبع إلى وجود المشكلة وارتباطها الحتمى بقرب اندلاع الحرب ..

ومن أكبر هذه المشكلات وأكثرها أهمية ، مشكلة توفير أماكن العلاج للمصابين الذين قدَر الخبراء أنهم سيبلغون خمسين فى المائة فى موجة العبور الأولى ، ثم يتناقص العدد بعدها تدريجيًا ..

وطبقًا لتقديرات الخبراء ، كان من الضرورى ، بل من المحتم أن يتم إخلاء عدد من المستشفيات المدنية ؛ حتى يمكنها استقبال كل هذا العدد الذى لن تستوعبه مستشفيات القوات المسلحة وحدها حتمًا ..

ومن أجل هذه المشكلة ، اجتمع الرجال كثيرًا وطويلاً ، وراحوا يدرسون ويفكرون ، ويناقشون ويتجادلون ..

وفى اهتمام شديد ، قال أحدهم ، وهو يرتشف رشفة من قدح القهوة الساخن ، فى الرابعة والنصف صباحًا :

ـ المشكلة أن إخلاء المستشفيات المدنية ليس بالعمل البسيط الذى يمكن مداراته أو إخفاؤه ، فكل مريض يسعى للعلاج سيشعر بالغضب والثورة ، وسيشكو لجيرانه وأقاربه وأصدقائه وزملاء عمله ، وسيجد بينهم حتمًا من ينقل الخبر ، وبأقصى سرعة إلى « تل أبيب .. » .

بدا عليهم شىء من الضيق والإحباط ، ثم لم يلبث أحدهم أن اعتدل بحركة حادة ، وقال فى حماسة :

ـ إلا لو تم هذا لسبب منطقى .

التفتت إليه العيون كلها فى تساؤل وجد طريقه إلى لسان أحدهم ، وهو يقول :

ـ وما الذى يمكن أن يكون هذا السبب المنطقى ؟

أجابه الأول بنفس الحماسة :

ـ سبب طبى بحت .

ثم راح يشرح الخطة التى برزت فى ذهنه .. وبكل التفاصيل ..

واستمع إليه الرجال بمنتهى الاهتمام ، حتى انتهى من الشرح ، ودون أن يقاطعه أحدهم لحظة واحدة ، ثم بدءوا مناقشاتهم ومحاوراتهم ، التى امتدت حتى السابعة صباحًا ، قبل أن يربت رئيسهم على منضدة الاجتماعات براحته قائلاً .

ـ على بركة الله .. فلنضع الخطة موضع التنفيذ .

وبعد سبع ساعات واثنتى عشرة دقيقة بالتحديد ، وصل إلى إحدى الوحدات العسكرية فى السويس قرار من إدارة شئون الضباط للقوات المسلحة ، بتسريح ضابط طبيب من الخدمة ، وعودته إلى الحياة المدنية ..

ولما كان ذلك الإجراء نادر الحدوث ، فى تلك الفترة ، فقد أظهر الضابط الطبيب فرحته وسعادته ، وهمس للمقرَّبين إليه

بأن جهود خاله الذى يحتلَ مكانة رفيعة فى القيادة ، هى التى منحته هذا الامتياز ، وأعادته إلى الحياة المدنية ، حتى يمكنه استكمال دراساته العليا ، التى توقفت مؤقتًا ، بسبب التحاقه بكلية ضباط الاحتياط منذ عدة سنوات ..

وكإجراء طبيعى ، لم يكد الطبيب (ع) يعود إلى حياته المدنية ، حتى تسلم وظيفته السابقة فى وزارة الصحة ، التى تركته على قوتها ليومين أو ثلاثة قبل أن تمنحه خطاب التعيين فى مستشفى (الدمرداش) الذى وقع عليه الاختيار ليكون على رأس قائمة المستشفيات المطلوب إخلاؤها ، قبل أن تنشب الحرب ..

والتحق (ع) بالعمل بالمستشفى ، وأبدى نشاطًا ملحوظًا ومهارة وكفاءة فى عمله فى قسم الجراحة .

وقبل أنْ يمضى أسبوع واحد على تسلّمه العمل ، حتى كان يتقدَّم بمذكرة إلى مدير المستشفى ، قائلاً فى انفعال :

ـ خطأ .. استمرار العمل بهذا المستشفى خطأ .

تطلّع إليه المدير فى دهشة ، وهو يسأله :

ـ لماذا ؟! كل شىء يدور على ما يرام .

لوَّح (ع) بسبَّابته فى حزم ، وهو يقول :

ـ هذا ما يبدو ظاهريًا ، ولكن هناك مشكلة بالغة الخطورة ، لست أدرى كيف لم ينتبه إليها أحد ..

ثم مال نحو المدير ، وأضاف فى لهجة تشف عن أهمية وخطورة الأمر :

معظم عنابر المستشفى ملوثة بميكروب التيتانوس .

قفز المدير من مقعده كالمصعوق ، وهو يهتف :

ـ التيتانوس ؟! هذا مستحيل !

احتدمت المناقشة بينهما لفترة طويلة ، وأصرّ الطبيب (ع) على رأيه ، وعلى أن مواصلة استقبال المرضى فى المستشفى لها عواقب وخيمة ، وحذّر المدير من أنه سيحمله المسئولية الكاملة ، لو انتشرت الإصابة بالميكروب .

ولم يخضع المدير للأمر فى سهولة ، وإنما قرر القيام بفحص شامل ، وإجراء عددٍ من التحليلات ، قبل اتخاذ أى قرار فى هذا الشأن ..

وتم جمع العينات المطلوبة ، وإجراء كل الفحوص الممكنة ..

ثم أتت النتائج ..

والمدهش أنه وعلى الرغم من خلو المستشفى فعليًا من الميكروب ، إلا أن كل النتائج جاءت إيجابية وكأنما تحول مستشفى (الدمرداش) إلى مزرعة نشطة لميكروب التيتانوس بالذات ..

وصدر قرار بإخلاء المستشفى تمامًا من المرضى لتطهيره من الميكروب ، وتم اتخاذ كل الإجراءات اللازمة لهذا ..

وفلا نفس الليلة اجتمع الرجال مرة أخرى ..

كان من الواضح أن خطتهم تسير على خير ما يرام

بالنسبة لمستشفى (الدمرداش) ولكن أحدهم طرح تساؤلاً غاية فى الأهمية والخطورة :

ـ ماذا عن المستشفيات الأخرى ؟! هل سنتبع معها الخطة ذاتها ؟!

أجابه أحد زملائه فى حسم :

ـ من المستحيل بالطبع أن نفعل ، فلو تكرر الأمر على النحو نفسه ، سينتبه العدو إلى أن الأمر ليس طبيعيًا على الإطلاق ، مما سيثير شكوكه ، ويدفعه إلى دراسة الأمر وتحليله ، مما سيوصله حتمًا إلى استنتاج الحقيقة .

قال آخر فى انفعال :

ـ ينبغى ألا نسمح له بهذا قط .

عاد الأوّل يسأل :

ـ ماذا يمكننا أن نفعل إذن ؟

ران عليهم صمت ثقيل ، وكل منهم يفكر فى الأمر ، ثم لم يلبث أحدهم أن كسر ذلك الصمت ، وهو يقول فى اهتمام :

ـ دعونا نطرح على أنفسنا سؤالاً مهمًا .. ما الذى ينبغى فعله فى الظروف العادية ، لو أن مستشفى (الدمرداش) تلوّث بميكروب (التيتانوس) فعليًا ؟

أجاب أحدهم بسرعة ، وبنفس الاهتمام : ستكون فضيحة وسيصبح الأمر حديث الصحف .

تراجع الرجل ، قائلاً بابتسامة كبيرة :

ـ عظيم .. هذا بالضبط ما نحتاج إليه .

تساءل آخر فى دهشة :

ـ الفضيحة ؟!

أجابه فى حماس :

ـ بل حديث الصحف .

قالها ، ومضى يشرح فكرته ، التى اعتمدت على تعاون الصحافة وتأثير الكلمة المطبوعة على مشاعر الجماهير ، وبخاصة لو كانت كلمة لكاتب يحترمه الجميع ، ويثقون بما يقول ويكتب تمام الثقة .. وكل من عمل أو يعمل فى مجال المخابرات ، يدرك جيدًا أنه من أهم المصادر التى يستقى منها العدو معلوماته ، الصحف ، حتى إنه لكل جهاز مخابرات تقريبًا قسم خاص ، مهمته الحصول على الصحف والمطبوعات بأسرع وسيلة ممكنة ، للاطلاع على ما بها ، ودراسته وتحليله واستقاء عشرات المعلومات منه ..

ومن هذا المنطلق ، وبعد مشاورات ومحاورات استغرقت أربع ساعات كاملة ، اتخذ الرجال قرارهم بالوسيلة التى ينبغى التعامل بها فى هذا الشأن مع رجال الصحافة والإعلام ..

وفى السادسة صباحًا ، ارتفع رنين الهاتف فى منزل الكاتب الصحفى المعروف (م ص) الذى استيقظ على الفور ، والتقط

سماعة الهاتف فى سرعة ، متصورًا أنهم يستدعونه إلى الصحيفة التى يعمل بها ، لحدوث أمر طارئ أو جلل ، يحتاج إلى تغطية صحفية عاجلة ، لذا فقد أدهشه ، عندما ألقى سؤاله لمعرفة محدثه ، أن يسمع على الطرف الآخر صوتًا مهذبًا ، يقول :

ـ معذرة يا أستاذ (م ص) .. أنا (....) من المخابرات العامة المصرية .

انتفض جسد الرجل فى دهشة ، تمتزج بشىء من التوتر ، نظرًا للفكرة الخاطئة ، المأخوذة عن المخابرات العامة فى ذلك الوقت ، وتساءل فى عصبية عن السبب الذى يطلبه من أجله رجل مخابرات ، فى السادسة صباحًا ، فاعتذر له الرجل فى لهجة شديدة التهذيب ، وهو يقول :

الواقع أن الأمر مهم وعاجل ، وسرى للغاية .. هل تمانع فى تناول قهوة الصباح معنا .

ردَّ الكاتب الصحفى فى قلق شديد :

قهوة الصباح فقط ؟!

أجابه رجل المخابرات فى اختصار حاسم واثق :

ـ بالتأكيد .

صمت الكاتب بضع لحظات ، وكأنما يدبر الأمر فى رأسه ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ فليكن .. سأرتدى ملابسى ، وأتصل بالجراج لإحضار السيارة ، و ..

قاطعه رجل المخابرات بلهجة مهذَّبة :

ـ لاداعى .. ستجد سيارتنا فى انتظارك أمام الباب .

ضاعف هذا الرد من توتر الكاتب الصحفى (م ص) وقلقه ، إلا أنه ارتدى ثيابه بأقصى سرعة ، ثم هبط من منزله ، ليجد سيارة صغيرة مصرية الصنع فى انتظاره ، استقبله سائقها بتحية حارة ، وفتح له بابها الخلفى فى احترام ، ثم انطلق يقطع شوارع (القاهرة) نحو أحد المبانى التابعة لجهاز المخابرات العامة ، حيث استقبل رجل المخابرات الكاتب الصحفى بابتسامة ودود ، وهو يقول :

ـ تقبل اعتذارنا مرة أخرى يا أستاذ (م) ولكنك عندما تعرف لماذا طلبنا مقابلتك ، ستقدِّر موقفنا جيدًا .

لم تكن الكلمات كافية لإزالة توتر الكاتب الصحفى ، ولكن أسلوب رجل المخابرات البسيط الودود ، وطريقته المباشرة فى شرح الأمور ، وتوضيحه لأهمية تعاون الأستاذ (م) مع الجهاز كلها أزالت حاجز التوتر والقلق ، وجعلت الكاتب يستمع فى اهتمام وانتباه ، ويتفاعل مع الموقف بكيانه كله ..

والطريف أن رجل المخابرات لم يشرح له حقيقة الموقف قط ..

كل ما قاله هو أنهم يحاولون إجراء تجربة عملية ، لما يمكن أن يحدث لو لجأ العدو إلى أسلوب الحرب البكتريولوجية ، ونشر نوعًا من الميكروبات فى البلد ، وخاصة فى المستشفيات ، وأن أفضل وسيلة لإجراء مثل هذه التجربة ، دون إثارة الذعر ، هى ادّعاء وجود ميكروب معروف ، يلوّث عددًا من المستشفيات ، مما يحتم إخلاءها بأقصى سرعة ..

واقتنع الأستاذ (م) تمامًا بحديث رجل المخابرات ..

بل وتحمس له بشدة ..

وفى الصباح التالى مباشرة ، نشرت جريدة الأهرام خبر إخلاء مستشفى (الدمرداش) من المرضى ، بسبب تلوث معظم عنابره بميكروب (التيتانوس) ..

ثم جاء دور الأستاذ (م) ..

وفى مقال ملتهب استنكر (م) ما حدث فى مستشفى (الدمرداش) وعزاه إلى الإهمال والاستهتار ، ثم تساءل فى النهاية عما إذا كان الأمر يقتصر على هذا المستشفى وحده ، أم أن مسلسل الإهمال قد بلغ بعض المستشفيات الأخرى ؟!

وفى اليوم التالى خرج بمقال آخر ، حول الموضوع نفسه ..

ثم مقال ثالث ..

ورابع ..

ومع رد الفعل الجماهيرى ، وبناء على هذه الحملة الصحفية

الساخنة ، أصدرت وزارة الصحة قرارًا بإجراء تفتيش على باقى المستشفيات ..

والطريف أنها أسندت هذه المهمة للطبيب (ع) نفسه ، من قبيل المصادفة !!

وانطلق (ع) يواصل مهمته ، ويجرى التفتيش على عدد كبير من المستشفيات ، من ضمنها تلك التى تحتل القائمة ، التى وضعها رجال وزارة الدفاع والمخابرات العامة ..

ولم يكد أول أكتوبر يأتى حتى كان العدد المطلوب من المستشفيات قد تم إخلاؤه نهائيًا ، ونشرت جريدة الأهرام تحقيقًا علنيًا حول هذا الأمر ، مع صور الأسرّة الخالية ، وعمليات التطهير المستمرة ..

والتقط رجال المخابرات أنفاسهم فى ارتياح لنجاح الخطة ، ثم عادوا يكتمونها فى قلق شديد ، خشية أن يكشف العدو الأمر ، قبل اندلاع الحرب ..

ولكن هذا لم يحدث والحمد لله ..

فبعد ستة أيام بالتحديد ، نشبت حرب أكتوبر ، واندفعت موجة العبور الأولى تشق قناة السويس ، وتعبر حاجز الهزيمة ، وتحتل أقوى خط دفاعى فى التاريخ ، وتحطم أسطورة الجيش الإسرائيلى ، الذى أشاع أنه لايقهر أبدًا ..

وخفقت قلوب الرجال فى حماس وزهو لايخلون من

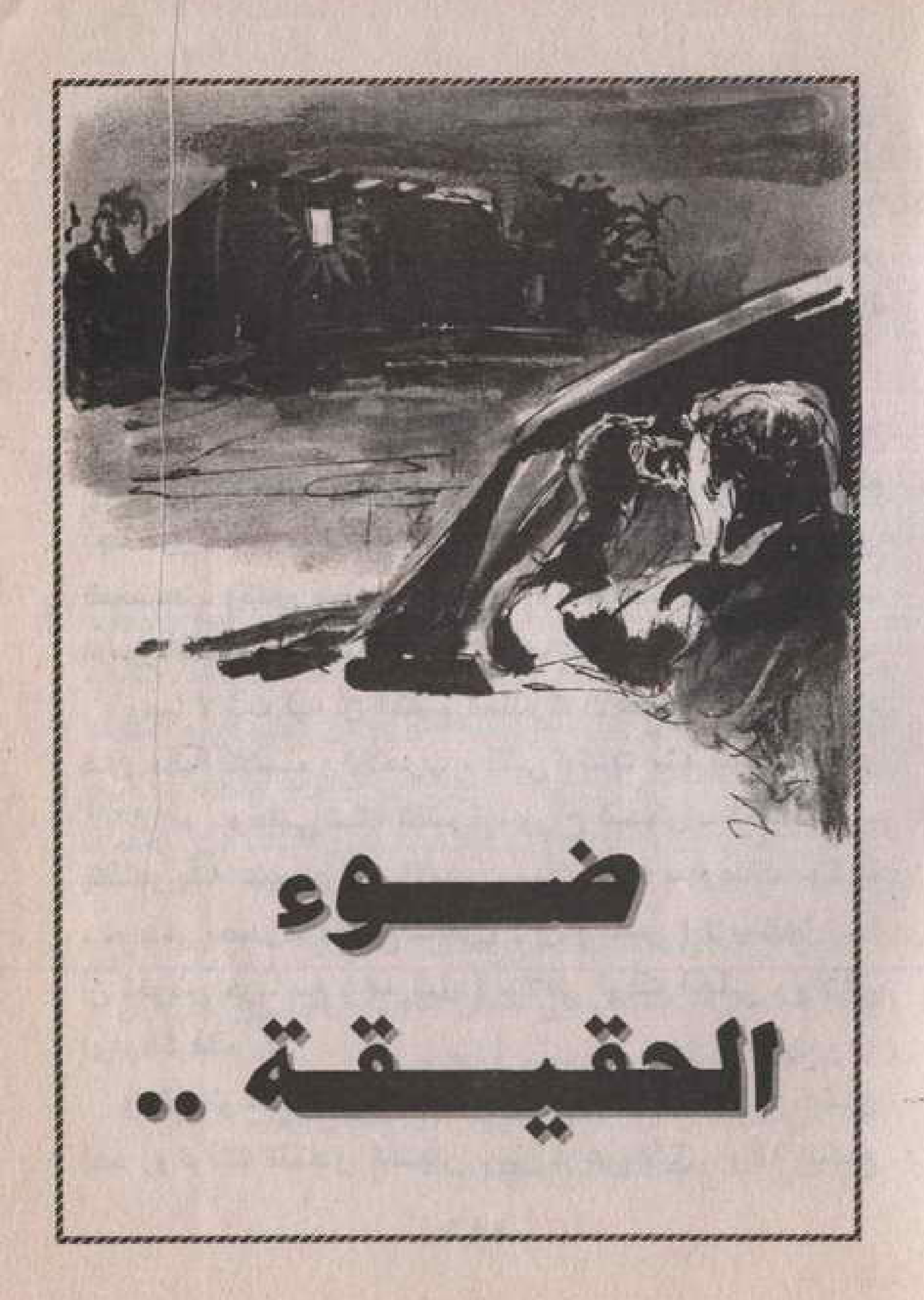
الدهشة والتقدير .. لقد تحقق عامل المفاجأة إلى أقصى حد ، وبوغت العدو تمامًا لعملية العبور ، حتى إن معدلات الخسائر ، التى قدرها الخبراء بخمسين فى المائة فى موجة العبور الأولى ، انخفضت حتى لم تتجاوز العشرة فى المائة ، وهو أقل معدَّل خسائر عرفته الحروب الحديثة ، فى عملية عبور مانع مائى حصين كهذا ..

وعندما تحركت كتائب الإسعاف ؛ لنقل المصابين إلى الخطوط الخلفية ، وتوفير أفضل عناية ورعاية لهم ، كانت كل المستشفيات المطلوبة خالية ، ومعدة لاستقبالهم ، وتوفير كل الخدمات الطبية لكل واحد منهم ..

هذا لأن الخدعة قد نجحت نجاحًا منقطع النظير ..

الخدعة الطبية .

* * *



ضوء الحقيقة ..

بدت تلك الأيام الأخيرة من سبتمبر ، عام ١٩٧٣ تقليدية هادئة ، بالنسبة لكل المصريين على الرغم من حلول شهر رمضان المعظم ، بكل ما يحمله من بهجة ، وتقاليد دينية واجتماعية انغرست فى أعماق هذا الشعب ، منذ العهد الفاطمى ، وراح الناس يخرجون إلى الأسواق ، ويلتفون حول باعة الكنافة والقطائف ، ويبتاعون لوازم الشهر الكريم ، ثم يجتمعون حول موائد الإفطار ، أو على المقاهى ، أو فى المساجد ، وتدور بينهم الحوارات والأحاديث ، فى مختلف الأمور الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية ..

ومما لا شك فيه أن القاسم المشترك الأعظم لتلك الأحاديث ، كان حالة اللاسلم واللاحرب ، التى امتدت منذ نكسة يونيو ١٩٦٧ م ، وحتى تلك الفترة ، وراح البعض ـ كالمعتاد ـ يتظاهر بأنه عليم ببواطن الأمور ، وبأن لديه معلومات مؤكدة ـ لم يذكر مصدرها بالطبع ـ تقول : إن (مصر) لا يمكنها أبدًا أن تخوض حربًا مع (إسرائيل) ، لا فى الوقت الحالى ، ولا فى أى وقت قادم ..

وعلى الرغم من أن ضابط المخابرات العامة (ر.ج) كان أحد رواد ذلك النادى الشهير ، بين فرعى النيل ، وأنه استمع

بنفسه إلى حديث مشابه ، راح صاحبه يروى قصصًا وهمية ، حول علاقاته الوثيقة بعدد من كبار المسئولين ، وثقته الأكيدة فى أن الحرب تندرج تحت قائمة المستحيلات ، بعد الغول والعنقاء ، والخل الوفى ، إلا أن (ر.ج) لم يستنكر قوله ، أو يعترض عليه ..

كل ما فعله هو أن أسبل جفنيه ، وأخذ ينصت فى اهتمام شديد ، يتعارض تمامًا مع مظهره الناعس المتكاسل ، فى حين انطلقت فى أعماقه ضحكة غير مسموعة ، تموج بالارتياح والظفر والسعادة ..

فهذه الأحاديث بالذات ، هى الدليل الحى ، على أنه وفريقه من رجال المخابرات المصرية ، قد ادّوا دورهم على أكمل وجه ، ونجحوا إلى حد كبير فى نسج شبكة قوية من الخداع ، لإخفاء الاستعدادات المصرية القوية ، لخوض الحرب الفاصلة مع الإسرائيليين ، فى السادس من أكتوبر ، أى بعد أقل من عشرة أيام ..

وقبل أن يكمل ذلك المتحذلق حديثه ، نهض (ر.ج) يزمع الانصراف ، وهو يتثاءب فى ضجر حقيقى ، لم يرق للراوى ، فالتفت إليه ، قائلاً فى شىء من الحدة :

ـ إلى أين ؟ ما زال الليل طويلاً ، ورمضان يحب السهر ..

ابتسم (ر.ج) قائلاً فى هدوء :

- هذا صحيح ، ولكننى مجهد من العمل طوال النهار ، وأنشد بعض الراحة ..

سأله الرجل فى شىء من الغطرسة :

- قل لى : ما رأى أصحاب شركة السياحة ، التى تعمل بها ؟! هل يعتقدون أن (مصر) ستحارب (إسرائيل) .

صمت (ر.ج) لحظة ، ثم هز كتفه قائلاً :

- شقيقى أخبرنى أن الجيش سيعلن عن بدء الحجز لرحلات الحج .

لم تكن عبارته تعنى شيئًا محدودًا ، إلا أن الرجل هتف فى الحاضرين بحماس مفتعل :

- ألم أقل لكم ؟! الحرب ليست قريبة ، بأى حال من الأحوال .

تركه (ر.ج) يواصل أحاديثه الحماسية ، وحقائقه الكاذبة المزعومة ، وغادر النادى ، منطلقًا بسيارته إلى منطقة (مصر الجديدة) ، ثم إلى حدائق القبة ، وأخيرًا توقفت سيارته داخل ذلك المبنى المهيب الصامت دومًا ، والذى يحمل شعار المخابرات العامة المصرية ..

لم يكن ينشد الراحة بالفعل كما ادعى ، وإنما كان — على العكس تمامًا — يستعد لقضاء ليلته كلها ، حتى صباح اليوم التالى ، فى متابعة ومراجعة وتطوير خطة الخداع ، التى يشرف على جانب منها ، منذ أكثر من عام كامل ..

وعندما ضمته مائدة الاجتماعات ، مع عدد من رفاقه ، كانت القضية التى تشغلهم ، فى تلك الليلة ، هى كيفية فرض رقابة صارمة دائمة ، على استعدادات وتحركات الوحدات الإسرائيلية ، حتى لحظة الهجوم المنتظر ، ظهر السادس من أكتوبر ..

وفى اهتمام ، راح أحدهم يستعرض آخر ما وصل من تقارير ، قائلاً :

- الأخبار تصلنا بانتظام من قلب (إسرائيل) ، من خلال العميل (٣١٣) ، الوثيق الصلة بوزير الدفاع (موشى ديان) ، والعميل (ل٥٦٤م) ، فى السلاح الجوى ، والعمة (استير) ، وعدد آخر من عملائنا المنتشرين فى المجتمع الإسرائيلى ومستوطناته ومصانعه ، أما بالنسبة لخط (بارليف) ، فكلكم تعلمون أن لدينا عميلاً من الطراز الأول هناك ، وأقصد به (عمرو طلبة) ، الذى ينتحل هوية إسرائيلية ويسيطر على أجهزة البث والاتصال هناك .. المشكلة الحقيقية تكمن فى الوحدات الإسرائيلية المتمركزة فى القنطرة شرق .

قال أحدهم فى اهتمام :

- ولكن لدينا بالفعل عميلاً موهوبًا فى (القنطرة) .

أومأ الأول برأسه إيجابًا ، وقال :

- هذا صحيح ، ولكن المشكلة أن الإسرائيليين قد أقاموا

وحدتين من وحدات الاعتراض اللاسلكية ، فى مناطق قريبة من القنطرة ، وهذا يعنى أن أية رسالة لاسلكية يمكن التقاطها بسرعة ، وتحديد موقعها بشىء من الدقة ، يكفى للإيقاع بالعميل فى وقت قصير ، والإبلاغ عن التحركات والاستعدادات على نحو منتظم ، يحتاج إلى وسيلة اتصال سريعة وفعالة ، فلا يمكن انتظار رسالة عادية ، تنتقل من يد إلى يد ، حتى تصل إلينا بعد يومين أو ثلاثة .. إننا نريد وسيلة تبلغنا بالتغييرات فور حدوثها .

انتهى من حديثه ، فران على المكان صمت ثقيل ، وكل الحاضرين يعتصرون عقولهم ، بحثًا عن وسيلة اتصال جديدة ، بخلاف البث اللاسلكى ، تكفى لتحقيق الغرض المنشود ..

وطوال الليل ، راح الرجال يفكرون ، ويناقشون ، ويقترحون ، دون التوصل إلى حل منطقى وحاسم للمشكلة ، على الرغم من الأفكار غير التقليدية التى طرحوها ..

لقد اقترح أحدهم استخدام الحمام الزاجل ، ولكن الفكرة لم تلق قبولاً من الجميع ، نظرًا لصعوبة إرسال الحمام الزاجل إلى العميل ، فى هذه الفترة القصيرة ، ولأن اهتمامه المفاجئ بتربية هذا النوع من الحمام ، قد يثير حوله عشرات الشكوك ، ثم ، وهذا هو الأهم ، أن الحمام الزاجل لا يمكن أن يصير ليلاً ، فماذا لو احتاج الأمر إلى الإبلاغ عن تحركات عسكرية ليلية مباغتة ، أو شىء من هذا القبيل ؟!

واقترح آخر أن يقوم العميل ببث رسائله على نحو متقطع ، بحيث لا يمنح أجهزة الاعتراض الفرصة المناسبة لتحديد موقعه وكشف أمره ..

ومن أجل مناقشة هذا الاقتراح ، تم إيقاظ خبير اللاسلكى فى الثالثة صباحًا ، وانتزاعه من فراشه على نحو عاجل : لاستشارته فى الأمر ، وبذل الرجل جهدًا حقيقيًا لاستيعاب الفكرة ، وهو يتثاءب فى إرهاق ، لأنه لم يأو إلى فراشه إلا منذ ساعة واحدة ، بعد عمل شاق متواصل ، استغرق يومًا ونصف اليوم ، ثم هز رأسه نفيًا ، وأفتى بأن الفكرة غير مأمونة ، لأن بث الرسالة على نحو متقطع سيؤدى ، على عكس ما يتصور الجميع ـ إلى منح أجهزة الاعتراض والتعقب فرصة مثالية ، لتحديد موقع العميل ، وقوة الإرسال ..

وبقدر ما كانت إجابته محبطة لفريق العمل ، إلا أنه تلقى منهم شكرًا عميقًا على ما بذله من جهد ، وهو يختطف سترته ويغادر المكان فى لهفة ، للعودة إلى فراشه ، والاستمتاع بساعتين من النوم ، قبل أن يعود إلى أعماله المعتادة فى السابعة صباحًا ...

ونال الإرهاق من الجميع ، مع مطلع الفجر ، وهم يعجزون عن التوصل إلى حل لهذه المشكلة ..

كان الحصول على سيل مستمر من المعلومات ، حول

الاستعدادات والتحركات الرئيسية للوحدات الإسرائيلية ، حول (القنطرة شرق) أمرًا حيويًا للغاية ، وخاصة عندما تقترب ساعة الصفر ، ويصبح لكل تغيير أهميته البالغة ، وفى الوقت ذاته لم يكن الحصول على تلك المعلومات ممكنًا بعد إنشاء وحدتى الاعتراض اللاسلكى ، وبعد أن أصبحت المواجهة العسكرية على الأبواب ..

وعندما ارتفع أذان الفجر ، توقف الرجال عن مناقشة الأمر ، وتوضأ الجميع ثم اصطفوا للصلاة فى خشوع ، يؤمهم (ر.ج) ، وما إن فرغوا منها ، حتى تثاءب أحدهم فى إرهاق واضح ، وقال وهو يلقى نفسه على أقرب مقعد إليه .

- عقلى أصبح مجهدًا للغاية ، ولم يعد باستطاعتى التفكير .

تطلع إليه (ر.ج) فى صمت واهتمام ، ثم أدار عينيه فى الوجوه المرهقة الشاحبة ، وأحصى فناجين القهوة الفارغة، التى تكدست فوق مائدة الاجتماعات ، قبل أن يلتقط نفسًا عميقًا ، ويقول فى حزم .

- فليكن .. لقد تعلمنا أن العقول المجهدة لا يمكنها أن تحسن تقدير الأمور ، أو تأتى بجديد ناجح ، لذا فأفضل ما نفعله الآن هو أن نعود إلى منازلنا ، ونحظى بقدر من النوم والراحة ، ثم نعود للاجتماع فى الثانية عشرة ظهرًا ، ونعاود المناقشة .

غمغم أحدهم :

- ولكن الوقت ليس فى صالحنا .

أجابه (ر.ج) فى حزم أكثر :

- وليس لدينا ما نفعله أيضًا .

كان الإرهاق الشديد هو العامل الأكبر ، الذى منع الرجال من الاعتراض على الفكرة ، أو مناقشتها ، فنهضوا يرتدون ستراتهم ، لم تمض دقائق معدودة حتى كان كل منهم يستقل سيارته ، عائدًا إلى منزله ، فى تلك الساعة المبكرة من النهار ، والناس تستيقظ من فورها ، وتستعد لبدء يوم جديد ..

وعندما وصل (ر.ج) إلى منزله ، أسرعت زوجته تستقبله فى لهفة وحنان ، ولأنها زوجة رجل مخابرات محترف ، لم تلق سؤالاً واحدًا حول سبب غيابه عن المنزل طوال الليل ، ولم تعترض مرة واحدة على عودته إلى منزله ، فى الوقت الذى يستعد فيه الآخرون لمغادرة منازلهم ، وإنما أحاطته بدفئها وأعدت له طعام الإفطار ، ثم أعدت الفراش ، وأغلقت نوافذ حجرة النوم ، وأسدلت الستائر عليها ، لينعم بالنوم والراحة ..

وعلى الرغم من كل هذا ، لم يغمض للرجل جفن ..

لقد ظل عقله منشغلاً بتلك المشكلة ، التى نشأت فجأة، فى هذه الأيام الأخيرة لتعكر صفو خطة متقنة ، استغرق إعدادها أكثر من عامين ، واشترك فى تنفيذها كل أجهزة الدولة تقريبًا ..

وكان أكثر ما يقلقه هو علمه بأنه من المستحيل التغاضى عن تلك المعلومات ، الواردة من (القنطرة شرق) مهما كانت الصعوبات والمتاعب والمشاق ..

من المستحيل تمامًا ..

إنه زمن حرب ، وكل معلوماته ، مهما بلغت ضآلتها ، يمكن أن تؤدى ، فى لحظة إلى قلب الأمور كلها رأسًا على عقب ، وتغيير مسار القتال كلية ..

وكالمحموم ، راح (ر.ج) يتقلب فى فراشه ، على الرغم من إرهاقه الشديد ، وحاجته الفعلية إلى النوم والراحة ..

ولأول مرة فى حياته ، بدت له تلك الستائر الزرقاء ، التى تغطى نوافذ الحجرة ، كئيبة مزعجة وتمنى لو ينتزعها من مكانها ، ويسمح للضوء الأبيض بالدخول .

وفجأة انطلقت صرخة قوية فى أعماقه ..

الضوء ..

نعم الضوء هو الحل ..

وارتفع حاجبا زوجته فى دهشة بالغة ، بعد دقائق خمس ، عندما فوجئت به يندفع خارج حجرة النوم ، فى ثيابه كاملة ، ومفتاح سيارته فى يده ، فسألته :

- إلى أين ؟!

أجابها بسرعة ، تشف عن الحماس والانفعال :

- سأعود إلى العمل .

تضاعفت دهشتها ، وهى تهتف :

ولكنك لم تنم حتى نصف الساعة !!

لوح بكفه ، وهو يقول بنفس الحماسة والانفعال :

- فيما بعد ..

كان كل أثر للنوم قد انطرح عن عقله وجسده ، اللذين استعادا نشاطهما على نحو عجيب ، حتى إنه قاد سيارته بسرعة كبيرة على عكس عادته ، وكأنما يمتلئ كيانه باللهفة على العودة إلى مكتبه فى جهاز المخابرات .

وفى الثامنة وسبع دقائق ، وقبل ما يقرب من أربع ساعات من موعد الاجتماع التالى المتفق عليه ، كان يجرى عدة اتصالات من مكتبه بمجموعة العمل ، ويقول لكم منهم عبارة واحدة :

- لقد توصلت إلى الحل .

ودون مناقشة ، أو دخول فى أية تفصيلات عبر الهاتف ، كما تقتضى تعليمات الأمن ، قفز كل منهم من فراشه وانطلقوا بأقصى سرعتهم إليه وكأنما نقلت إليهم الأسلاك عدوى الحماسة والانفعال من (ر . ج) ..

وفى التاسعة تمامًا ، بدأ الاجتماع ، وواجه رجل المخابرات زملاءه ، قائلاً :

- الطريقة التى توصلت إليها بسيطة وفعالة ،

وستمنحنا ذلك السيل المنشود من المعلومات ، دون أن ينتبه الإسرائيليون ، أو تلتقط أجهزتهم الاعتراضية شيئًا .

استمع إليه الجميع فى اهتمام وانتباه كاملين ، وهو يشير إلى النافذة ، مكملاً :

كلكم تعلمون أن عميلنا فى (القنطرة شرق) يقيم فى منزل صغير متواضع ، تطل نوافذه على جهة الغرب مباشرة بحيث يمكن رؤيتها من جانبنا ، وكل ما سيفعله هذا العميل هو أن يغطى نافذة حجرة نومه بورق شفاف ، يتكون من ثمانية مربعات متساوية ، مختلفة الألوان وسيستخدم مصباحًا يدويًا صغيرًا ، يضىء به أحد المربعات ، تبعًا لدرجة الاستعداد أو التحركات فى الوحدات الإسرائيلية التى يرصدها ، وعلى جانبنا الغربى ، سنضع بعض الرجال داخل عربة قديمة ، تبدو وكأنها مهجورة ، وكل مهمتهم هى أن يراقبوا نافذة حجرة نومه ، بالمناظير المقربة ، وإبلاغنا باللون الذى يضىء فيه ، أولا فأولاً ..

انتهى (ر.ج) من شرح فكرته ، فران على حجرة الاجتماعات صمت رهيب ، وتعلقت عيون الجميع به فى انبهار ، فغمغم :

ـ ما رأيكم ؟!

وكانت الموافقة بالإجماع ، فالفكرة تحقق كل المنشود بالفعل ،

على الرغم من بساطتها ، وتخدع الإسرائيليين ومحطاتهم الاعتراضية المتطورة ، على نحو يرضى الجميع ، ويبعث فى أعماقهم شعورًا بالظفر والارتياح ..

وفى الخامسة من مساء اليوم نفسه ، وصل زائر إلى عميل (القنطرة) الذى قضى معه ساعة واحدة ، انهمك بعدها فى لصق الأوراق الملونة التى أحضرها إليه الزائر ، على زجاج نافذة نومه ، ومراجعة التعليمات الشفرية ، التى سلمها له ، وحفظها عن ظهر قلب ، ثم أحرقها تنفيذًا لتعليمات الأمن ، التى تلقاها فى مرحلة تدريبية ..

وفى السادسة وسبع عشرة دقيقة ، بدأ جهاز الإرسال الضوئى عمله ، وراح ينقل التعليمات على نحو منتظم إلى فريق المراقبة ، على الجانب الغربى ، الذى ينقلها بدوره أولاً فأولاً إلى أولئك الساهرين ، فى مبنى المخابرات المصرية ..

وفى كل يوم يمضى ، كان عميل (القنطرة شرق) يتقن التعامل مع الفكرة الجديدة أولا فأولاً ، ورسائله الضوئية المتواصلة تنقل الحقيقة إلى الجانب المصرى بدقة أكبر وأفضل ..

وفى منتصف ليلة الخامس من أكتوبر ، وصلت الأوامر إلى عميل (القنطرة شرق) بتكثيف إرساله ، فلم ينقطع عن نقل المعلومات الضوئية ، طوال نهار وليل الجمعة ، وصباح السبت ،

السادس من أكتوبر ، واستقبل (ر . ج) وفريقه تلك المعلومات فى (القاهرة) بلهفة كبيرة ، ثم انطلقت التنهدات فى صدورهم ، معلنة ارتياحهم وسعادتهم ..

فحتى الرسائل الأخيرة ، كانت تثبت أن خطتهم الطويلة قد نجحت إلى أقصى حد ، وأن الجيش الإسرائيلى لا يتوقع هجومًا مصريًا على الإطلاق ..

ولقد تأكد هذا نهائيًا ، عندما اندلعت الحرب فعلاً ، وعبر أسودنا القناة ، وأسقطوا خط (بارليف) أقوى مانع عسكرى فى التاريخ ، ورفعوا علمنا على الضفة الشرقية لقناة السويس ..

وبعد أكثر من شهرين ، وعندما هدأت الأمور نسبيًا ، ضمت جلسة أخرى فى النادى الشهير (ر . ج) وذلك المتحذلق . الذى حاول أن يدارى حرجه ، من فشل تأكيداته السابقة باستحالة قيام الحرب بين (مصر) و(إسرائيل) ، فاضطجع فى مقعده ، وعدل منظاره الطبى فوق عينيه . وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ كنت أعلم أن الحرب على الأبواب ولكن أصدقائى من ذوى النفوذ ، الذين أخبرونى بهذا ، أكدوا على ضرورة كتمان الأمر ، والتظاهر بالعكس .

وهنا لم يستطع (ر.ج) كتمان ضحكته الساخرة كالسابق ..

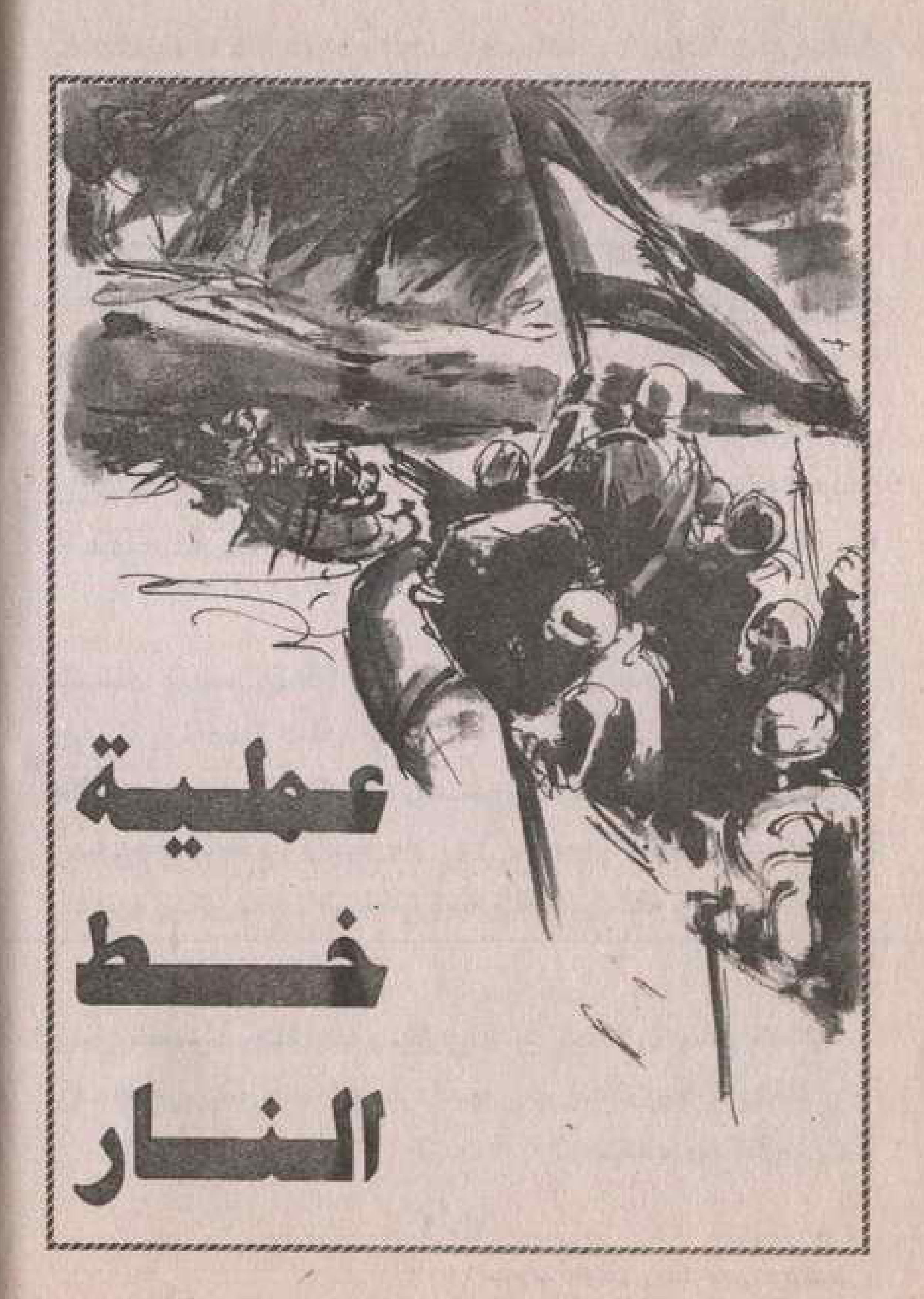
لذا فقد تركها تنطلق من أعماقه تجلجل وسط النادى ، فى وجه ذلك المتحذلق الذى امتقع وجهه ، وانكمش فى مقعده ..

لقد تبدد شعاع كذبه بضوء مباشر هذه المرة .

ذلك الضوء الذى كان له جزء من الفضل ، فى تحقيق النصر ..

ضوء الحقيقة .

★ ★ ★



عملية خط النار..

هطلت الأمطار فى غزارة غير مسبوقة ، فى تلك الليلة من ليالى الشتاء ، فى بداية السبعينات ، وراح منسوب المياه يرتفع تدريجيًا فى الشوارع ، على نحو ينذر باضطرابات مقبلة ، فى حركة المرور والاتصالات وتسرب القلق إلى قلوب سكان (القاهرة) وشوارعها ، التى خلت من المارة تقريبًا ، بعد أن انسحب الجميع إلى منازلهم ، واختفوا تحت الأغطية السميكة ، فى محاولة لاتقاء البرد القارص والأمطار المستمرة .

فيما عدا هؤلاء الرجال .

عدد من خيرة ضباط المخابرات العامة المصرية ، لم يلتفتوا إلى البرد أو المطر ، أو لم يشعروا حتى بوجودهما حولهم ، وهم منهمكون فى دراسة ومراجعة وإقرار أضخم وأطول عملية خداع فى تاريخ العمل السرّى .

كانوا يتلقون كل المعلومات الممكنة عن العدو الإسرائيلى ، وتجهيزاته ، وخططه ، وعملياته ، ويضعون كل هذا أمامهم على مائدة البحث ، ويقتلونه فحصًا ودراسة ومناقشة ، قبل أن يتوصلوا إلى وسيلة مثلى للتعامل معه ، والتصدّى له ، لو لزم الأمر .

وعلى الرغم من أن عقارب الساعة كانت تشير إلى الثانية

بعد منتصف الليل ، ومن أن الرجال يواصلون اجتماعهم هذا منذ العاشرة صباحًا ، ودون انقطاع تقريبًا ، إلا فيما ندر ؛ لتناول وجبة طعام بسيطة ، أو قدح من القهوة أو الشاى ، إلا أن مناقشاتهم ظلت محتدمة ، وأفكارهم غرقت حتى النخاع فى موجة من الحماسة والحسم ، ولم يقطعها إلا وصول زميل لهم ، وهو يقول فى توتر ملحوظ :

- وصلتنا برقية عاجلة من عميلنا فى القيادة الإسرائيلية .

كان هذا العميل من الأهمية والخطورة ، بحيث إنه لم يكد الزميل يذكر اسمه ، حتى هوى على الجميع صمت تام ، وتطلّعت عيونهم إلى زميلهم ، يطل منها مزيج من الاهتمام واللهفة والترقب والقلق والتساؤل ، مما جعله يضيف بسرعة :

- لقد طلبت من قسم الشفرة ترجمتها على الفور ، ووجدت أنها عبارة عن رسالة حماسة مختصرة .. الإسرائيليون أنشئوا خطًا للنيران ، بطول الشاطئ لقناة السويس .

كان الخبر مباغتًا للغاية ، حتى إن الجميع حدقوا فى وجهه لحظة ، استمر خلالها ذلك الصمت الثقيل ، قبل أن يهتف أحدهم :

- أهذا خبر أكيد أم مجرّد شائعة ؟

هزّ زميله رأسه فى بطء ، وهو يجيب :

- هذا ما ينبغى السعى للتأكد منه .

تبادلوا نظرة صامتة ، حملت كل ما اشتعل فى أعماقهم من قلق وتوتر ، قبل أن يسأل آخر :

- هل أرسل عميلنا أية تفاصيل ؟

أجابه زميله بسرعة :

- إنه يسعى للحصول عليها .

كان الخبر مباغتًا ، والفكرة تستحق القلق .

ولكنها ليست بجديدة أو مبتكرة .

ففكرة إشعال النار فى القناة فكرة قديمة ، ابتكرها ميجور من ضباط المخابرات البريطانية ، يدعى (جون بيكر هوايت) ، فى صيف ١٩٤٠م

ففى تلك الفترة ، كان (بيكر) مسئولاً عن الحرب النفسية ضد القوات العسكرية الألمانية ، التى تستعد لغزو (بريطانيا) ، فسافر إلى خليج (سانت مارجريت) بالقرب من (دوفر) ، للاطمئنان على التواجد الأمنى البريطانى هناك .

وعندما وصل (بيكر) إلى المكان هوى قلبه بين قدميه .

لقد كان الشاطئ تحت حماية فصيلة واحدة من حملة البنادق ، لديها مدفعان من طراز (برين) ، ومدفع آلى واحد من طراز (فيكرز) ، أما المدفعية المساعدة ، فتتكون من عدد قليل من المدافع الفرنسية القديمة ، من عيار ٧٥مم ، ولكل مدفع عشر طلقات فحسب .

وكان من الواضح أنه لو اختار الألمان هذه البقعة للغزو ، فلن يمضى أسبوع واحد ، إلا ويرتفع العلم النازى على القصر الملكى فى (لندن) .

وفى نفس اللحظة ، التى تسرّب فيها اليأس والأسف إلى قلبه ، وقع بصره على مشهد مدهش .

أنابيب بها ثقوب ، تمتد بطول الشاطىء ، وعلى مسافات منتظمة من بعضها البعض ، وخلف هذا الخط خزانات الوقود ، وطلمبات تدفع البترول وزيت الوقود إلى الأنابيب ، التى تبدو أشبه برشاشات الحدائق ، وهى ترسل ألسنة اللهب طوال الوقت ..

ولنصف ساعة كاملة ، وقف (بيكر) يراقب ذلك المشهد دون أن تبدر عنه حركة واحدة ، ثم انصرف والمشهد محفور فى ذهنه ، يأبى أن يفارقه فى عناد وإصرار ..

وطوال طريق عودته إلى (لندن) ، لم يفارق مشهد ألسنة اللهب رأسه قط وإنما امتد وتواصل ، ليرسم فى عقله مشهدًا خرافيًا ، للنيران وهى تشتعل على سطح البحر نفسه ، لتصنع الصورة نفسها ، التى وضعها (تينسون) ، والتى وصف فيها (بريطانيا) بأنها أبراج عائمة ، تحيط بها النيران من كل جانب .

وعندما وصل إلى (لندن) ، كانت الفكرة قد اختمرت فى رأسه تمامًا ، وملأت كيانه كله ، وتحولت إلى خطة لنشر الفزع والقلق ، فى صفوف القوات الألمانية ..

وقدّم (بيكر) فكرته إلى الخبراء ، الذين أكدوا إمكانية تنفيذ مثل هذا الأمر ، من الناحية النظرية ، واستحالة تحقيقه عمليًا ، لنقص الموارد وضعف الاقتصاد ، فى زمن الحرب .

وكان هذا كل ما يحتاج إليه (بيكر) ، الذى اكتفى بإطلاق شائعة ، تقول : إن (بريطانيا) قد أحاطت سواحلها بأنابيب من الوقود ، يمكنها ضخه إلى سطح البحر ؛ لإشعال النيران فيه ، وحرق كل من يحاول غزوها .

ولاقت الشائعة آذانًا صاغية فى (ألمانيا) ، حتى إن الألمان أجروا تجربتين للتأكد من صحة الأمر ، الأولى فى (فيكومد) فى (نورماندى) ، والثانية فى (بروسيا) الشرقية .

وجاءت النتائج لتضاعف قلق وفزع الألمان ، وخاصة عندما حاولوا التغلب على ألسنة اللهب بتغطية القوارب بالاسبستوس ، ودفعها وسط النيران ، فالتهمتها بلا رحمة .

ولأن الألمان لم يدركوا أن الأمر ليس سوى شائعة ، فقد تراجعوا تمامًا عن فكرة غزو (إنجلترا) ، بأمر مباشر من (أدولف هتلر) ، فى التاسع من يناير ١٩٤١م .

وبهذا خسر الألمان فرصة عمرهم لغزو (بريطانيا) .

وهذا ما كان يخشاه رجال المخابرات المصرية .

أن يكون الأمر مجرّد شائعة .

وفى سبيل التيقن من هذا ، نشط عملاء وجواسيس

المخابرات العامة ، فى مراكز القيادة الإسرائيلية ، وبين صفوف الجيش ، وحتى فى خط (بارليف) نفسه لجمع كل ما يمكنهم من صور ووثائق وخرائط وتصميمات وأقوال ، وحتى الشائعات لتغذية المخابرات بسيل من المعلومات التى هى عصب العمل فى هذا العالم السرى الغامض .

ولم يمض شهر واحد ، حتى كان الرجال على يقين من أن الإسرائيليين قد أنشأوا خط النار هذا بالفعل ، وأن الأمر ليس مجرّد شائعة .

بل وحصلوا على رسم دقيق للإنشاءات أيضًا ، وعينة من السائل الملتهب ، الذى تضخه الأنابيب .

لقد تم تصميم ذلك الخط ، بحيث يمكن ضخ مزيج من النابالم ، والزيوت السريعة الاشتعال ، والكيروسين ، بطول امتداد القناة ، على سطح الماء ، من خلال عدد كبير من الصهاريج الضخمة ، لها صمامات تتحكّم فيها طلمبات ضخ ماصة كابسة ، يخرج منها خط من الأنابيب ، بقطر ست بوصات ، تنتهى بفتحات تحت سطح الماء ، فى كل المواضع الصالحة لعبور قناة (السويس) .

وكان هذا الأمر بالغ الخطورة بالفعل .

فلو استخدم الإسرائيليون هذا الأسلوب ، فى أثناء عملية العبور ، وأشعلوا النار فى سطح الماء ، لأسفر هذا عن خسائر

فادحة رهيبة ، ربما التهمت أكثر من ٩٠٪ من الموجة الأولى ، وأكثر من ٧٠٪ من الموجات التالية .

وجلس الرجال حول مائدة البحث والدراسة ، لمناقشة هذا الأمر الخطير ، وقال أحدهم فى توتر ملحوظ :

- من الضرورى أن نختبر الأمر أولاً ، قبل أن نتخذ قرارًا بشأنه .

سأله أحدهم فى اهتمام :

- هل تقترح إجراء تجربة عملية ؟

لوّح بيده ، وهو يجيب :

- ولِمَ لا ؟! على الأقل سنعرف كيف تكون النتائج .

وبالفعل ، وبناء على هذا الرأى ، الذى اتفق عليه الجميع ، أجريت تجربة عملية ، باستخدام خليط بالنسب نفسها ، فى منطقة بعيدة عن العمران ، على مياه النيل ، وأشعلت النيران ، و ...

وجاءت النتائج مفزعة .

لقد وصلت درجة حرارة السطح ، بعد إشعال النار ، إلى سبعمائة درجة مئوية ، مما يعنى أن الأمر خطير بالفعل ، ويحتاج إلى دراسة طويلة دقيقة متأنية .

ولم تكد هذه الدراسة تبدأ ، حتى استغل الإسرائيليون الشق النفسى لخط النار ، الذى أنشأوه بطول القناة ، وأعلنوا أمره ، لإثارة الفزع والرعب فى قلوب المقاتلين المصريين .

ومن العجيب أن المخابرات العامة لم تحاول التهوين من أمر خط النار وإنما راحت تذيع تفاصيله المخيفة ، وكأنها تعلن يأسها من إيجاد حلٍ لها ، واستسلامها لروح اليأس ، واعتبارها أن عملية العبور مستحيلة .

وابتسم الإسرائيليون فى زهو ، وهم يجمعون معلوماتهم عن ردود فعل المصريين ، وأدركوا أن خط الجحيم هذا يستحق كل شيكل أنفقوه على إنشائه ، بعد أن أتى بثماره المعنوية والنفسية .

ولكن رجال المخابرات المصرية كانوا يضمرون فى نفوسهم أمرًا آخر .

ففى غمرة تظاهرهم باليأس والاستسلام ، أطلقوا واحدًا من أهم وأخطر عملائهم السريين ، فى قلب الكيان العسكرى الإسرائيلى ، للبحث عن تصميمات ومواضع أنابيب اللهب المخيفة تحت سطح الماء .

ومنذ اللحظة الأولى ، أدرك ذلك العميل أهمية وخطورة مهمته الجديدة ، خاصة وأن الرجال فى (القاهرة) طلبوا منه التخلى عن أى أمر آخر ، والتفرغ تمامًا لهذه المهمة ، والسعى للعثور على خريطة النار ، مهما كان الثمن .

وكل من عمل ، أو ارتبط ، أو حتى اتصل بشكل أو بآخر بجهاز المخابرات العامة المصرية ، يدرك جيدًا ما الذى تعنيه عبارة (مهما كان الثمن) فى نهاية التكليف .

إنه يعنى أن كل الوسائل مشروعة ، ومسموح باستخدامها ، وأن التقاعس أو التراجع ، أو حتى التردد ، أمر غير مقبول ، بأى شكل من الأشكال .

ومن هذا المنطلق ، بدأ العميل تحركاته .

لم يكن الأمر سهلاً ، إلا أنه أدى واجبه بكل صدق وإخلاص ، والتزم بمصريته حتى آخر لحظة ، وهو يقيم الروابط ويعقد الصداقات فى براعة وحنكة ، مع عدد من قادة الجيش ، من خلال طبيعته المرحة ولباقته ، وسخائه الواضح ، غير المألوف فى المجتمع الإسرائيلى .

وبعد ثلاثة أشهر تقريبًا ، نجح ذلك العميل فى الوصول إلى الجنرال (شموئيل جونين) قائد جبهة (سيناء) ، وجمعتهما صداقة وثيقة ، شعر معها الجنرال الكهل بالارتياح لأول مرة ، حتى إنه لم يعد يجد أى حرج فى التحدث مع صديقه الجديد عن مشكلاته ومتاعبه ، ولا فى أن يتبادل معه أطراف الحديث لساعات وساعات ، فى أيام السبت أو فى سهرات العطلات والمناسبات الرسمية .

وكان من الطبيعى أن تتناثر كلمات متفرقة ، من بين شفتى الجنرال ، خلال حوار مخمور ، أو حديث طبيعى عابر .

وكان على العميل أن ينقل كل هذه الكلمات مهما بدت له تافهة ، إلى القيادة فى (القاهرة) ، حيث يقضى الرجال

ساعات وساعات فى ترتيبها ، وتوضيبها ، وربط بعضها ببعض ، تمامًا كلعبة البازل ، التى ينهمك فى حلها الصغار والكبار ، ويقضون جل وقتهم فى البحث عن القطعة الناقصة ، ليكتمل المشهد كله فى النهاية .

ثم فجأة ، وصلت من ذلك العميل برقية بالغة الخطورة ، فطلب منه الرؤساء أن يتوجه على الفور إلى (روما) ، حيث سيلتقى به أحد الرجال ، للحصول على ما لديه من وثائق أو معلومات .

وعلى الرغم من النتائج الرهيبة ، والعواقب الوخيمة ، التى يمكن أن تترتب على كشف أمره ، غامر العميل بالسفر إلى (روما) ، وهو يحمل فى جيبه وثيقة واحدة ، يكفى العثور عليها لقتله فورًا وبلا رحمة .

وفى (روما) سلم العميل تلك الوثيقة لرجل المخابرات المصرى ، التى لم يكد يلقى نظرة عليها ، حتى رقص قلبه بين ضلوعه ، وبرقت عيناه فى ظفر ، حتى كاد ضوؤهما يغمر الشارع كله ، فى منتصف الليل الإيطالى البهيم .

لقد كانت الخريطة المنشودة .

خريطة خط النار .

والآن ، ولأول مرة صارت المخابرات العامة على علم بموضع كل فتحة ، من فتحات أنابيب النابالم .

والآن فقط ، أصبح من الممكن وضع خطة حاسمة للتصدى لخط النار ، وإفساد فاعليته فى الوقت المناسب .

وفى مبنى المخابرات ، صنع الرجال خريطة مجسمة ضخمة ، لمنطقة القناة ، وتوزيع أنابيب النابالم فيها ، وأعادوا دراسة الموقف للمرة العاشرة ، وقال المدير فى اهتمام :

ـ المشكلة لا تكمن فى إبطال فاعلية الخط فحسب ، وإنما فى أن يحدث هذا فى الوقت المناسب ، بحيث يصبح العدو عاجزًا عن إصلاحها ، عندما يبدأ الهجوم الشامل ، ويستعد الجنود لعبور قناة (السويس) .

كان قول المدير هو الهدف ، الذى سعى الرجال لدراسته وتحقيقه ، طوال الفترة التى تلت هذا ، وحتى صباح السادس من أكتوبر ، عام ١٩٧٣م .

لقد أقيم أكثر من نموذج ، لمناطق أنابيب النابالم ، فى مناطق بعيدة تمامًا عن العمران ، وموضوعة تحت حراسة خفية مشددة ، وتم تدريب عدد من رجال الضفادع البشرية على التعامل معها ، بالإضافة إلى عدد آخر من رجال الكاماندوز .

وبعد أشهر طويلة فى التدريبات والاختبارات المتوالية ، حانت لحظة المواجهة الحقيقية ، فى الساعات الأولى من صباح يوم المعركة ، وقبل أن تندلع حرب أكتوبر ببضع ساعات محدودة .

ففى ذلك الوقت تسللت مجموعتان إلى مناطق الأنابيب قامت الأولى بقطع خراطيم المضخات الماصة الكابسة ، فى حين تولت الثانية سد فتحات الأنابيب بلدائن خاصة ، ذات قدرة على التصلب السريع .

وعلى الرغم من خطورة القيام بعمليتين انتحاريتين فى آن واحد إلا أن هذا الأمر كان حتميًا ، إذ إن ازدواج الوسيلة يؤدى إلى تأمين العملية بشكل مطلق ، وإذ إن كشف تلف المضخات سيربك العدو وسيدفعه إلى بذل الجهود المضنية لإصلاحها ، دون أن يدرك أنه لا طائل من وراء هذا ، ما دامت فتحات الأنابيب نفسها مسدودة .

عندما بدأت عملية عبور قناة (السويس) فعليًا ، فى الثانية وخمس دقائق ، بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣م ، هرول الإسرائيليون إلى أجهزة ضخ النابالم ، ليغمروا مياه القناة بالمزيج الملتهب ، وإشعال النار فى المصريين بقواربهم المطاطية وحماسهم المنقطع النظير وهتافهم الذى يرج (سيناء) كلها (الله أكبر) إلا أنهم فوجئوا بأن هذا لم يعد ممكنًا .

لقد توقفت الأجهزة عن العمل وفقد خط النار فاعليته .

ولعل أكثر من تلقى الصدمة هو الجنرال (شموئيل جونين) نفسه الذى روى لأصدق أصدقائه فيما بعد ، وهو عميل المخابرات المصرية نفسه ، أن وزير الدفاع الإسرائيلى (موشى ديان)

قد وبخه أشد التوبيخ ، على فشله فى تشغيل أجهزة النابالم ، وقال له بالحرف الواحد :

ـ لو أننى طاوعت نفسى لنسفت رأسك برصاصتى فى الحال .

وربما فعل (دايان) هذا ؛ لأنه كان يجهل أن الأمر لا يعود إلى فشل جنراله ، وإنما إلى نجاح رجال المخابرات المصرية ، الذين سجلوا بجهدهم واجتهادهم أسطورة التفوق الإسرائيلى ، وحطموا أقوى خطين فى التاريخ العسكرى كله .

خط (بارليف) .. و ...

وخط النار .

* * *



دماء الشهيد ١٠٠١

اشتعلت نيران الحرب فجأة ، فى ظهر السادس من أكتوبر ، عام ١٩٧٣ ، وانطلقت طائراتنا المقاتلة ، فى تناسق بديع ، تدك حصون العدو ، فى خط (بارليف) ، وتطارد مدرعاته ، وقوافل سياراته ، التى تسعى للفرار ، وتنسفها بنيرانها فى مهارة أثارت دهشة العدو قبل الصديق ، ووسط ذلك فى النيران الملتهبة فى كل مكان ، انطلقت سيارة عسكرية مصرية ، تعبر أحد الجسور المؤقتة ، التى أقامها سلاح المهندسين ، وعلى متنها ثلاثة من الرجال ، يرتدون ثيابًا مدنية ، أثارت دهشة ضباط وجنود الجيش ، فى ذلك الموقف الدقيق ، واعترض بعضهم طريقها بالفعل ، ولكن أحد المدنيين الثلاثة أبرز أوراقه فى لهفة واضحة ، وبدا من الواضح أن تلك الأوراق تعنى الكثير ، فلم يكد الضابط يطالعها ، حتى أعادها إلى المدنى بسرعة ، وأدى له التحية العسكرية فى احترام ، وهو يقول :

ـ ما الذى يمكننى أن أقدمه لك ، فى مثل هذه الظروف يا سيدى ؟

سأله المدنى فى لهفة واضحة :

ـ أبحث عن قافلة من السيارات الإسرائيلية العسكرية ، على مسافة عشرة كيلو مترات من الشاطئ :

حدق الضابط فى وجهه بدهشة ، قبل أن يقول :

ـ قافلة سيارات إسرائيلية ؟! يبدو أنك تجهل ما آل إليه الأمر ، فى تلك المنطقة يا سيدى .. لقد تحولت إلى قطعة من الجحيم .. بل هى الجحيم نفسه .. كيف تتوقع وجود أحياء ، فى مثل هذه الظروف ؟

قال المدنى فى عصبية :

ـ ستكون كارثة ، لو أن الأمر صار إلى ما توحى به .

هتف الضابط بدهشة أكبر :

ـ كارثة ؟! هل تعتبر تدميرنا لقافلة سيارات عسكرية إسرائيلية كارثة ؟!

زفر المدنى فى توتر ، ثم التفت إلى قائد السيارة ، وسأله :

ـ هل يمكننا استدعاء هليوكوبتر ؟

أجاب السائق ، الذى يحمل رتبة عسكرية محدودة :

ـ أعتقد أنه يمكننا هذا .

وفى ظروف الحرب الطاحنة ، لم يتمكن المدنيون الثلاثة من استخدام الهليوكوبتر ، قبل الخامسة مساء ، واستغرقوا نصف ساعة من الطيران المتصل ، حتى لمحوا قافلة السيارات العسكرية الإسرائيلية المدمرة ، فهبطت الهليوكوبتر إلى جوارها ، وقفز منها المدنيون الثلاثة ، واندفعوا نحو جثث الإسرائيليين ، وراحوا يفحصونها بمنتهى الدقة والاهتمام ، حتى وصلوا إلى

جثة بعينها ، ولم يكد أولهم يلقى نظرة على وجه صاحبها ، حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، وهو يغمغم بصوت مختنق :

ـ إنه هو .

ألقى الآخران نظرة مماثلة على الجثة ، ثم أشار أحدهما إلى جنديين ، حملا صندوقًا كبيرًا من الهليوكوبتر ، ونقلا إليه الجثة ، ثم لفاه بعلم (مصر) فى حرص ، فهتف قائد الهليوكوبتر فى دهشة :

ـ ماذا تفعلون ! إنكم تعاملون جثة هذا الإسرائيلى باحترام عجيب .

التفت إليه أحد المدنيين الثلاثة ، وقال فى حدة :

ـ إنه ليس إسرائيليًا .

ثم عاد يتطلع إلى الصندوق الملتف بعلم (مصر) ، وهو يستطرد فى حزن :

ـ إنه شهيد .. الشهيد المصرى البطل (عمرو طلبة) .

وكانت مفاجأة مدهشة ..

* * *

بعد النجاح الواضح ، الذى حققته عملية زرع العميل المصرى (رفعت الجمال) ، فى قلب المجتمع الإسرائيلى ، تحت اسم (جاك بيتون) ، بدأ رجال المخابرات المصرية فى التفكير جديًا ، فى إعداد عميل آخر ، يمكنه الغوص فى قلب إسرائيل ، والوصول إلى جيش الدفاع ، باعتباره مواطنًا

إسرائيليًا ، بحيث لا يطلب منه أى شىء قط ، حتى يستقر ويتغلغل فى الجيش الإسرائيلى تمامًا ، وتحين لحظة الاحتياج إليه ..

وفى صيف عام ١٩٦٨ م ، بدأت عملية فرز لمجموعة من الشباب ، يتم تدريبهم فى قسم خاص ، فى مدرسة المخابرات ، يحمل الرمز (٣ ج ا) ، وهذا القسم له طابع خاص جدًا ، إذ إنه من المحظور على الطلاب فيه أن يتحدثوا بأية لغة ، بخلاف اللغة العبرية ، حتى فى أحاديثهم الهاتفية الداخلية ، ولا يتعاملون فى (الكافيتيريا) إلا بالليرات الإسرائيلية ، ويشاهدون الأفلام والبرامج الإسرائيلية ثلاث مرات فى الأسبوع ، كما ترتفع فى طرقات المبنى لافتات وإشارات مرور عبرية ، وعلى نفس النمط المستخدم داخل (إسرائيل) نفسها ..

باختصار ، كانت مهمة هذا القسم الخاص جدًا ، هى إعداد الجواسيس ، للعيش والتعامل فى قلب (إسرائيل) ، دون أدنى خطأ ، ودون أن تحيط بهم الشكوك لحظة واحدة .. ومن بين الشبان ، الذين يتم تدريبهم فى هذا القسم ، وقع الاختيار على (عمرو طلبه) بالتحديد ..

وفى ذلك الوقت ، كان (عمرو) شابًا فى العشرين من عمره ، طويل القامة ، وسيم ، جميل الملامح ، واضح الرجولة ، أنيق الملبس ، يمتلك ابتسامة ساحرة ، لا يمكنك إلا أن تلتفت

إليها ، وتشعر معها بالثقة والارتياح ، ويقال إن والده كان أحد كبار ضباط الجيش ، أو أحد الشخصيات العامة ، ولكن هذا لم يكن السبب الرئيسى فى اختيار (عمرو) بالذات لهذه المهمة ، أو حتى أحد أسباب هذا الاختيار ، وإنما الواقع أن (عمرو) كان طالبًا مجتهدًا فى القسم (٣ ج ا) ، يستوعب دروسه بسرعة ، ويمتلئ بالحماسة والوطنية ، ويتوق ويرحب بالمغامرة ، وينتظرها فى لهفة ..

ووضع رجال المخابرات (عمرو) تحت المنظار ـ على حد تعبيرهم ـ وراحوا يتابعون تطوراته فى اهتمام ، حتى اجتاز اختباراته المعقدة بنجاح كبير ، فى مارس ١٩٦٩ م ، وأثبت موهبته وتفوقه فى هذا المجال ، فتقرر إيفاده بأقصى سرعة إلى (إسرائيل) ، وبدأت عملية البحث عن ساتر مناسب لتغطية العميل ، وصنع تاريخ منطقى له ..

وكان الحظ فى خدمتهم هذه المرة ..

لقد وصلهم إخطار بوفاة يهودى مصرى فى (طنطا) ، يدعى (موسى زكى رافع) ، وأثبتت تحرياتهم أن (موسى) هذا كان فى عمر (عمرو) تقريبًا ، ويماثله فى الطول والوسامة ، كما أنه ولد فى حارة اليهود القرائين ، وكان والده (زكى رافع) تاجر عاديات قديمة ، يقضى معظم وقته فى شوارع وأزقة القاهرة لشراء وبيع بضائعه ، ثم يعود فى آخر الليل إلى

منزله المتواضع ، ليملأ الأركان بما عثر عليه واشتراه ، ويبدأ فى فرزه ، استعدادًا لرحلة الغد ..

وضاق (موسى) الطفل بتلك الحياة ، وبالأكوام القديمة ، التى تفوح منها الروائح السخيفة ، فى كل ركن من أركان المنزل ، خاصة وهو يحيا فى المنزل وحيدًا ، بعد وفاة أمه ، وانشغال والده الدائم عنه ..

وذات يوم ، جمع (موسى) حوائجه القليلة ، وهرب من المنزل ، واختفى تمامًا ، وراحت النسوة يتحسرن على جماله وذكائه ، ولكن أحدًا لم يستطع الاهتداء إليه ، حتى والده ، الذى هدّه الحزن على ولده الضائع ، فتوفى بعد اختفائه بثلاثة أشهر ، ولم تعثر الشرطة على أقارب له ، فتم دفنه فى مقابر الصدقة ، واستولت الحكومة على ميراثه القليل ..

أما (موسى) نفسه ، فقد سافر صغيرًا إلى مدينة (طنطا) ، حيث تنقل بين عدد من المهن والأعمال الوضيعة ، حتى استقر فى عمل يدوى بشركة الزيوت والصابون ، ثم حصل على عمل فى شركة لنقل البضائع فى شارع البحر ، ولكنه لم يلبث أن أصيب بمرض صدرى ، مع الإرهاق وسوء التغذية ، فقضى نحبه فى هدوء ..

وهنا بدأ نسج الشخصية الجديدة التى سينتحلها (عمرو) ، الذى حفظ تاريخ (موسى زكى رافع) عن ظهر قلب ، وذهب

فى السادس من إبريل إلى حارة اليهود ؛ ليبحث عن المنزل رقم (١٩) ، ويبحث عن والده المزعوم (زكى رافع) ..

وأجاد (عمرو) دوره إلى حد كبير ، وهو يسأل الجيران فى لهفة عن والده ، ويبحث فى إصرار عمن يدله عليه ، حتى التقى بصاحب المنزل ، الذى أخبره أن (زكى رافع) مات بعد رحيله ، فانهار (عمرو) فى واحد من أبرع أدواره ، وراح يبكى فى تأثر ، حتى إن صاحب المنزل تفاعل معه ، وأخذ يواسيه ، ويعزيه فى وفاة والده منذ عدة سنوات ..

وعلى الرغم من أن متعلقات الأب لم تكن تساوى شيئًا يذكر ، إلا أن (عمرو) بذل جهدًا خرافيًا ، ودار فى ساقية الروتين عدة أيام ، حتى أمكنه استعادتها ، وهى لم تكن تزيد على بضعة جنيهات ، وبطاقة شخصية ، وصورة لطفل صغير ..

وفى أواخر مايو ، من العام نفسه ، حصل (عمرو) على وثيقة سفر صحيحة ، باسم (موسى زكى رافع) ، وسافر إلى (كوالالمبور) ، وهناك بذل كل جهده للحصول على عمل ، إلا أنه لم يوفق فى هذا قط ، وقضى شهرين كعاطل ، وهو يتردد بصفة منتظمة على مقهى (هنج كى) ، وهناك تعرف بحارًا إسرائيليًا دائم السكر ، يدعى (نصادوق) ، راح يغريه بالهجرة إلى (إسرائيل) ، و(عمرو) يبدى ترددًا ، حتى أعلن موافقته أخيرًا ، ووصل فى أحد أيام أغسطس إلى (حيفا) ،

حيث سجل اسمه كمهاجر جديد ، وسجله فى مكتب المهاجرين التابع للوكالة اليهودية ، وقضى أسبوعين يجول فى أنحاء (إسرائيل) ، ثم بدا وكأن الحال لم يرق إليه هناك ، فانطلق إلى (أثينا) وغاب فيها ستة أشهر ، ثم عاد فجأة إلى (إسرائيل) ؛ ليستكمل إجراءات الهجرة ..

وعلى الرغم من أنه من الواضح أن (عمرو) لم يقض تلك الأشهر الستة فى السياحة أو العبث فى (أثينا) ، إلا أن أحدًا لم يفصح قط عما فعله هناك ، أو عما تلقاه من تدريبات إضافية ، ولكن المهم أن (عمرو) اجتاز فى النهاية كل الإجراءات والاستجوابات ، الخاصة بالمهاجرين الجدد ، وأصبح مهاجرًا رسميًا فى قلب (إسرائيل) .. وطوال الشهر التالى ، تلقى (عمرو) عدة دروس ، فى مدرسة خاصة لتعليم اللغة العبرية ، على الرغم من أنه لم يكن يحتاج إلى هذا ، ثم رحل إلى (القدس) بحثًا عن عمل مناسب ، وهناك حصل على وظيفة إدارية فى مستشفى (أتينم) ، حتى يقضى نهاره كله فى العمل ، ويقضى ليله نائمًا على مقعد قديم ، فى ركن المطبخ ..

ومع أسلوبه المهذب ، وبساطته الجذابة ، ربطته الصداقة بطبيب يهودى أمريكى المولد ، أشفق عليه ، فنقله للعمل كمساعد له ، وسمح له بالإقامة فى غرفة ملحقة بجراج منزله رقم (١٣) فى شارع (أحاد هاعام) ، وسط ضاحية (تلبيا) فى (القدس) ..

وشعر (عمرو) بارتياح كبير ، وهو يعمل مع الدكتور (مورتن) ، الذى اتخذ منه صديقًا يأنس إليه ، ويغدق عليه المنح والمكافآت ، كلما سنحت الفرصة ..

ولكن دوام الحال من المحال ..

لقد أنهى الدكتور (مورتن) عقده مع المستشفى ذات يوم ، وحصل على وظيفة أكبر فى مستشفى متواضع ، فى أقصى الشمال ، بضعف مرتبه تقريبًا ، فرحل إلى هناك ، وترك خلفه (عمرو) ، الذى رحل بدوره إلى (تل أبيب) ، بحثًا عن عمل آخر ، فى أواخر عام ١٩٧٠ م ..

وفى (تل أبيب) كان لوسامة الفتى الفضل الأكبر ، فيما حصل عليه من عمل ، فقد وقعت فى غرامه ناشرة (إسرائيلية) ، تدعى (شوشانا بيرسولتز) ، ومنحته وظيفة كاتب حسابات فى دار (أومانوت) للنشر التى تمتلكها ــ وقررت أن تحصل منه على وسامته وشبابه فى المقابل ، حتى ظهرت أخرى ، لتنافسها فيه ، وهى عضو (الكنسيت) (سوناتا فيرد) ، زوجة الدكتور (لينتال) ..

ولقد لمحت (سوناتا) (عمرو) مرة واحدة ، وقررت أن تحصل عليه ، فأكثرت من ترددها على دار النشر ، بحجة مناقشة (شوشانا) فى أمر لجنة التربية ، التى تعمل الأخيرة كمقررة لها ، ولكن (شوشانا) انتبهت لهدفها الحقيقى ،

وتشاجرت معها علانية ، فما كان من (عمرو) ، الذى درس الموقف جيدًا ، إلا أن انصرف مع (سوناتا) ، وأعلن هجره للعمل مع (شوشانا) ، وقطع كل علاقاته بها ..

وقبل أن تنعم (سوناتا) بانتصارها ، تم استدعاء (موسى) ، أو (موشى) ـ كما تنطق فى (إسرائيل) ـ لأداء الخدمة العسكرية ، وليقضى الفترة الإجبارية كجندى فى جيش الدفاع الإسرائيلى ..

وكان هذا هو الهدف الرئيسى ، الذى كان يسعى إليه (عمرو) ، منذ وطأت قدماه أرض (إسرائيل) ، وعلى الرغم من هذا ، فقد طلب من (سوناتا) أن تتوسط له ، مستغلة موقعها كعضو فى (الكنيست) ، وصداقتها لأصحاب النفوذ ، حتى لا يتم إرساله إلى خط المواجهة ..

ولم تتردد (سوناتا) لحظة ، فلم تكن مستعدة أبدًا لإبعاد صديقها الحميم عنها ، ونجحت وساطتها ، فبقى (موشى) فى (تل أبيب) ، وتم تجنيده فى إدارة الرقابة البريدية العسكرية ..

وكان هذا أكثر مما يحلم به (عمرو) ..

لقد أصبح من حقه أن يطلع رسميًا ، على كل ما يحويه البريد العسكرى الإسرائيلى من أسرار وأخبار ..

وابتسم الرجال فى (القاهرة) فى ارتياح ..

لقد حققوا ما كانوا يسعون إليه منذ البداية ، ووضعوا أرجلهم على أول الطريق ، وحانت لحظة التخطيط لدفعه إلى

الموقع الأكثر فائدة ، والاستفادة من وجوده فيه إلى أقصى حد ، خاصة وأنهم قد أصبحوا فى بدايات عام ١٩٧٢ م ، حيث بدأ العد التنازلى والاستعداد المنظم الدقيق لحرب أكتوبر ..

وفى منتصف عام ١٩٧٢ م ، وصلت إلى (موشى) علبة صغيرة من الجلد تحوى طاقمًا حديثًا أنيقًا من أدوات الحلاقة ، ولكنه لم يكد يتسلمه ، حتى استعاد كل ما تلقاه من تدريبات ودروس ، فى القسم (٣ ج ١) ، وراح يستخرج من طاقم الحلاقة أجزاء جهاز لاسلكى دقيق ، متناه فى الصغر ، وأخذ يعيد تركيبه فى سرعة ومهارة ، ثم استخدم عدسة مكبرة ، لقراءة الشفرة السرية ، التى تمت كتابتها بدقة مذهلة ، على شفرات الحلاقة ..

ومنذ ذلك الحين ، أصبح (عمرو طلبه) يحمل الرقم الكودى (١٠٠١) ، وأصبح عليه أن يبدأ ذلك العمل ، الذى تم زرعه فى قلب الجيش الإسرائيلى من أجله ..

ولكن أول أمر تلقاه (عمرو) ، أثار دهشته إلى حد كبير ، فقد طلبوا منه فى (القاهرة) أن يقوم بعمل استفزازى ضد (سوناتا) ، يدفعها للغضب ، وللانتقام منه بأى شكل ..

وعلى الرغم من أن هذا لم يرق أبدًا للعميل (١٠٠١) ، إلا أنه نفذ الأوامر بمنتهى الدقة ، وأثار غضب (سوناتا) فى عنف ، حتى إنها صرخت فى وجهه ، وطردته من منزلها ، وهددت بالانتقام منه ..

ولقد حولت تهديدها هذا إلى واقع بسرعة مدهشة ، فلم يمض أسبوع واحد ، حتى تم نقل (موشى زكى رافع) بصورة تعسفية ، من (تل أبيب) ، للعمل كرقيب للبريد فى مركز العمليات المقام فى (أم مرجم) على الجبهة مباشرة ..

وفى نفس اللحظة التى كانت (سوناتا) تبتسم فيها فى تشف ، لما فعلته بصديقها السابق ، كان هذا الصديق يستخدم اللاسلكى الدقيق ، ليرسل إلى (القاهرة) فيضًا من المعلومات التفصيلية الدقيقة .. عن جبهة القناة ، ووحدات الجيش الإسرائيلى هناك ، ومراكز قيادتها ، وأسماء الضباط والجنود ، ومواقع الأسلحة والمدفعية والمدرعات ، بل ويبلغها بالأوامر السرية أولاً فأولاً ، مما يفحص فى البريد بحكم موقعه ..

وكان الرجال في (القاهرة) يتلقون المعلومات التى يرسلها (عمرو) أولاً فأولاً ، ويقومون بتحليلها وتنسيقها ، وإرسال التقارير إلى قيادات الجيش والقيادات السياسية ، التى تعيد دراستها ، وتضعها فى الاعتبار ، وهى تخطط وتستعد لشن الحرب الحاسمة ، فى السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ م ..

وفى الثانية إلا خمس دقائق بالتحديد ، من ظهر السادس من أكتوبر ، تلقى (عمرو) رسالة من القيادة فى (القاهرة) ، يطالبه فيها الرؤساء بالتوجه إلى المبنى الخشبى ، الذى تحتله النقطة الطبية فى الموقع (أم مرجم) ، حيث إنه مقام على

مرتفع يبعد مائتى متر عن غرفة العمليات ، التى كانت أحد الأهداف الرئيسية لغارات الطيران المكثفة ، فى لحظة نشوب الحرب ..

ولكن (عمرو) لم يستطع تنفيذ الأمر لسبب ما ، أو أنه شعر أن المعركة على الأبواب ، وقرر أن يواصل دوره حتى النهاية ، مهما كان الثمن ..

واندلعت الحرب ، وألقى (عمرو) الشفرة جانبًا ، وكأنما لم يعد يعنيه كشف أمره ، وأرسل إلى (القاهرة) ، بنتائج التدمير ، الذى لحق بغرفة العمليات ، فى الثانية والنصف ، ثم أبلغهم بأنه تلقى أمرًا مع جماعة البريد ، للانتقال إلى المواقع الأمامية ، وكان ذلك فى الثالثة إلا الربع ، وعاد يعلن أن قافلة السيارات تتعرض لقصف شديد ، فى الرابعة والنصف ، ثم قال إن قافلته تتجه نحو القنطرة شرق ، وأنه سيرسل المزيد من المعلومات تباعًا ..

ولكن إدارة التجسس لم تكن تطلب منه أية معلومات إضافية ، بل كان رجالها يحثونه فى كل مرة على الانفصال عن الباقين ، والتوجه إلى نقطة آمنة ، حرصًا على حياته ، وحفاظًا عليه ، حتى يتم التقاطه ، إلا أنه أبى أن ينسحب تمامًا ، وقرر أن يهب نفسه للوطن ، حتى آخر لحظة فى عمره ، وآخر قطرة فى حياته ..

وفى آخر رسائله ، قال (عمرو) إنه يرقد على رمال (سيناء) ، وأن القصف شديد للغاية ، والطائرات المصرية تسحق أسراب ومدرعات الإسرائيليين سحقًا ..

والعجيب أنه نقل هذه الرسالة بعبارات تفوح منها رائحة الزهو والظفر والسعادة ، على الرغم من أن القصف كان ينهال عليه أيضًا ..

وبعد رسالته الأخيرة ، استقر (عمرو طلبة) على رمال (سيناء) ، وتوقفت رسائله إلى إدارة التجسس ، وسالت دماؤه الطاهرة ؛ لتروى رمال الوطن ، وهى تحمل توقيعه الأخير ، الذى شطب من الوجود اسم (موشى رافع) ، وحمل التوقيع الحقيقى ..

توقيع الشهيد ١٠٠١

★ ★ ★

وحان دور النسور

وحان دور النســور !

خيم صمت مثير على قاعة الكنيست الإسرائيلى ، فى ذلك اليوم فى نهاية فبراير عام ١٩٧٣م ، وتطلعت العيون كلها إلى وزير الدفاع ، آنذاك (موشى ديان) وهو يتنحنح ، ويراجع أوراقه ، استعدادًا لإلقاء بيان واف فى المجلس ، حول واقعة إسقاط طائرة الركاب المدنية الليبية ، والتى قذفتها طائرات الفانتوم الإسرائيلية المقاتلة بصواريخها ، مما كان له صدى مفعم بالغضب والدهشة والازدراء ، فى كل أنحاء العالم المتحضر .

ولثوان أدار (ديان) عينيه فى وجوه الجميع ، ثم بدأ حديثه وراح يلقى بيانه ، الذى أشار فيه إلى الطائرة الليبية التى قد انحرفت عن مسارها ، نتيجة خطأ ملاحى وتم رصدها وهى على ارتفاع أربعة وعشرين ألف قدم ، فوق مستوطنة (تسين) ، غرب (رأس سدر) وتطير بسرعة سبعمائة وخمسين كيلومترًا فى الساعة فى اتجاه الشمال الشرقى ، وذلك فى تمام الواحدة وأربع وخمسين دقيقة ، بعد ظهر الأربعاء ٢١ فبراير ١٩٧٣ ، ولقد أوضح الرادار الإسرائيلى مسار الطائرة فى الواحدة وست وخمسين دقيقة بالضبط وصدرت الأوامر فى تمام الواحدة وتسع وخمسين دقيقة لطائرتين من طراز (فانتوم) ، فانطلقتا نحوها ،

وراحتا تدوران حولها لسبع دقائق ، قبل أن تطلق كل منهما صواريخها نحوها ، وتسقطها فى الثانية وإحدى عشرة دقيقة ، على مسافة عشرين كيلومترًا شرق القناة ..

كان بيان وزير الدفاع الإسرائيلى شاملاً وافيًا إلا أنه لم ينجح أبدًا فى إخماد نيران الغضب والازدراء ، التى ملأت النفوس والقلوب ، بسبب هذا الأسلوب الوحشى الفظ وذلك الاستهتار المستفز بأرواح المدنيين الأبرياء وحياتهم ..

وكإجراء طبيعى ، راحت كل الدول والجهات تراجع البيان وعباراته ومعانيه ، وتسعى لدراسته وتحليله واستخلاص ما يحويه ، وقراءة ما بين سطوره .

وبالذات فى المخابرات العامة المصرية ..

ففى ذلك المكان ذى الطبيعة الخاصة ، كان التحليل واستخلاص المعلومات يتخذ صورة أكثر أهمية وخطورة ..

لقد عكف فريق من الخبراء على دراسة البيان للحصول على معلومات خاصة ، لم ترد فى ذهن وزير الدفاع الإسرائيلى ، وهو يعد البيان ويلقيه .

واستخلص ضباط المخابرات الخبراء أن الرادار الإسرائيلى يحتاج إلى دقيقتين كاملتين ، لتحديد مسار طائرة تسير بسرعة سبعمائة وخمسين كيلومترًا فى الساعة ، وأن قيادة السلاح الجوى الإسرائيلى تحتاج إلى ثلاث دقائق لاتخاذ وإصدار قرار ما ، فى ظروف الطوارئ .

وكان هذا أبسط ما يمكن استخلاصه من البيان ، وأول ما تصدر تقرير المخابرات ، الذى تم إرساله إلى الجهات المسئولة فى هذا الشأن .

وأعادت هذه الجهات المسئولة ، وعلى رأسها قيادة القوات الجوية المصرية ، دراسة هذه النتائج ؛ للاستفادة منها فى إعداد وتطوير خطة أحيطت بأقصى قدر ممكن من السرية وإجراءات الأمن ..

خطة الضربة الجوية الأولى ، المنتظر حدوثها ، عندما تبدأ الحرب الشاملة لاستعادة الأراضى التى احتلها العدو الإسرائيلى فى نكسة يونيو ١٩٦٧ .

وفى ارتياح ، راجع أحد ضباط المخابرات كل النتائج والمعلومات للمرة الخامسة ، قبل أن يسترخى فى مقعده ، ويقول لزملائه :

عظيم .. المعلومات مفيدة بحق ، ولكننا مازلنا نحتاج إلى المزيد من المعلومات ، عن سلاح الجو الإسرائيلى ، قبل أن يحين الموعد المنتظر .

وافقه أحد زملائه بإيماءة من رأسه وهو يقول :

بالتأكيد .. المعلومات لا ينبغى أن تنقطع أبدًا ، حتى اللحظة الأخيرة .

تنهد زميل آخر ، ولوح بكفه قائلاً :

ـ من حسن الحظ أن لدينا مصدرًا دائمًا للمعلومات فى قيادة سلاح الجو الإسرائيلى .

أومأ الأول برأسه موافقًا ، واسترخى أكثر فى مقعده ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واثقة ، وهو يسبل جفنيه مغمغمًا :

ـ نعم .. العمة (استير) .

وانتقلت عدوى الابتسام إلى الجميع ، عندما أتى على ذكر واحدة من أفضل عمليات المخابرات المصرية فى قلب (إسرائيل) ..

وأكثرهن حماسة ..

و(استير) هذه يهودية من أصل عراقى ، سعى والدها فى شبابه للعمل فى مجال المقاولات والبناء ولكنه ـ على عكس أقرانه ـ لم يحقق فيه نجاحًا ملحوظًا ، فاكتفى أخيرًا بممارسته من الجانب الأضعف كعامل بناء بسيط ، والتقى فى أثناء عمله بموظفة يهودية فى أحد المتاجر الصغيرة ، وربطتهما قصة حب تقليدية انتهت بالزواج وأنجب ثلاثة أولاد وبنتًا واحدة .

وعندما تفتحت عينا (استير) على الدنيا ، وجدت والديها يعملان طوال الوقت تقريبًا ، ثم يحصلان فى النهاية على ما يكفى لحياة بسيطة متواضعة ، لا مجال فيها للاسترخاء أو الرفاهية ..

وعلى عكس أشقائها الثلاثة كانت (استير) شديدة الطموح ،

لا يمكن أن تقتنع أبدًا بحياة محدودة ، أو وظيفة بسيطة بلا مستقبل ، لذا فقد أقبلت على دراستها بشغف واضح ، حتى بلغت المرحلة الثانوية ، وبذلت قصارى جهدها للالتحاق بالجامعة ، على الرغم من قلة موارد الأسرة ، فخرجت للعمل ، وهى بعد فى الثامنة عشرة من عمرها ، ونجحت فى التوفيق بين العمل والدراسة ، على الرغم مما تتجشمه من متاعب ومصاعب ، حتى حصلت على شهادتها الجامعية ، وتفوقت بهذا على أشقائها ، الذين اكتفوا من الغنيمة بالشهادة المتوسطة ، والتحق اثنان منهم بأعمال البناء مع والدهما ، فى حين حصل الثالث على وظيفة بسيطة فى مصنع بدائى ..

وفور حصولها على شهادتها الجامعية ، راحت (استير) تبذل قصارى جهدها ، وتسعى فى كل الاتجاهات ، للبحث عن عمل جديد بأجر أفضل يتناسب مع ما أحرزته من نجاح ..

ولكن النتائج جاءت مخيبة لآمالها على نحو كبير .

ففى تلك الفترة لم يكن سوق العمل منتعشًا فى (العراق) ، ولا حتى فى العاصمة (بغداد) ، مما زاد من نسبة البطالة وصار من العسير على أى شخص مهما بلغت مؤهلاته ، أن يحصل على عمل جيد فى مكان ما ..

وهكذا وجدت (استير) نفسها وبعد أربعة أعوام من الكفاح ، مازالت لم تحقق أى تقدم فى مجال العمل ، أو تقترب حتى من حافة أحلامها وطموحاتها ..

ولم يكن أمامها ، على الرغم من طموحها ، إلا أن تقنع بما حصلت عليه ، وتستسلم لشعور سخيف بالإحباط راح يتسلل تدريجيًا إلى أعماقها ، ويسيطر على كيانها كله ..

ووسط كل هذا ، اندلعت حرب عام ١٩٤٨م .

وبكل اللهفة والشغف ، راحت (استير) تتابع أخبار الحرب كما فعل اليهود فى كل أنحاء العالم ، وهوى قلبها بين قدميها لبعض الوقت ، ثم لم تلبث أن رقصت فى سعادة عندما انحسمت الأمور لصالح اليهود ، وتم إعلان قيام (إسرائيل) ..

كانت (استير) فى السابعة والعشرين من عمرها ، عندما بدأ حلم الهجرة إلى (إسرائيل) يراود اليهود فى كل الدول ، وراح ذلك الحلم ينمو فى أعماقها ، تذكيه الدعايات المكثفة لمكاتب الهجرة اليهودية ، التى راحت تصف الدولة الجديدة بأنها أرض الميعاد ، وأمل المستقبل ، وجنة اليهود من كل الجنسيات ..

وعلى الرغم من لهفتها الشديدة للهجرة إلى (إسرائيل) ، إلا أن الأمر لم يكن أبدًا بسيطًا ، حتى إن (استير) احتاجت إلى أربع سنوات كاملة ، قبل أن يتحقق حلمها ، وتهاجر إلى (إسرائيل) فى أواخر عام ١٩٥٢م ، وهى تخطو خطواتها الأولى فى عامها الحادى والثلاثين .

ومنذ الساعات الأولى تحطم الحلم .

لم تكن (إسرائيل) هى الحلم الموعود كما قالت الدعاية ، ولم تكن جنة اليهود كما وصفها رجال الوكالة اليهودية ..

ليس بالنسبة للعراقية (استير) على الأقل .

لقد ظلوا يستجوبونها فى (تل أبيب) لثلاث ساعات كاملة ؛ ليتأكدوا من أنها ليست جاسوسة تسعى لدخول (إسرائيل) .

ولأنها عراقية المولد ..

وكان هذا أول مشهد للتفرقة العنصرية الإسرائيلية ، بين اليهود الشرقيين (السفرديم) ، واليهود الغربيين (الاشكنازيم) ..

فكل اليهود المهاجرين من (أوروبا) و(أمريكا) لم تكن إجراءات دخولهم إلى (إسرائيل) تستغرق أكثر من دقائق معدودة ، فى حين تمتد لساعات بالنسبة للقادمين من الدول العربية والإفريقية ..

وخرجت (استير) من الاستجواب مرهقة ..

وغاضبة ..

وتضاعف غضبها بالتأكيد ، عندما ألقوها فى مستعمرة صغيرة نصف مجهزة ، ضمن عدد كبير من اليهود الشرقيين ، وكان عليها أن تعمل ليل نهار ؛ لتحظى بما لا يكاد يكفى مصروفاتها ..

وراح غضب (استير) ينمو ويتزايد يومًا بعد يوم ، وبدا

لها وكأن أحلامها كلها قد انطفأت ، وماتت ، ولم يعد باقيًا سوى دفنها إلى جوار طموحاتها ، فى مقبرة الفشل والضياع ..

ثم اندلعت حرب ١٩٥٦م .

ـ وعلى الرغم من أن (استير) قد فقدت حماسها أو كادت ، تجاه الحلم الإسرائيلى ، إلا أنها شعرت بسعادة بالغة مع اندلاع هذه الحرب ..

هذا لأن الحرب جعلتها تحصل على وظيفة سكرتيرة عسكرية فى إحدى القواعد العسكرية الإسرائيلية ، القريبة من خط النار ..

وكانت هذه بداية لمرحلة جديدة فى حياة (استير) وتاريخها ..

لقد أصبحت جزءًا من المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ، التى قالت عنها الدعاية إنها اسطورة مخيفة لا تقهر ..

ومرة أخرى ، أدركت (استير) أن الدعايات تحمل فى المعتاد ، الكثير والكثير من الكذب والنفاق والتجميل ، وأن الحقيقة دائمًا تختلف .

ـ مرة أخرى أيضًا .. لاحظت العنصرية الشديدة فى التعامل والتفرقة الواضحة بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين ..

وفى هذه المرة ، كانت النظرة عن قرب ..

وبدقة أكثر .

كل المراكز الحساسة ، والمناصب الكبيرة لا يحصل عليها إلا اليهود الغربيون ..

وهذا يعنى أن طموحاتها قد وئدت فى أرض الميعاد ..

وأن أحلامها القديمة تحولت فى (إسرائيل) إلى كوابيس ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد تشبثت (استير) بعملها ، الذى لم يعد أمامها سواه ، والذى لن تحصل على مثله بسهولة خاصة وقد تجاوزت الخامسة والثلاثين من عمرها ، دون أن تحقق أية طموحات ..

ومن هذا المنطلق ، راحت (استير) تبذل كل الجهد فى العمل ، حتى صارت واحدة من أفضل وأبرع السكرتيرات العسكريات ، وبلغت أخبارها كبار القادة ، مما أهلها للعمل كسكرتيرة عسكرية فى قيادة سلاح الجو الإسرائيلى ، فى أواخر عام ١٩٦٧م.

وكان هذا النجاح أمرًا غير مألوف فى عالم اليهود الشرقيين ..

ولكنه لم يكن سوى قطرة فى بحر طموحاتها ، التى لم تنجح فى نسيانها قط ، أو احتمال تحطمها وموتها ، فى أرض الميعاد المزعومة .

وعلى الرغم من وصولها إلى هذا المركز ، تضاعف شعور (استير) بالغضب من التفرقة العنصرية ، وبالتعاطف مع اليهود الشرقيين وبالرغبة فى القيام بأى عمل ، لتحطيم الغطرسة والغرور الإسرائيليين ..

وكانت هذه نقطة البداية ..

لقد قضت (استير) أسبوعًا كاملاً فى تفكير عميق ، قبل أن تحسم أمرها ، وتتخذ قرارها بالاتصال بالجهة الوحيدة التى يمكن أن تستفيد من موقعها ، ومما تحت يدها من وثائق ومعلومات ، لطعن العنصرية الإسرائيلية فى مقتل .

بالمصريين ..

ولا أحد يدرى كيف تم الاتصال بالضبط ، فلم يشر أحد إلى الحقيقة ، ولم يصرح بإعلانها قط حتى هذه اللحظة ، ولكن استنادًا إلى عمليات أخرى ، وإلى شيء من الخبرة النظرية فى هذا المجال لا بد أن ندرك أنه هناك مئات العيون للمخابرات المصرية ، فى كل مكان من العالم ، ودون استثناء (إسرائيل) بالطبع ، وأن مهمة هذه العيون لا تقتصر على رصد الأحداث ، وجمع المعلومات وإرسالها بانتظام إلى (القاهرة) ، وإنما يمتد عمل بعضها إلى فرز عدد من العناصر ، فى المجتمعات التى تتواجد فيها ، ومراقبتها بدقة وعناية ، والتقرب منها ، إذا ما لزم الأمر ، لسبر أغوارها ، والغوص فى أعماقها ، وكشف طبيعتها ، وما يتفاعل فى نفسها من متاعب ومشاعر وانفعالات ..

ثم اختبار العناصر الصالحة منها ، وترشيحها للعمل لحساب المخابرات المصرية ..

ومن هذا المنطلق ، يمكن القول إن (استير) لم تكد تتخذ قرارها هذا ، حتى دفعت الظروف أمامها بفتاة مرحة ، وارتبطت بها منذ فترة بصداقة وثيقة لتهمس فى أذنها بما جعل جسدها يرجف ، وعقلها يصرخ بكلمة واحدة ، لم تنجح فى الفرار من بين شفتيها قط ..

المصريون ..

وبسرعة غير مسبوقة ، وعلى نحو قد يدهش العاملين فى هذا المجال ، ويثير تساؤلاتهم وحيرتهم ، وبمهارة وخبرة غير عاديين من الجانب المصرى أصبحت (استير) تعمل لحساب مخابراتنا بحماس مدهش ..

وعلى مدى سنوات عملها لحساب المخابرات المصرية ، قدمت (استير) إلى المصريين أكثر من أربعمائة وثيقة بالغة الأهمية والخطورة ، تكشف الكثير والكثير من أدق وأخطر أسرار سلاح الجو الإسرائيلى .

وفى نهاية سبتمبر ١٩٧٣م أبلغ المصريون (استير) بضرورة السفر إلى قبرص ، فى آخر رحلة صيفية ، من رحلات شركات (ماجى تورز) للسياحة ..

وشعرت (استير) بالقلق لهذا الأمر ، وقالت لعميل الاتصال فى قلب (إسرائيل) إنها ربما تعجز عن الحصول على إجازة فى هذا الوقت ، وعلى التصريح اللازم للسفر خارج

البلاد ، إلا أن العميل كرر مطلبه فى إصرار ، وطلب منها فى صراحة ألا تشغل نفسها بمثل هذه الأمور ، وأن تقدم الطلب إلى رئيسها المباشر فحسب ..

وكم كانت دهشة (استير) عارمة عندما تمت الموافقة على طلب الإجازة وتم إصدار التصريح اللازم لسفرها بسرعة قياسية ، بالنسبة لهذه الفترة من العام ، وللإجراءات التقليدية المتبعة فى الجيش الإسرائيلى ..

بل وتضاعفت دهشتها مرتين على الأقل ، عندما وجدت اسمها فى الكشف الخاص بالرحلة السياحية ، التى ستسافر إلى (قبرص) ، ظلت (استير) تتساءل عن سر هذه الرحلة المفاجئة ، وعما يريده منها المصريون .

وفى (قبرص) ، استقبلها ضابط مخابرات مصرى بابتسامة عريضة ، وقادها إلى طائرة أخرى من طائرات (مصر للطيران) وهو يقول : مرحبًا أيتها العمة (استير) .. استعدى .. سنسافر على الفور إلى (مصر) ..

ارتفع حاجبا العمة (استير) فى دهشة بالغة ، وهمت بالتساؤل عما يعنيه هذا ، إلا أنها لم تلبث أن أطبقت شفتيها ، وسارت إلى جوار ضابط المخابرات المصرى فى صمت نحو الطائرة الرابضة فى مطار (قبرص) ، والتى حلقت بعد أقل من نصف الساعة ، فى طريقها إلى (القاهرة) .

وهنا لم تكن الأمور أقل إثارة للدهشة ، فقد استقبلها واحد

من كبار ضباط الجهاز ، ورحب بها فى حرارة ، وشكرها على كل ما قدمته لوطنه من خدمات ، ثم أخبرها أنها ستحصل مقابل هذا ، بالإضافة إلى كل ما حصلت عليه فى السابق ، على شقة أنيقة فى حى (الزمالك) الراقى ، وعلى معاش محترم ، وهوية جديدة ، وكل ما يكفل لها حياة رغدة كريمة .

وعلى الرغم من حيرة (استير) ، وتساؤلها عن السر فى تقاعدها ، فى هذا التوقيت بالذات ، إلا أنها لم تلق أية أسئلة ، وتسلمت شقتها الجديدة ، وهى تقدم الشكر للجميع على ما منحوها إياه ..

وفى نفس اللحظة ، التى أغلقت فيها بابها تناهى إلى مسامعها صوت هليوكوبتر تحلق على ارتفاع منخفض ، ولم يدر بخلدها قط أن تلك الهليوكوبتر تضم اللواء ـ حينذاك ـ (محمد حسنى مبارك) قائد القوات الجوية ، الذى ينتقل كنحلة نشطة بين القواعد الجوية البعيدة عن العاصمة ؛ ليتأكد بنفسه من أن الاستعدادات النهائية قد استكملت لإجراء مشروع تدريب بالذخيرة الحية تحدد له صباح السبت ..

وكان هذا جزءًا من خطة التعمية ، التى اشتركت مع المعلومات التى أرسلتها العمة (استير) ، والمعلومات التى أرسلها غيرها ، من عملاء المخابرات المصرية فى الساعات الأخيرة ، قبل اللحظة الحاسمة .

وفى اليوم التالى مباشرة ، صدرت الأوامر ببدء الخطة (بدر) ..

وحان دور النسور ..

وفى الثانية وأربع دقائق بالضبط حلقت أول موجة من الطائرات على ارتفاع خمسة عشر مترا من سطح الأرض ، فى اتجاه الشمال الشرقى ، مخلفة ضجة هائلة ، قبل أن تبدأ فى قصف أهدافها بدقيقة واحدة .

وكانت هذه هى الخطوة الأولى فى الطريق ..

طريق النصر .

* * *



لم تكد عقارب الساعة تعلن تمام الثانية صباحًا ، من بدايات يوم السادس من أكتوبر ، عام ١٩٧٣ م ، فى إحدى القواعد الجوية ، غرب مدينة (القاهرة) ، حتى استعد طياروها للذهاب إلى ميس الضباط لتناول طعام السحور ، ليوم العاشر من رمضان ، طبقًا لبرنامجهم اليومى شديد التنظيم والدقة ، وما إن اجتمعوا حول موائد الطعام ، حتى دارت بينهم تلك الأحاديث التقليدية ، حول الاستعدادات للحرب ، والتدريبات اليومية ، والمقارنة بين قوة طائراتهم والطائرات الإسرائيلية ..

وفى نفس اللحظة ، التى دارت فيها هذه الأحاديث ، كان الجندى المكلف بحراسة القاعدة يراقب فى اهتمام مشوب بالقلق سيارة (جيب) عسكرية ، تتجه نحوه مباشرة ، يقودها ضابط واحد بلا مرافقين ، وهو يخفى وجهه بقبعة عادية ، من قبعات الضباط الصغار ، ويخفى زيه العسكرى ورتبته بمعطف رسمى ، جعل الحارس يحار فى تحديد هويته بالضبط ، فما كان منه إلا أن شهر سلاحه فى وجهه ، وهو يصرخ بصوت هادر :

ـ قف .. كلمة سر الليل ..

أوقف الضابط سيارته أمامه ، وألقى إليه كلمة السر الصحيحة فى هدوء وبساطة ، و ...

واتسعت عينا الجندى فى دهشة وانبهار ، وهو يحدق فى وجهه ذلك القادم ، وقد تعرف ملامحه ، ثم لم يلبث أن أفسح له الطريق فى سرعة واحترام ، وهو يؤدى التحية العسكرية فى حرارة .

ورد الضابط تحيته فى بساطة ، وهو ينطلق بسيارته مرة أخرى إلى قلب القاعدة ، ويتجه بها إلى ميس الضباط مباشرة ، وعندما أوقفها هناك ، فى موضع لا يسمح لأى مراقب برؤيته ، خلع معطفه الرسمى ، واستبدل قبعة بأخرى تتناسب بغصن الزيتون الذهبى على مقدمتها مع الرتبة التى يحملها على كتفيه ..

رتبة اللواء ..

وبخطوات واسعة واثقة قوية ، وقامة مشدودة ممشوقة ، عبر اللواء مدخل ميس الضباط ، وابتسم وهو يقول :

ـ صباح الخير يا رجال ..

وكانت دهشة الطيارين عارمة بالفعل ، وهم يحدقون فى وجهه ، ثم يهبون واقفين ، ويؤدون التحية العسكرية فى حرارة بالغة ، وكل منهم يتساءل فى أعماقه عن سر تلك الزيارة المباغتة ، فى الساعات الأولى من الصباح ، دون أية إشارة مسبقة لهذا ..

فالرجل الواقف أمامهم ، كان أعلى رتبة فى القوات الجوية ..

كان اللواء (محمد حسنى مبارك) قائد القوات الجوية (آنذاك) شخصيًا .. ولم تمض لحظات على وصول القائد ، حتى انضم إلى طياريه على مائدة السحور ، ويشاركهم أحاديثهم حول الاستعدادات للحرب ، وقوة الطيران ، وغيرها ..

ثم انتقل الحديث إلى الحرب نفسها ، وعلى نحو شحذ حواس الجميع ، وجعلهم يدركون جيدًا أن الدور الذى تدربوا عليه كثيرًا وطويلاً قد حان ..

وأن الحرب الفعلية لن تلبث أن تندلع ..

وفى غضون ساعات قلائل ..

وبينما يستعد نسور (مصر) لضربتهم الأولى .. التى ستعلن بدء الحرب ، كانت هناك حرب شعواء أخرى تواصل اندلاعها ، وتكثف قوتها أكثر وأكثر ، فى تلك الساعات الأخيرة ..

حرب المعلومات ..

ففى قلب (إسرائيل) نفسها ، لم يغمض جفن لعملاء المخابرات ، الذين بذلوا جهدًا خرافيًا فى الأيام القليلة السابقة ، لمراقبة الموقف العسكرى ، وأية استعدادات أو تغيرات ، قد تشير إلى علم العدو أو حتى شكوكه فى الخطوة القادمة ..

ومن بين هؤلاء العملاء ، كان العميل رقم (ل ٥٦٤م) كان أحد خبراء الطيران فى الجيش الإسرائيلى ، فقد كان من

الطبيعى أن تقتصر مهمته على جمع كل المعلومات الخاصة بسلاح الطيران هناك ..

وفى يوم الثلاثاء الثانى من أكتوبر ١٩٧٣ م ، بالتحديد ، بثت المخابرات المصرية رسالة لاسلكية مهمة لعميلها (ل ٥٦٤ م) ، فى قلب (إسرائيل) تطلب منه فيها الإفادة عن أية تحركات مفاجئة فى تشكيلات سلاح الجو الإسرائيلى ، اعتبارًا من لحظة استقباله لهذه الرسالة ..

وأن يصبح هذا هو هدفه الرئيسى حتى إشعار آخر ..

و (ل ٥٦٤ م) لم يكن أبدًا عميلاً عاديًا للمخابرات المصرية ، فى قلب (إسرائيل) ..

لقد ولد ونشأ فى إحدى الدول الأوروبية ، حيث تلقى تعليمًا جيدًا ، أتاح له الحصول على شهادة متقدمة فى هندسة الطيران ، كان المفترض أن تمنحه وظيفة كبيرة بدخل ممتاز ..

ولكن هذا الحلم لم يتحقق ..

ففى تلك الفترة ، فى منتصف الخمسينيات ، لم تكن دولته ، التى تلتئم جراحها فى بطء ، بعد الحرب العالمية الثانية ، تمتلك سلاحًا جويًا ، يحتاج إلى مثل هذا التخصص الدقيق ..

وهكذا ، التحق (ل ٥٦٤ م) بوظيفة عادية ، فى واحدة من شركات الطيران المدنى ، إلا أنه لم يلبث أن أدرك أن معلوماته وقدراته تفوق بكثير احتياج الطائرات المدنية ، وأنه لن يحقق

ذاته ، أو يؤدى العمل الذى يحلم به ، إلا لو حصل على فرصة عمل فى الولايات المتحدة الأمريكية .. أو هاجر إلى (إسرائيل) ..

وفى تلك الفترة بالتحديد ، لم يكن الأمر يحتاج إلى كثير من التفكير ، فالدعايات اليهودية المكثفة ، كانت تقنع الجميع بأن (إسرائيل) هى الجنة الموعودة ، لكل يهود العالم ، وأن كل شخص يمكن أن يحصل فيها على فرصة العمر ..

وهكذا حزم الشاب المتحمس حقائبه ، واستعان بديانته اليهودية ، وسافر إلى (إسرائيل) ..

وعند وصوله ، لم يجد الشاب غضاضة فى سيل الأسئلة ، الذى انهمر عليه لساعتين كاملتين ، اقتناعًا منه بأن أرض الميعاد مستهدفة من جيرانها العرب ، وأنه من الطبيعى أن ينشط جهازها الأمنى ، بمنع أية محاولات لاختراق جنة الأحلام المنتظرة ..

ولكن الصدمة الحقيقية كانت عندما ألقوه فى مستعمرة صغيرة ، وأسندوا إليه عملاً زراعيًا بسيطًا ، لا يتناسب قط مع مؤهلاته وقدراته ..

وهنا فقط ، راح الشاب يعيد تقييم موقفه ..

ويعيد التفكير فى أرض الميعاد كلها ..

وفى الوقت ذاته ، راح يقاتل للفوز بالوظيفة التى يحلم بها طيلة عمره ..

ولم يتحقق الحلم إلا بعد خمس سنوات كاملة ، وفى عام ١٩٦١ م بالتحديد ، عندما التحق بوظيفة بسيطة فى القسم الهندسى بسلاح الطيران الإسرائيلى ..

وبذل الشاب قصارى جهده ليثبت أنه أهل للوظيفة وأنه يستحق ماهو أفضل منها ، ولكن أحدًا لم يلتفت إليه ، أو يهتم بأمره ، على الرغم من براعته الشديدة فى عمله ، وتفوقه الملحوظ فيه ..

وفى بطء ، راح الشاب يترقى فى عمله ، كأى موظف عادى ، والحنق فى أعماقه يتزايد ويتزايد ، وأحلامه تتلقى الصفعة تلو الصفعة ، ولا أحد يرغب فى الالتفات إليه ، أو تقدير ما يفعله ..

ثم اندلعت حرب ١٩٦٧ م ، التى حققت فيها (إسرائيل) انتصارًا ساحقًا ، أصاب جنرالاتها بزهو لامثيل له ، وأسكرهم بنشوة النصر ، فراحوا يتخايلون ، ويعلنون الظفر والنشوة فى كل موقع وكل لحظة ..

وفى العام نفسه ، أصبح الشاب ــ رسميًا ــ أحد خبراء الطيران ، فى سلاح الجو الإسرائيلى .. إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، لم يعامل كما يستحق ، أو كما يتناسب مع مؤهلاته الفعلية ، وقدراته المتميزة ..

وهنا ، تفجرت ثورته فى أعماقه ، وبدأ يبغض المجتمع الإسرائيلى ويستنكره ، ويضيق بزهو الجنرالات ، الذى جعلهم

يتصورون أنهم فوق الجميع ، وجعلهم يسيئون معاملة الكل على نحو مستفز ، ويدعون أنهم وحدهم سبب كل ما تحقق من انتصارات ..

وفى حسم ، اتخذ الشاب قراره بالعمل لحساب المصريين ..

ولسبب ما ، كان يثق تمام الثقة ، بأن نكسة يونيو لن تكون نهاية الصراع ، وأن المصريين قد تلقوا ضربة عنيفة ، ولكنهم لم يسقطوا ، وإنما نهضوا من كبوتهم ، وكلهم حماس للثأر مما حدث ، والانتصار فى الجولة القادمة والأخيرة ..

ولأن الشاب كان يحتل موقعًا جيدًا ، من وجهة نظر رجال المخابرات المصرية ، وربما لأن أمره لم ينكشف أبدًا ، أو لاعتبارات أخرى أمنية ، لم يكن من الممكن أن نحصل على أية تفاصيل خاصة بكيفية اتصاله بالمخابرات المصرية ، فى منتصف عام ١٩٦٨ م ، ولا بالوسيلة التى تم اتباعها للتحقيق فى صدق نيته ، ولكن المهم أنه مع بداية عام ١٩٦٩ م ، كان الشاب يعمل لحساب المخابرات المصرية ، بكل الحماس والإخلاص ، ويحمل الرمز (ل ٥٦٤ م) ..

نفس الرمز ، الذى ظل يحمله ، حتى نهاية عام ١٩٧٣ م ..

وطوال تلك الفترة ، التى عمل خلالها لحساب المخابرات المصرية ، لم يدخر (ل ٥٦٤ م) جهدًا ، لإمدادنا بكل ما يمكنه التوصل إليه من معلومات ، حول سلاح الجو الإسرائيلى ، وتطوراته ، وتحركاته المستمرة ..

وعلى الرغم من كل هذا ، فقد كانت للجواد الرابح كبوة ..

ومن سوء حظه أن هذه الكبوة جاءت فى أكثر الساعات حساسية ..

فى الساعات الأخيرة ، قبل اندلاع حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م ..

ففى العاشرة وثلاث عشرة دقيقة من صباح يوم الحسم ، وصلت إلى المخابرات المصرية برقية عاجلة ، من (ل ٥٦٤ م) تقول :

وصل إلى قاعدة (رامات دافيد) السربان (١٠٩) و (١١٦) ، بالإضافة إلى سرب الهليوكوبتر (١٢٤) .

وكان لهذه البرقية وقع الصاعقة على رءوس الجميع ، فى تلك الساعة بالتحديد ..

فما الذى دفع الإسرائيليين إلى تحريك هذه الأسراب الثلاثة إلى الشمال ؟!

هل انكشفت للعدو تلك الاستعدادات ، التى تجرى بنفس الدقة والتكتم ، فى الجبهة السورية ؟!

هل تسربت إليه أنباؤها ؟!

ولو أن هذا ما حدث ، فماذا عن الجبهة المصرية ؟!

هل يعنى كشف استعدادات الجبهة السورية أن الخطة كلها قد انكشفت عند الجانبين ؟!

وعلى أى حال كان الجواب ، وسواء أكانت الاستعدادات المصرية قد كشفت هى الأخرى أم لا ، فهذا يعنى أن العدو قد انتبه إلى الضربة القادمة ..

وهذا يفسد كل شىء ..

ولكن طبيعة العمل فى أجهزة المخابرات لم تكن تسمح بالتوقف عند أية نقطة ، مهما بلغ توتر الأمور ، وحساسيتها ..

وحتى فى الساعات الأخيرة ..

لذا ، فقد راح رجال المخابرات يعيدون دراسة وبحث الموقف ، فطلب أحدهم إعادة ترجمة البرقية فى قسم الشفرة ، فى حين راح آخر يراجع كل المعلومات المتوافرة ، حول الأسراب الثلاثة ..

والخطوة الأخيرة بالذات ، أضافت إلى الجميع المزيد من القلق والمزيد من القلق ..

فقد اتضح أن السربين (١٠٩) ، و(١١٦) ، مكونان من الطائرات المقاتلة (مستير ٤ أ) وهى طائرات شديدة البأس ، كما أن السرب (١٢٤) هو أحد ثلاثة أسراب من طراز الهليوكوبتر (سيكو رسكى) ، الخاصة بالقصف الجوى والإبرار ..

وهذا يعنى أن العدو قد انتبه ..

وتربص ..

وتكهرب الجو إلى أقصى حد ، مع ذلك التطور المباغت ، فى الساعات الأخيرة ..

لقد بدأ العد التنازلى بالفعل ، ولم يعد من السهل التراجع عن الموقف ، أو اختيار موعد بديل لشن الحرب ..

وفى حزم ، قال أحد ضباط المخابرات ، وهو يراجع البرقية للمرة العاشرة ، وماذا لو أن (ل ٥٦٤ م) قد أخطأ فى الإرسال ..

سأله أحد زملائه فى حيرة :

ـ ماذا تعنى بهذا ؟!

أجابه فى حماس :

ـ لقد تأكدنا بالفعل من أن الاستقبال سليم ، وترجمة البرقية فى قسم حل الشفرة لاتشوبه شائبة ، وهذا يعنى أن الاحتمال الوحيد هو أن عميلنا قد ارتكب خطأ ما فى الإرسال .

أشار إليه زميل آخر ، قائلاً :

ـ إننى أؤيد نظريتك هذه ، فقد راجعت خرائط توزيع التشكيلات الجوية الإسرائيلية لدينا ، ووجدت أن الأسراب (١٠٩) ، و(١١٦) ، (١٢٤) ، كانت بالفعل فى قاعدة (رامات دافيد) ، عندما تم رصدها لآخر مرة ..

كان هذا القول محيرًا أكثر ، لذا فقد اتخذت مجموعة العمل قرارًا عاجلاً حاسمًا ، بإرسال برقية للعميل (ل ٥٦٤ م) ، لدفعه إلى إعادة بث رسالته ، بعد مراجعتها ، والتأكد من كل ما ورد بها ..

وفى العاشرة وتسع وخمسين دقيقة ، حملت موجات الأثير

برقية عاجلة من العمة (ليليان) إلى (ل ٥٦٤ م) ، تطالبه فيها بالإفادة عن صحة برقيته الأخيرة ، واستمر بث هذه البرقية لسبع دقائق مستمرة ..

وجلس الجميع ينتظرون الرد ..

وكعادتهم ، لم يضع الرجال وقتهم فى الانتظار وحده ، وإنما فردوا أمامهم خريطة كبيرة ، تتناثر فيها دوائر حمراء ، يتوسط كل منها سهم أزرق ، مع مئات من الأرقام والرموز الملونة ، التى تعنى الكثير والكثير ، بالنسبة للخبراء والفنيين ، وراحوا يراجعون تحركات أسراب الطيران الإسرائيلية وتشكيلاته ، طوال الأشهر الثلاثة الماضية ..

وفى أعماقهم ولأول مرة فى حياتهم ، كان الجميع يتمنون لو أن البرقية ، التى وصلتهم ، لم تكن صحيحة ، وأن ما ورد بها من معلومات يحوى الكثير من الخطأ ..

وفى الحادية عشرة ، وثمان وعشرين دقيقة بالضبط ، أبلغ قسم الاستماع عن وصول البرقية المنتظرة ..

وخفقت القلوب كلها فى لهفة ..

ولأول مرة أيضًا ، وعلى الرغم من مخالفة هذا لأبسط قواعد التجسس وعلم المخابرات ، وطلب الرجال من خبير الشفرة إحضار البرقية إلى حجرة الاجتماعات ، وترجمتها كلمة فكلمة أمام عيونهم ..

ومع ترجمة أول كلمة ، انطلقت فى أعماق الجميع زفرات الارتياح ..

فلقد استبدل (ل ٥٦٤ م) ، كلمة (وصل إلى) إلى (وجد فى) ..

وهذا يغير معنى البرقية تمامًا ..

وكما علموا فيما بعد ، فقد زار (ل ٥٦٤ م) قاعدة (رامات دافيد) كجزء من عمله ، وعندما وجد تلك الأسراب الثلاثة القوية هناك ، أسرع يبلغ المخابرات المصرية بأمرها ، ناسيًا أن مهمته ، فى هذه الفترة بالتحديد ، هى الإبلاغ عن أية تحركات مفاجئة ، وليس عن التشكيلات الثابتة ، مهما كانت أهميتها وقوتها ..

وكانت هذه هى أكبر كبوة وقع فيها العميل (٥٦٤م) ..

ربما لأنه شعر أن وجود هذه الأسراب الثلاثة معًا يمثل قوة كبيرة ..

أو لأنه لم يكن يدرى أن الحرب على الأبواب ، وأن التحركات المفاجئة تُهم الرجال فى (القاهرة) ، بأكثر مما يهمهم أى شىء آخر ، فى تلك المرحلة ..

ولكن العجيب أن الجميع تنفسوا الصعداء لهذا الخبر ، وأبلغوا به القيادة العسكرية والسياسية ، التى تنفست الصعداء بدورها ، وواصلت عدها التنازلى لبدء حرب أكتوبر العظيمة ..

ومن المؤكد أن (ل ٥٦٤ م) قد تلقى تدريبًا مكثفًا بعد هذه الواقعة ، حتى لا يتكرر منه هذا الخطأ قط ، مهما كانت الظروف ..

وأن رمزه قد تغير إلى آخر ، لا يمكننا الادعاء حتى بمعرفته ..

ولكن المهم أن كبوته لم تفسد الأمور ، وأنه فى تمام الثانية وخمس دقائق ، من ظهر السادس من أكتوبر ١٩٧٣م ، وبعد اثنتى عشرة ساعة بالضبط ، من زيارة قائد القوات الجوية لضباطه ، كانت المقاتلات المصرية تعبر قناة السويس ؛ لتضرب ضربتها الأولى ، وتعلن بداية الحرب الحاسمة ونهاية ساعات التوتر والقلق..

الساعات الأخيرة ..

* * *



د. نبيل فاروق

صراع العقول الذى يتفوق دوما على أعتى الأسلحة والمعدات

روايات مصرية للجيب

سلسلة الأعداد الخاصة

1 حرب الجواسيس





الثمن فى مصر ٣٠٠ مـ
ومايعادله بالدولار الأمريكي
فى سائر الدول العربية والعالم



